كليمنس ماير

الأقمار الساكنة

ترجمة: سمر منير

قصص

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

كليمنس ماير

الأقمار الساكنة

قصص

ترجمة: د. سمر منير

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

د. سمر منير/ مدرس بقسم اللغة الألمانية بكلية الألسن جامعة عين شمس، مواليد القاهرة 1985.. مترجمة وأكاديمية.. ترجمت عدة أعمال من الألمانية إلى العربية ومنها "حلم الأوليمبياد"، "الشاي: ثقافات طقوس حكايات"، "مريم"، "جاسوس ستالين"، "جيورج فورستر بين الحرية وقوة الطبيعة" و"عصر نهاية الخصوصية".

الأقمار الساكنة
طبعة 2021
رقم الإيـــــداع: 2020/21023
الترقيم الدولي: 978-977-821-175-7

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

Originally Published as: Die stillen Trabanten By Clemens Meyer, © S. Fischer Verlag GmbH Frankfurt am Main 2017

"The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, Which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de"

GOETHE INSTITUT

Litrix.de
GERMAN LITERATURE ONLINE

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

مایر، کلیمنس، ۱۹۷۷-
الأقمار الساكنة: قصص/ كليمنس ماير، ترجمة سمر منير
القاهرة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ۲۰۲۰
۲۸۰ ص، ۲۲ سم
تدمك ۷-۱۷۵-۸۲۱-۹۷۷-۹۷۸
۱- القصص الالمانية
أ- منير، سمر (مترجم)
ب- العنوان
۸۳۳

رقم الإيداع: ۲۱۰۲۳/ ۲۰۲۰

المحتويـات

7	**الجزء الأول**
11	شظايا زجاجية في العقار 95
39	وصول متأخر
73	الرحلة الأخيرة لقطار الشاطئ
99	**الجزء الثاني**
103	فتحة الباب
131	الأقمار الساكنة
165	أسفل الجليد
195	**الجزء الثالث**
199	مسافة بعيدة
223	عودة بحاري الأرجو
245	في زماننا هذا

الجزء الأول

كنا نعمل في المساحات الخضراء المُهمَلة بجوار محطة وقود، تقع على الطريق السريع مباشرة. كان الطقس ساخنًا ولم تكن هناك سوى بضع أشجار قليلة نستظل بها. كانت الحشائش تصل حتى أعلى أفخاذنا وكنا نقصها بآلات تشذيب العشب والتي كنا نقطع بها أيضًا الشجيرات الصغيرة المرتفعة قليلًا عن الأرض. وأثناء ذلك، كنا نحمل معنا جرافات وأدوات أخرى، كنا نستطيع أن نقتلع بها الجذور. وقد أراد شخص ما أن يشيد بناءً في الأرض المقفرة؛ فتساءلنا من هذا الذي يريد أن يسكن في الطريق السريع.

أصبح الطقس قرابة الظهيرة ساخنًا جدًّا مما جعلنا نأخذ فترة راحة أطول من العمل. إذ كنا قد بدأنا العمل في الصباح الباكر عندما كانت

الشمس لا تزال حمراء اللون وكانت قابعةً خلف الحقول والمزارع الرطبة. ذهبنا إلى ناحية محطة الوقود. كان يوجد هناك صنبور ماء في الحائط الخلفي، كنا كثيرًا ما ننعش أجسادنا بالاغتسال عنده.

جلس ثلاثة رجال أمام الحائط وقد جذبوا سيقانهم واستندوا بظهورهم إلى الخرسانة. وأمامهم كانت هناك زجاجات ماء، أغلب الظن أنهم كانوا قد ملؤوها من الصنبور. بدوا مثل الهنود الحمر بطريقة جلوسهم هناك فقد كانت شعورهم داكنة اللون ومتوسطة الطول. لكن من منا قد رأى أحد الهنود الحمر سوى في الأفلام.

أحضرنا أحد الأتراك التابعين لنا والذين كانوا يحتسون القهوة في محطة الوقود ولم يكونوا أتراكًا على الإطلاق. أخذ هذا التركي لفترة من الوقت يتحدث بلهجة مكسورة مع الرجال الثلاثة الذين أخذوا يشيرون مرارًا وتكرارًا إلى الغابة الصغيرة الموجودة خلف محطة الوقود. كان الرجل الأوسط بين الرجال الثلاثة يكاد يكون ما زال طفلًا ولم ينظر إلينا وكان قد سحب زجاجة مائه نحوه.

أصبح التركي التابع لنا أيضًا يشير الآن إلى الغابة وانطلقنا متقدمين نحو الأمام بخطوات كبيرة وإيقاع سريع لنلقي نظرة على ما يحدث.

كان هناك بضع سيدات ورجال يجلسون القرفصاء في بقعة مقفرة. كانت إحدى السيدات قد خدشت وجهها أسفل غطاء رأسها وكانت إحدى السيدات الأخريات تمسك بذراعيها. كانوا يجلسون مقرفصين حول فتى صغير الجسد كان مستلقيًا على أرض الغابة. كان الفتى قد تقيأ دمًا وقد التصقت حول فمه إبر نبات الصنوبر وحشائش وبعض من الطين. انحنينا فوقه لكنه كان ميتًا.

التقط رئيس العمال لدينا -والذي كان قد عمل سابقًا في زراعة الغابات

ورعايتها- بضع ورود برية كانت منسحقة بجوار الفتى.

«نبات «زعفران الخريف»» قالها وحرك بحذر كؤوس الأزهار ذات اللون الوردي الباهت. أغلب الظن أن الفتى كان قد أكل منها.

وقفنا لبعض الوقت حول الفتى وأفراد أسرته والذين كانوا قد أتوا من مكانٍ بعيد إلى هذه الغابة الصغيرة ثم تدبرنا هل ينبغي علينا أن نتصل بالشرطة أم بسيارة الإسعاف أم بكليهما. قالت لنا إحدى السيدات شيئًا ما لكننا لم نفهمها. في وقتٍ لاحق، أي عندما أصبح الفتى موضوعًا في إحدى السيارات وكنا قد وقعنا على أوراق روتينية ما، عدنا إلى محطة الوقود وإلى الأراضي المقفرة الواقعة بجوار الطريق السريع مباشرة.

كان اليوم طويلًا وساخنًا وظللنا نعمل بصمت حتى حلَّ المساء.

شظايا زجاجية في العقار 95

كانت الليالي موحشة وممتدة بلا نهاية؛ فكانت تبدأ في الساعة السادسة وتنتهي في الساعة السادسة. كانت مثل أيام مظلمة تلامس بعضها بعضًا وعندما توقفت عن أن تصبح موحشة زادت لا نهايتها وزاد ظلامها. وأصبحنا نتمنى أن يعود شعور الملل؛ إذ كنا نغفو لساعات بين جولاتنا. لم يكن يحق لرؤوسنا أبدًا أن توضع على قرص المنضدة. كنا نغفو ونحن جالسون لكن أصبح من غير الممكن توقع حال العقار 95 وأصبح من غير الممكن توقع حال بعضنا كذلك وفقدوا أعصابهم وتم أخذهم بعيدًا لكنني حاولت أن أبقى هادئًا. كنت أعرف المدينة الجديدة، مدينة الأقمار تلك، التي كان العقار 95 يقع فيها، وكنت أعرف الليالي التي يصاب الناس فيها بالجنون. فمنذ سنوات وأنا أعمل في العقار 95 ومنذ منتصف التسعينيات وأنا أقوم بجولاتي في المدينة بأكملها. وكنت أعرف المجمعات السكنية والتي كنا نسميها في بعض الأحيان «قلاع الأجانب الهمج» حيثما كان الأجانب يعيشون. لم يكن أحد يرغب أن يؤدي عملًا هناك والآن أصبح كل شيء في وضعٍ أسوأ.

كان بعض الزملاء القدامى يقولون: الآن بدأ الأمر من جديد وكانوا محقين؛ فقد كنت أتذكر الوقت والليالي عندما كان الموقف خطيرًا وعندما لم يكن من الممكن الثقة في الشرطة أو «رجال البوليس» كما كنا نقول عندئذ. بدا أن هذا الأمر كان يرجع لوقتٍ بعيد، بدا أنه كان بعيدًا جدًّا. ومن ثمَّ شعرت أنني أصبحت أيضًا زميلًا قديمًا.

كان العقار 95 يقع وسط أبراج لوحية ومجمعات مبانٍ جديدة في مدينة الأقمار.

تم إصلاح المباني السكنية الجاهزة جميعًا فأصبحت الواجهات الخرسانية، التي كانت رمادية اللون في الماضي، مزينة بخطوط ونقوش متعددة الألوان. وبالنهار كنت أرى الكثير من المتقاعدين -الذين كانوا يعيشون هناك- وهم يطلون من النوافذ، عندما كان الطقس يصبح جيدًا، وهم يستندون بأذرعهم إلى إحدى الوسادات، وذلك على الرغم من أنه لم تكن تتسنى رؤية أشياء كثيرة في مدينة الأقمار وفي العقار 95.

لكن كان هناك المجمع السكني للأجانب. كان بعض الزملاء يقولون إن العقار 95 ربما يكون المجمع السكني للأجانب لكن هذا لم يكن أمرًا صحيحًا.

كان العقار 95 مستطيل الشكل ويتكون من مبانٍ سكنية جاهزة بها عشرة طوابق. وكان هناك فناء داخلي كبير بين مجموعات المنازل. أما المجمع السكني للأجانب فكان يقع خارج المبنى المستطيل على بعد مسافة قصيرة؛ إذ كانت شركة عقارية قد اشترت كل هذا قبل أعوام وأصلحته والآن أصبح لزامًا على شخص ما أن يعتني بهذا. كانت الليالي في مدينة الأقمار طويلة ومثلما يحدث دائمًا أرادوا أن يوفروا المال؛ فاستعانوا بواحدة من أرخص خدمات الحراسة، على الرغم من أن المجمع السكني للأجانب كان جزءًا من المجموعة التي كانوا قد اشتروها من المدينة. لم أكن أريد أن أتحدث عنا بسوء؛ فقد كنا جمعية جيدة، رخيصة لكنها جيدة. وعلى كل حال، كان بعض الزملاء يعرفون ما الذي كانوا يقدمون عليه عندما ارتدوا الزي الرسمي للعمل.

بدأت جولتي كالمعتاد من دون الكلب. كان النهار لا يزال ساطعًا تقريبًا. وكان لدى الكلب أرداف مثل أغلب كلاب الحراسة وكان كلبًا بلجيكيًّا عجوزًا من سلالة «شيبرد» وكان مُدرَبًا تدريبًا جيدًا جدًّا لكنه كان يعرج قليلًا وكان مصابًا ببدايات خلل في مفصل الفخذ. كنت لا أخذه معي

في الجولات إلا بدءًا من منتصف الليل. فكان يستلقي في بيت الحراسة الصغير ويستريح. كان بيت حراستنا الصغير يقع بجوار الشارع مباشرةً على شريط ضيق أخضر. وكان النور يضاء فيه من الساعة السادسة إلى الساعة السادسة ولم يكن أحد يستطيع أن يطفئه حتى يستطيع كل شخص أن يرانا. حارس أمن وكلب في بيت صغير مضيء مصنوع من الزجاج الأكريليك وبالخارج خيَّم الليل.

«من رقم واحد إلى رقم اثني عشر. رقم واحد ينادي رقم اثني عشر».

أخذت جهاز اللاسلكي من حزام ملابسي. كان ثقيلًا وكبيرًا جدًّا أكثر مما ينبغي وكان سلاحًا أفضل من الهراوة المطاطية والتي كنت ما زلت أحملها أيضًا في الحزام. كان جهاز اللاسلكي مثل حفرية من زمن آخر؛ فنحن لدينا الهواتف المحمولة والهواتف الذكية وكل الأشياء السخيفة لكن جهاز اللاسلكي كان يصدر صوت خشخشة وصوت أنين في ذبذبات الليل وكان يتحدث معنا عبر الأزمنة والأماكن عندما رأيتــها من جديد هذا المساء في العقار 95.

لكن لم تكن هي. فكيف يمكن أن تكون هي دون أي تغيير وفي ريعان شبابها هكذا بعد مرور أكثر من عشرين عامًا. «رقم اثني عشر يسمعك!».

بدأتُ الجولة الأولى من دون الكلب. كنا في الخريف. سحبت الشريط المغناطيسي الأول بالاستعانة بجهاز قراءة شرائط التحكم. صوت صفير منخفض. وضعتُ الجهاز الأسود، الذي كان يبدو مثل صاعق كهربائي، مرة أخرى في الجيب الجانبي لسترة رداء العمل الذي كنت أرتديه. أصدر جهاز اللاسلكي صوت خشخشة وبدأ ينبعث منه صوت الحديث وسمعت صوت مراقب العمل العجوز الذي كان يجلس في المركز الرئيس، بعيدًا جدًّا عن مدينة الأقمار، على الطرف الغربي للمدينة الحقيقية التي انبثقت منها مدينة الأقمار مثل... الأيام التي... انتفضتُ، جولات كثيرة جدًّا أكثر

مما ينبغي ووورديات عمل كثيرة جدًّا أكثر مما ينبغي في الأسابيع الماضية.

قال مراقب العمل: «من رقم واحد إلى رقم اثني عشر». كنا ننتظر من سنوات أن يحال إلى التقاعد. كان يقال إنه ربما كان في ما سبق من كبار الرجال في جهاز الاستخبارات أو في جهاز أمن الدولة لكنني منذ أن عرفته ومنذ أصبحت أؤدي أعمال الحراسة، لمدة تزيد على عشرين عامًا، كان يبدو مثل رجل عجوز.

«رقم اثني عشر يسمعك».

«هل كل الأمور هادئة في العقار 95؟».

«هل تم الإبلاغ عن أي شيء؟» سألت عبر جهاز اللاسلكي وركضت نحو أقرب شريط تحكم الذي كان مثبتًا في أحد جدران المنازل بعد بضعة منازل وبجوار أحد ملاعب الأطفال. على الرغم من أن الظلام قد حلَّ تقريبًا، كان هناك طفلان يلعبان. كانا يبدوان كأنهما قادمان من المجمع السكني للأجانب؛ فكانا ذوي شعر أسود ولامع وبشرة داكنة وكانا يأتيان غالبًا في المساء ليلعبا هنا عندما يكون الأطفال الآخرون قد انصرفوا بالفعل. أصدر جهاز قراءة شرائط التحكم صوت صفير منخفض عندما سحبته أعلى الشريط المغناطيسي. جلس كلا الطفلين في الرمال أسفل ألعاب تسلق الأطفال وأمسكا بعضهما بأيدي بعض. وجلسا هناك ممسكين بأيدي بعضهما.

قال مراقب العمل العجوز: «لم تذكر النشرة الجوية أي خبر مميز». ثم سمعت صوت نقر ولاعته. كان الكثير من الزملاء يدخنون السجائر مثل المداخن. أما أنا فكنت قد أقلعت عن التدخين قبل عشرة أعوام أو ربما قبل سبعة أو ثمانية أعوام أيضًا. وعندما كنت أبدأ ورديتي في العمل – التي كانت تستغرق غالبًا خمسة أو ستة أو حتى سبعة أيام وعلى الرغم

من أنني كنت أتجاوز بذلك وقت العمل الأسبوعي المنصوص عليه في القانون– كنت أفرغ مطفأة سجائر بيت حراستنا الصغير ببساطة في الأرض المغطاة بالحصى التي كان بيت حراستنا الصغير موجودًا عليها. وكنت أذهب في بعض الأحيان فقط ومعي مئات أعقاب السجائر إلى إحدى سلات المهملات الحجرية التي كانت الشركة العقارية قد وضعتها بشكل ثابت في كل مكان في العقار 95.

قلت: «إذًا فرقم اثني عشر يثق في النشرة الجوية». سمعتُ كيف كان يتنفس مراقب العمل العجوز أو ينفث الدخان وهو يضع إصبعه العجوز المتلون بلونٍ أصفر بفعل النيكوتين على زر الاستقبال «رقم واحد يتمنى لك عملًا طيبًا».

كنت قد جذبت عدة أشرطة تحكم بالفعل عندما أخذت أقترب من المجمع السكني للأجانب ببطء. كان الناس يتجمعون في الليالي، وأحيانًا في مطلع المساء ولكن غالبًا في الليالي، أمام المجمع السكني للأجانب. كانوا غالبًا من الشباب وكان بعضهم يأتي من منازل العقار 95 والبعض الآخر من أعماق مدينة الأقمار. لكن اليوم بدا أن كل شيء ظل هادئًا. على الرغم من أنه كان يوم الجمعة. في الفناءات الداخلية بين مجموعات المنازل، كان بعض الرجال المتقاعدين قد ألقوا عليَّ التحية، بينما كانوا يضعون آخر احتياجاتهم في كيس بلاستيكي ويثرثرون أمام أبواب منازلهم ويلقون السيجارة المسائية في إحدى سلات الأوراق الحجرية. ومن خلف المباني السكنية الجاهزة للعقار 95 وأمام السماء ذات اللون الذي يجمع بين الأحمر والأسود وذات اللون الأزرق الداكن، ارتفعت عاليًا المجمعات السكنية لمدينة الأقمار. الأبراج اللوحية والمربعات السكنية التي تم تخطيطها والتي ترجع نشأتها إلى عهد الاشتراكية ويعود تاريخها إلى أكثر من خمسة وعشرين عامًا مضت. عندما كنت ألقي نظرة على الخريطة، التي كانت مُثبَّتة على أحد الجدران الزجاجية لبيت حراستنا

الصغير، كنت أرى أحياء مدينتنا وكنت أرى العقار 95 في طرف مدينة الأقمار، هناك، حيث يبدأ وجود الخرسانة. لم أكن أعرف بدقة من الذي كان قد لصق خريطة المدينة هذه على الزجاج وكانت فيها علامات مميزة بقلم فلوماستر وموضوعة على عقاراتنا. وكنت قد أديتُ عملًا في معظمها بالفعل. المناطق التجارية ومركز «موكاو» في الطرف الآخر للمدينة بكل ما فيه من متاجر في طابقين والممرات الطويلة حيثما كنت أقف أمام اللوح الزجاجي لمحل الصائغ وأتأمل الأحجار والخواتم في ضوء واجهة العرض الليلي. لم تختفِ سوى ثكنات الروس العسكرية القديمة –والتي ظللنا نحرس غرفها الخاوية لفترة طويلة– فقد تهدمت بمرور السنين.

تشبثتُ بالسور وألقيت نظرة على النافذة المفتوحة في الطابق الأرضي حيثما كانت السيدة الشابة تجلس على حافة النافذة. رأيتها عبر السور. كانت تجلس على حافة النافذة وتثني ساقيها على هيئة زاويتين وتضع رأسها على ركبتيها. كانت تلقي نظرة نحو المساء ومن ورائها ضوء الغرفة. استطعت أن أتبين وجود ملصق ما على الحائط ورفًّا وأريكة كان عليها كيس أزرق. أطبقت على جهاز قراءة شرائط التحكم بإحكام شديد لدرجة أنني ظننت لوهلة أن غلافه البلاستيكي سوف ينشق متمزقًا. أين كان شريط التحكم الذي كان عليَّ أن أجذبه؟

كان شعرها ذا لون بني مائل إلى الاحمرار ومتوسط الطول وكانت بشرتها فاتحة اللون جدًّا. كانت قد قطبت جبينها. استطعت أن أتبين هذا. ربما أنها كانت تمعن التفكير في أمور هامة بينما كانت تلقي نظرة نحو الليل، الذي كنت أقف فيه خلف السور ولا أفهم شيئًا. وضعت يدي على الدعامات المعدنية الباردة ونظرت إلى وجهها وأنفها الصغير، أنفها ذي الأرنبة المرتفعة، يا لها من كلمة جميلة، تلك التي شعرت بها. لكن بدا أنها لم تكن تراني. لم أكن أدري كم من الوقت وقفت هناك؛ ففي وقتٍ ما سمعت أصواتًا من خلفي، أصواتًا صارت أعلى، صيحات من

الليل، وعرفت أن النشرة الجوية قد خابت مرة أخرى. ورأيت بعد ذلك أن هناك شيئًا ما كان يحدث أيضًا في المساحة المغطاة بالنجيل والواقعة بين المجمع السكني للأجانب والسور؛ إذ أخذ أشخاص أجانب يخرجون من المبنى أكثر وأكثر. حركت رأسي ورأيت الشباب والفتية وكبار السن بين العقار 95 والمجمع السكني للأجانب. وبينما كنت أقلب بصري هنا وهناك بين كلتا المجموعتين، اللتين كنت أقف بينهما، وكنت ما زلت أضع يدي على السور، تغير شيء ما، هل كان الضوء؟ هل بزغ قمر ما وألقى بظلاله أم امتدت سحب في السماء؟ نظرت من جديد عبر قضبان السور. أين هي؟ أين النافذة المضيئة التي كانت تجلس فيها؟

كانت ملفتة للأنظار وسط ذوي البشرة الداكنة وذوي الشعور الداكنة الذين كانوا يقفون خلف السور أمام المجمع السكني للأجانب. بالطبع كان هناك أيضًا بضعة أشخاص ذوي بشرة فاتحة اللون وذوي شعور فاتحة اللون؛ فهذا كان وقت الألمان الروس الذين جاؤوا إلينا من الإمبراطورية الضخمة المنهارة. لكن هؤلاء لم يكن ينتهي بهم المطاف في أغلب الأوقات في المجمعات السكنية للأجانب. كانت منطقة عملنا تنتهي عند السور؛ إذ كنا مسؤولين فقط عن الثكنات القديمة التي كان الروس قد غادروها والتي كانت كبيرة الحجم مثل مدينة صغيرة. نمت حشائش في الشوارع الضيقة بين المباني وفي كل مكان كانت هناك شظايا زجاجية. أحيانًا كانت الشوارع تزداد عرضًا وأحيانًا كنت أظن أنني أسمع صوت صلصلة سلاسل المدرعات على أحجار الرصيف.

كانت غرفتنا موجودة في برج ضيق يقع بجوار البوابة الرئيسة مباشرةً. وهناك كان يوجد موصل كهربائي من أجل مسخن المروحة وكان هناك أيضًا أريكة نصفها تالف، كنا ننام عليها متململين، جالسين ونحن نضع رؤوسنا على المسند؛ إذ إن سيارات الدورية التابعة لجمعيتنا كانت تمر أحيانًا وتلقي نظرة علينا، وكانت هناك آلة تحضير قهوة على إحدى

الطاولات وفي كل مكان كانت الصحف والمجلات تتكدس، مئات الصحف والمجلات، ماذا كنا نعرف وندري عن شبكة الإنترنت في هذه السنوات؟

كان زوج من ألواح النوافذ ما زال سليمًا، أما باقي النوافذ فكنا قد ثبتناها بالورق المقوى. هنا كنا نجلس في النهار والليل. وكنا نقوم بالجولات بصحبة الكلاب والتي كانت تقودنا حتى السور الذي كان يفصل بين ساحة ثكنات الروس والمجمع السكني للأجانب. كانت المباني متصدعة على الرغم من أن الروس، أو السوفيت، لم ينسحبوا إلا قبل عامين.

وقفتُ إلى السور ووضعت يدي على المعدن البارد. أين هي؟ وأين النافذة المضيئة في العقار 95؟ حتى الكلب شعر على الأرجح أنني صحيح كنت أقف إلى جانبه لكنني كنت شارد الذهن في موضع آخر تمامًا؛ فأخذ يعوي بصوتٍ منخفض وسار بضع خطوات في غير ارتياح وفرك طوقه في السور كأنه كان يود أن يتخلص منه.

كنت أصطحب الكلب دائمًا من المركز الرئيس، حيث كان ينتظرني في بيت الكلاب، وكنت أذهب معه إلى ثكنة الروس التي كان الروس قد غادروها قبل عامين. كنت أمسح بيدي على الشعر الرمادي الناعم للكلب البلجيكي من سلالة «شيبرد» الذي أصبح فجأة من جديد كلبًا بلجيكيًّا صغير السن. لا، حينها أيضًا كانت أغلب كلابنا عجوزًا ومستبعدة من العمل وكنت أنا وحدي شابًّا وهي أيضًا. لكن هناك لم يكن أي كلب بجواري على الإطلاق؛ فالكلب كان في بيت الحراسة الصغير، في العقار 95، وكانت يدي تمسح في الهواء. كانت تداعب الهواء.

مضينا في جولتنا النهارية. لقد مضينا لبضع سنوات بصحبة كلابنا حتى بدأت الكلاب تعرج وعندئذ نقلوها بعيدًا ووفرت لنا شركتنا كلابًا جديدة، كنا مضطرين أن نعتاد عليها. كلاب رخيصة ومعفاة من العمل

من حدود اختفت وتختفي. كانت أسماء الكلاب تختلط علينا وكانت الكلاب كثيرًا ما تركض بجوارنا باضطراب وفي غير ارتياح وكانت تفرك أطواقها في الأسوار والجدران كأنها كانت تود أن تتخلص منها. وقفت بصحبة الكلب أمام بوابة ثكنة الروس وبدأت جولتي عبر هذه المدينة الصغيرة. وكانت الشظايا الزجاجية تصدر صوت طرقعة أسفل أقدامنا.

كنا في الربيع. هل كنا في الربيع؟ في ما بعد أهديتها زهرة، كان بها نبتة لونها ليلكي. وأهديتها في ما بعد زهرة، ترعرعت في الحُطام بين المباني. زهرة ربيعية. كان الطقس في الليالي باردًا في كثير من الأحيان وكان نفسنا يصدر بخارًا في الغرف الخاوية.

مضيتُ بصحبة الكلب عبر شوارع ثكنة الروس القديمة وكنت أذهب من شريط تحكم إلى شريط تحكم. كنت أتساءل في بعض الأحيان من الذي حطَّم كل الشظايا عندما انسحب الروس. كنت قد سمعت في بعض الليالي صوت قرقعة ولم أكن أخرج من غرفتنا وكنت قد ألقيت نظرة على البوابة المضيئة. هناك كان كل شيء هادئًا. سمعتُ صوت القرقعة في بعض الليالي وفي أغلب الأوقات كان الشبح يمر سريعًا من جديد وفي الصباح، أي عند أول دورة تفتيشية، وقبل أن يحين وقت تبديل ورديات العمل، كنت أتأمل آثار الأضرار وأمضي بصحبة الكلب بحذر فوق الشظايا المبعثرة في كل مكان في الشوارع.

كانت تقف إلى السور وكانت قد استندت برأسها إلى الدعامات، هكذا رأيتها لأول مرة. كانت ترتدي معطفًا فضفاضًا جدًّا.

وقفت على بعد بضعة أمتار. عندما افتتحت المدينة المجمع السكني للأجانب بجوار الثكنة الخاوية مباشرةً، كان علينا أيضًا أن نضع شريط تحكم هناك، عند عارضة السور. «لقد ذهب الروس وجاء الأجانب الهمج» هكذا كان الزملاء يقولون.

كان شعرها ذا لون بني مائل إلى الاحمرار ومتوسط الطول وكان وجهها فاتح اللون جدًّا. وكانت بشرة يديها أيضًا تكاد تكون بيضاء. وفكرتُ لوهلة أنها ربما تعمل في المجمع السكني للأجانب؛ إذ إنها لم تكن تبدو مثل واحدة من الأغراب ذوي البشرة الداكنة والذين كان الزملاء يسمونهم في بعض الأحيان «الأجانب الهمج». كنت أنا أيضًا أستخدم هذه الكلمة بين الحين والآخر عندما كنا نحتسي القهوة قبل أن تنتهي ورديتي في العمل وتبدأ نوبة تبديل الحراسة؛ هكذا كان الناس يتحدثون في بعض الأحيان لكي لا يظهروا كأنهم ضعفاء، مع أنني لم يكن لديَّ ثمَّة مشكلة مع الأجانب الهمج.

كان شعرها ذا لون بني مائل إلى الاحمرار ومتوسط الطول وكانت تضع جبينها على السور، وعندما رفعت رأسها ونظرت إليَّ، رأيتُ أن دعامات السور المعدنية المتلاصقة قد تركت أثرًا في بشرة جبينها.

كانت عيناها أيضًا فاتحة اللون، زرقاء -وهو ما رأيته في وقتٍ لاحق- لكن كان يبدو لي أحيانًا، في ما بعد، عندما اختفت في ذكرياتي، أن عينيها أصبحت بعد ذلك داكنة اللون وأنها كانت تنفتح بلونٍ داكن وتتسع مثلما يتغير لون الماء عندما تنقبض السماء أو عندما يحلُّ المساء.

لم يكن المعطف الفضفاض جدًّا، الذي كانت ترتديه والذي كانت أكمامه المرفوعة لأعلى تتأرجح أعلى يديها- وحده غريبًا؛ فقد بدت تائهة بصورة غريبة وصغيرة الجسد -على الرغم من أنها لم تكن صغيرة الجسد هكذا على الإطلاق- بينما كانت تستند هناك إلى السور عندما توجهت نحوها مقتربًا منها وتطلعت إليها. كم كان عمرها حقًّا، ثمانية عشر عامًا؟ تسعة عشر عامًا؟ ركض الكلب أمامي وشدَّ الحبل وودَّ أن يذهب إليها على الرغم من أنني كنت أقول مرارًا وتكرارًا «تمهل». ربما أنه تذكر أسوار الحدود التي كان قد أدى خدمة العمل عندها. وددت أن أضع له الكمامة

المصنوعة من الجلد -التي كنت أحملها دائمًا معي حسبما كانت تنص الأوامر- لكنه أصبح بالفعل عند السور وجلست الفتاة القرفصاء ودست يدها عبر الدعامات وأخذ الكلب يتشمم يدها ووضع لسانه الكبير سريعًا جدًّا على أصابع يدها حتى سحبتُه أنا بعيدًا. «فلتبتعد!».

نظرتْ إلى أعلى نحوي. قالت: «لا، كلب جيد». ومن جديد شدَّ الكلب الحبل وأصبح عندها وابتسمت هي؛ فقد بدا الأمر كأن الكلب سيلف يدها بلسانه الكبير.

قلت: «أهلًا».

قالت: «أهلًا سيادة الضابط». كانت تتحدث بلكنةٍ ما تمامًا كما كان الروس أو الجنود السوفيت يتحدثون قبل أن ينسحبوا.

قلت: «أنا لست بضابط».

نهضتْ واقفة من جديد واقتربتُ أنا جدًّا من السور ملتصقًا به تمامًا ونقرتْ هي بكلتا يديها على كتفيها وقالت: «أنت ضابط».

مسحتُ بيدي على واحد من الشرائط الموضوعة على كتفي سترة رداء عملي الزرقاء. ابتسمتُ وقلتُ: «أنا مجرد حارس أمن».

«آه، سيكوريتات[1] أنت تظل منتبهًا لكي لا يصيبنا سوء». دست يدها من جديد عبر السور ونقرتْ على صدري.

«لا» قلتها ونظرت بجوارها نحو منازل المجمع السكني للأجانب المسطحة والمغطاة بالصفيح. كان هناك ناس يجلسون أمام بعضهم على كراسٍ بلاستيكية وكان هناك رجال يقفون حول مطفأة سجائر

1- مصطلح كان يطلق على الشرطة السرية الرومانية. (المترجمة)

كبيرة، كانت تتخذ شكل فطر عيش الغراب، وكانوا يدخنون. كانت النوافذ مفتوحة وكانت هناك أم عجوز ضئيلة الجسد تستند إلى وسادة، كانت قد وضعتها على حافة النافذة. وكان هناك غسيل متعدد الألوان معلق خارج بعض النوافذ المفتوحة ليجف. «هناك فقط يوجد جيشي». استدرتُ وأشرتُ إلى الثكنة المهجورة من خلفي.

قالت: «أنت ضابط!». ثم استدارت وذهبتْ إلى أحد المنازل. وعندما وددتُ أنا أيضًا أن أمضي، ظلت هي واقفة مرة أخرى. صاحت: «إن كلبك. إن كلبك كثيرًا...» وأخذت تتدبر الأمر «لطيف (قالتها بالروسية)» قالتها لكن بصوت غير عالٍ هذه المرة فاستطعت بالكاد أن أفهمها «جميل (قالتها بالروسية)».

«جميل» قلتها وقلتها بعد ذلك مرة أخرى بصوتٍ أعلى قليلًا: «جميل» ورأيتُ كيف ابتسمتْ ثم استدارتْ وواصلت الركض. كان المعطف يجرجر على الأرض من خلفها كأنه ذيل فستان. لم تكن معرفتي باللغة الروسية جيدة إلى حدٍّ كبير؛ فمستواي في المدرسة كان سيئًا دائمًا في اللغة الروسية. كما أن هناك بضع سنوات قد مرت بالفعل منذ ذلك الحين لكنني فهمت كلمة «جميل (باللغة الروسية)». سحبت شريط التحكم الذي كدت أن أنساه وعدت مرة أخرى إلى شوارع الثكنة، مرة أخرى إلى الشظايا الزجاجية.

عندما قابلتها بعد بضعة أيام مرة أخرى عند السور، سألتني ما اسم الكلب.

«كلبك ليس له اسم. أليس كذلك؟».

قلت: «نحن نسميه رقم ثلاثة. وأنتِ، ما اسمك؟».

«رقم ثلاثة؟ الكلب يحتاج أن يحمل اسمًا».

«يمكنك أن تطلقي عليه اسمًا كيفما تشاءين. لو أنتِ... اسمك».

كان الكلب قد استلقى بجواري على الأرض في سكون؛ كان مُتعَبًا.

لم تجبني ولم تذكر لي اسمها. نظرتْ إلى الكلب ثمَّ إليَّ واتكأت على السور وكانت قد بسطت ذراعيها وشبكت أصابع يدها في الدعامات المعدنية ورفعت قدميها قليلًا وثنت ساقيها بخفة نحو الخلف مثل فتاة تتعلق بأحد ألعاب تسلق الأطفال. قالت: «كان لديَّ أنا أيضًا كلب، في المنزل».

«و... أين هو، أين كان؟» دنوت خطوة منها وأصبح وجهانا الآن أمام بعضهما مباشرةً ولم يفصل بيننا سوى قضبان السور المعدنية.

قالت مرة أخرى: «كان لدينا أيضًا كلب» ونظرتْ عبر شبكة قضبان السور –مرورًا بي– نحو منازل الثكنة القديمة المُتصدِّعة شيئًا فشيئًا.

قلت: «أنتِ من روسيا، من الاتحاد السوفيتي العظيم».

قالت: «ليس من روسيا، من بلد صغير، بعيد جدًّا. وجبال. قريتنا... أمام الجبال». حرَّكت كلتا يديها في الهواء كأنها تصنع أشكال جبال ضخمة ووضعتْ بعد ذلك راحتي يديها بعضها إلى بعض ورفعت ظهري يديها إلى أعلى كأن قريتها، التي جاءت منها، كانت هناك، على يديها، أي في قاع الجبال، في السهل. جلسنا على درجات السلم المؤدية إلى البوابة المغطاة لمدخل منطقة تجمع الضباط القديمة. كنت قد أطلقت سراح الكلب من الحبل؛ فأخذ يتشمم بضعة جدران واستلقى بعد ذلك على شعاع من ضوء الشمس على رصيف الشارع الصغير.

قلت: «هذا أمر غريب» وأضفت: «إنه في الحقيقة كلب... كلب شرس».

«ما هذا... كلب شرس؟» لم تفهم.

«حسنًا. لا بدّ أنه... كان يعض الكثيرين، في الماضي، عند الحدود، في الشرطة، حدود (قالها بالروسية)، شرطة (قالها بالروسية)، هل تفهمينني؟ (قالها بالروسية)».

«الآن أصبح سنه كبيرًا ويريد أن ينعم بالسلام».

قلت لها: «ربما» وأضفت «من المحتمل (قالها بالروسية)».

قالت: «إن معرفتك باللغة الروسية جيدة».

«أتعرفين، لقد تعلمتها في المدرسة، في الماضي. لكنني أتحدث بها قليلًا جدًّا أقل مما ينبغي وأصغر جدًّا مما ينبغي. قليل، قليل (قالها بالروسية)».

«كان كلبي اسمه «جيجي»».

«إنه اسم جيد بالنسبة لكلب».

«نعم؟» ابتسمتْ وقالت: «لقد أسميته هكذا لكن بابا قال...» لم تواصل حديثها وصمتنا لبرهة وأخذنا ننظر إلى الكلب الذي غفا في الشمس.

قلت: «إن معرفتكِ باللغة الألمانية جيدة جدًّا».

«قليلة جدًّا» قالتها وأضافت: «قليل، قليل (قالتها بالروسية)».

قلت لها: «لا يا «ماريكا»، أنتِ تتحدثين جيدًا، أنتِ... جميلة جدًّا». نظرت إليَّ وكانت هناك تجعيدة أعلى أنفها الصغير وحتى جبينها بالأعلى. ما تمالكت نفسي أن ابتسمت وبعد ذلك ضحكت؛ فأحيانًا ما يقول الإنسان هذه الأشياء بغباء شديد وبحماقة وعندئذ يصبح الإنسان فجأة من جديد مثل فتى، مثل تلميذ، مثل طفل.

«أنت تسخر مني».

«لا يا «ماريكا»، أنا لا أسخر منكِ أبدًا. أنتِ...».

«الضباط الصغار يحبون النساء دائمًا. أليس كذلك؟» دست إحدى أصابع يدها أسفل واحد من الشرائط الموضوعة على كتفي سترة رداء عملي وأخذت تشد القماش الأزرق قليلًا.

كانت قد ظلت واقفة بعد أن التقينا للمرة الثانية عند السور وبعد أن كانت قد عادت مرة أخرى إلى منازل المجمع السكني للأجانب.

كنتُ قد سحبتُ شريط التحكم وكانت هي قد استدارت وبدت حائرة جدًّا وشاردة الذهن جدًّا وهي تقف هناك في منتصف الطريق بين السور ومنازل المجمع السكني للأجانب. استطعت أن أرى كيف أخذت يداها تمسح ذهابًا وإيابًا على قماش معطفها، صعودًا ونزولًا. كانت تقف مستقيمة تمامًا وتضغط بذراعيها إلى جانبي جسدها وبعد ذلك تراجعت بضع خطوات باتجاه السور وقالت لي اسمها.

كانت لا تزال ترتدي المعطف الفضفاض جدًّا والذي كانت أكمامه مرفوعة لأعلى ولكنها تتأرجح أعلى يديها مرارًا وتكرارًا. «أنت تشعر بالخوف في الليل، أليس كذلك؟».

«أجل» قلتها وأضفت: «لا، أنا أقصد أنه هو متيقظ». أشرت إلى الكلب الذي ما زال يغفو في آخر أشعة من شمس الغروب. «وأنا... متخصص. وما الأمر الجلل الذي قد يحدث هنا؟».

«أجل» قالتها بعد برهة «لا شيء» لكنني رأيت أنها كانت شاردة الذهن في موضع آخر تمامًا. كانت قد تركت الشريط الموضوع على كتفي وانحنت نحو الأمام واتكأت على ركبتيها وشبكت ذراعيها أمام صدرها وكانت يداها تطوقان عضديها. ألقتْ نظرة على المنزل المواجه لها، مبنى من الطوب الأحمر. كان الطوب في بعض المواضع لونه أحمر قانٍ وأسود.

وكانت الألواح الزجاجية متهشمة مثل جميع الألواح الزجاجية تقريبًا في الثكنة القديمة وكانت الشظايا الزجاجية ملقاة في الشارع وفي طريق المشاة الضيق.

لمستُ بحذر قماش معطفها ووضعتْ يدي على ظهرها المتقوس نحو الأمام، أسفل مؤخرة رأسها، لكي تدرك أنني أصبحت هنا. إذ إنها كانت شاردة الذهن في موضع آخر تمامًا. كانت تنظر إلى النوافذ التالفة.

رأيتُ كيف أخذت شفتاها تهمسان بشيء ما، هل كانت أسماءً؟ لكنني لم أفهم شيئًا. ««ماريكا»» قلتها وانحنيتُ نحو الأمام وجلست القرفصاء أمامها وحاولتُ أن أنظر في عينيها وكانت قد مالت برأسها نحو أسفل بشدة. بدت عندئذ عيناها الزرقاوان أغمق لونًا وكانت حدقتا عينيها ضخمتين ونهضتُ واقفًا واضطررت أن أشيح ببصري؛ فقد شعرتُ بالخوف أن أتوه في عينيها. لم أدرِ كم من الوقت جلستْ هناك وهي تهز الجزء العلوي من جسدها وحده بخفة وتهمس بشيء ما بينها وبين نفسها. كنت قد أشعلت سيجارتي وسار الكلب أمامي بتمهل وبطء نحو البوابة، نحو قاعة استراحتنا التي كان ينبغي علينا ألا نغادرها في الليل. على الأرجح، كانت الشركة تود أن تتجنب إثارة شعورنا بالغضب لو تكسرت عظامنا في المباني المعتمة والتي تكاد تتهاوى... وبعد ذلك أصبحتْ تقف بجواري.

«الكلب ميت» همستْ بها عندما استندت بجسدها إليَّ. طوقتها بذراعي وقالت: «كل شيء... كل شيء على ما يرام».

«لا» قالتها وأضافت: «لا شيء على ما يرام».

قلت: «أجل» وأردفتُ: «من المحتمل. لكن الآن، أنتِ... أنتِ...».

قالت: «أجل» وأضافت: «الآن أنا هنا. أنت طيب».

«صغيرتي «ماريكا» (قالها بالروسية)» ضممتها إليَّ وهكذا ظللنا واقفين لبرهة وأخذنا نراقب كيف أصبح لون السماء خلف منازل الثكنة القديمة أحمر وكيف تحركت غيوم رمادية وسط اللون الأحمر ثم أصبح لون السماء داكنًا. كان الجو قد أصبح باردًا وضمَّت هي معطفها الفضفاض جدًّا على صدرها. وبعد ذلك ذهبت بها إلى نهاية السور حيثما بدا كأن السور يلامس جدارًا من الطوب لكن كانت هناك ثغرة بين الجدار والسور.

جلست طوال الليل في قاعة استراحتنا وأخذت أدخن. لم تكن معي سوى سجائر قليلة في محفظة جلدية؛ إذ إنني لم أكن أدخن كثيرًا أثناء عملي، سيجارة أو اثنتين وعندما كان موعد تغيير ورديات العمل يحين في الصباح، كنا ندخن سويًّا سيجارة أو اثنتين ونتحدث عن هذا الأمر أو ذاك أو نصمت قبل أن نذهب إلى المنزل.

غشيني النوم بضع مرات وكنت أفيق من جديد وأرمش بعيني في الغرفة شبه المظلمة لكنها لم تأتِ. نزلتُ إلى البوابة وسحبتُ شريط منتصف الليل الخاص بي وهززتُ لوهلة السلسلة الحديدية والقفل قبل أن تثور ثائرتي من جديد. صوت طنين منبعث من طريق سريع من مسافة بعيدة، أضواء المدينة، رائحة الربيع الغريبة. كتبتُ في دفتر الخدمة: *ما من أحداث مميزة*. تصفحتُ دفتر الخدمة وقرأت ملاحظات الزملاء. *أطفال في الساحة ومخربون قرابة الساعة الواحدة، تم الاتصال بالمركز الرئيس، أشخاص يجمعون المعادن القديمة في العقار، تم الاتصال بالمركز الرئيس...*

استلقى الكلب على الحصيرة ونام. أخذتُ كشافي اليدوي من ماركة «ماجليت» وذهبت إلى الطابق السفلي حيث كانت توجد غرفة صغيرة. أصدر الزجاج أسفل حذائي صوت طرقعة. نفذ قليل من الضوء فحسب

من السلالم إلى هذه الغرفة الخاوية. جلستُ القرفصاء وفتحت سروالي. كانت قد قبلَّتني قبل أن تتسلل إلى الثغرة الموجودة بين الجدار والسور.

شعرتُ بالخجل عندما صعدتُ السلالم من جديد. لكنني كنت مضطربًا تمامًا. يدها على وجهي. «هل ستأتين مرة أخرى... غدًا؟» كيف استدارت وابتسمتْ. ورفعتْ يدها. ولوَّحت بيدها. «كم عمرك يا «ماريكا»؟».

«تسعة عشر عامًا».

«وماذا عن والديكِ؟».

صمتت وسندت رأسها إلى كلتا يديها. كان شعرها متوسط الطول وذا لون بني مائل إلى الاحمرار وكانت لديها شامة في مؤخرة رأسها والتي استطعت أن أشعر بها عندما مررت بيدي بين شعرها.

كيف استدارت بعيدًا عندما أردت أن أقبِّلها وكيف قبَّلتني هي بعد ذلك قبل أن تختفي في ساحة المجمع السكني للأجانب، خلف السور.

صعدتُ السلالم نحو أعلى. ثم استدرتُ مرة أخرى وذهبتُ إلى الباب وفتحته واتكأت على إطار الباب. الثكنة أمامي وكل المباني غارقة في ظلام دامس. كانت البوابة الحديدية الكبيرة وحدها مضيئة. لم يكن من الممكن رؤية المجمع السكني للأجانب من هنا. من المؤكد أن الجميع هناك نائمون الآن. هل كانت هي نائمة؟ أم أنها كانت تستلقي يقظة وتنظر إلى السقف أم أنها كانت تقف إلى النافذة؟

مجرد قُبلة عابرة وليست وقفة لوقتٍ طويل. قماش معطفها الفضفاض جدًّا. الثغرة بين السور والجدار. كنت أذهب كل يوم إلى السور لكنها لم تكن هناك. كانت الليالي موحشة وممتدة بلا نهاية. الشظايا في ضوء كشافي اليدوي من ماركة «ماجليت». كانت القطرات تلمع مثل اللبن

على الشظايا. وقفتُ في إطار الباب ودخنتُ سيجارتي الأخيرة. ما زلتُ مضطربًا تمامًا. واصلتُ سيري نحو السور، ما زلت في الساعة السابقة على الغسق، أخذت واحدة من الشظايا الزجاجية ورفعتها عاليًا.

«من رقم واحد إلى رقم اثني عشر. من رقم واحد إلى رقم اثني عشر!».

لم أدرِ كم من الوقت وقفتُ إلى السور. كنت قد ضغطت برأسي على الشبكة المعدنية للدعامات وعندما مسحت بيدي على جبيني المبلل، شعرتُ بالأثر أي بالعلامات المنطبعة في بشرتي. استدرتُ. الشرطة من خلفي التي طردت حشدًا من الناس إلى الوراء. ضوء أزرق، سيارات شرطة. كم من الوقت وقفت هنا إلى السور بالفعل؟ ثم رأيتُ كيف ظهر من الجانب بعض الشباب من الظلام ومن خلفهم المباني السكنية الجاهزة الكبيرة في مدينة الأقمار. ماذا كانوا يفعلون هناك؟ بدا كأنهم كانوا يمارسون رياضة الجمباز ويلوون أجسادهم، لاعبو جمباز في الليل، ولكن عندئذ سمعتُ صوت طقطقة عندما اصطدم أحد أحجار الرصيف بواجهة المجمع السكني للأجانب محدثًا صوتًا مدويًا. استدرتُ ببطء نحوهم، أين كلبي؟ ومرة أخرى تطاير أحد الأحجار؛ فأخذت أتابع بنظري مرتبكًا منحنى مساره في الهواء ومرة أخرى لوى أحد الرجال جسده. انبعث صوت صلصلة. ركض بضعة ضباط نحو قاذفي الأحجار. انطفأ النور في المجمع السكني للأجانب. مضيتُ ببطء نحو البوابة. أصبحت عندئذ النافذة -التي كنت قد رأيتها فيها- معتمة. سمعت من خلفي صوت صيحات حشد من الناس. كانت الأصوات مدوية في جوف الليل كأنها ستصيب الواجهة أمامي وسوف ترتد منها. انتابني شعور كأن ضغط الهواء سيتغير من حولي، أكثر وأكثر، كلمة تلو كلمة، جملة تلو جملة.

«أنت تحرسني أيها الضابط الصغير، أليس كذلك؟».

«أنتِ... أنتِ لستِ بحاجة لأن تعاودي الشعور بالخوف يا «ماريكا»».

«كنتُ أنتظر، أنا...».

«الآن أنا هنا من جديد».

«هذا أمر جيد».

لم أسألها أين كانت عندما كنتُ أنتظرها عند السور، يومًا تلو يوم. إذ إنها أصبحت الآن هنا من جديد. وكانت أصواتنا مدوية في منطقة تجمع الضباط الكبيرة الخاوية؛ فكادت تكون مثل صدى الصوت. «يا «ماريكا»... ضابط... لا... ليس وحدك».

كنت قد أديتُ خدمة في عقارات أخرى وكان مركز «موكاو» قد افتتح لتوه وكنا نمضي هناك في دوريات ونراقب المتاجر والمطاعم ونقف أمام الستائر المعدنية المُسدَلة لمتجر الصائغ والتي كنا نشعر من خلفها بلمعان الحُليِّ وقطع الماس أم أنها كانت مجرد أشياء رخيصة براقة وأدوات شبه غالية؛ إذ إن مركز «موكاو» كان يقع على طرف المدينة حيثما كانت المنازل متهاوية وحيثما شقت بضعة مبانٍ سكنية جاهزة وحيدة ومكونة من خمسة عشر طابقًا ومتبعثرة بشكلٍ غريب طريقها نحو السماء. ما بين جولاتنا وعندما كنا نحتسي القهوة في قاعة استراحتنا في القبو، كنا نتنصت في بعض الأحيان على الاتصالات اللاسلكية بين المركز الرئيس والزملاء لكي نسلي وقتنا. «أفضل من الراديو!» قالها الزميل وهكذا عرفتُ أن هناك وقائع جديدة جرت في المجمع السكني للأجانب. «رقم واحد يسمع... أجل، ليس الأمر خاصًّا بالعقار، اتصلنا بالشرطة...».

كنتُ قد ذهبتُ إلى سيارة خدمتنا ومضيتُ بين شوارع المدينة الخاوية متوجهًا إلى المجمع السكني للأجانب. كان الزميل يجلس في قاعة استراحتنا في مركز «موكاو» وكان قد وضع رأسه على قرص المنضدة ونام. كان يفضل أن يصب لنفسه قدرًا من نبيذ «شنابس» في القهوة

وربما أنه لن يقول شيئًا لو انصرفتُ قليلًا.

جلستُ في السيارة، بعيدًا بعض الشيء عن المجمع السكني للأجانب، ورأيتُ الوميض الأزرق لمركبات الشرطة وكان بعض رجال ذوي رؤوس صلعاء يسيرون عبر طريق المشاة متجهين في الجانب الآخر من الشارع. أغلب الظن أن العرض قد انتهى وكان رجال الشرطة مهملين بعض الشيء كما يحدث في أغلب الأحوال. عندئذ كان لا يزال هناك أشخاص ذوو رؤوس صلعاء ملفتون للأنظار وكان من السهل التعرف عليـهم على الفور. رأيتُ حافلة رحلات كبيرة بجوار المجمع السكني للأجانب، وقد استقلها الناس. ظننتُ لوهلة أنني أدركت وجودها بمعطفها الفضفاض جدًّا.

ضمَّتْ ثنايا معطفها كأنها تشعر ببردٍ شديد حد التجمد. بقع صغيرة داكنة على القماش، بالأعلى عند الياقة. كان معطفًا رجاليّا قديمًا لونه رمادي داكن، إلا أن لون البقع كان داكنًا أكثر من لون القماش.

«ظل السوفيت هنا لوقتٍ طويل، أليس كذلك؟».

قلت: «بلى، لوقتٍ طويل جدًّا».

«عندما رحل السوفيت عنا، بدأت الحرب».

اتكأنا على نضد خشبي طويل، كانت هناك بقايا أرفف ما زالت موجوده خلفه. كانت الألواح الزجاجية للنوافذ العالية مهشمة جميعًا وكان ضوء المساء ينفذ عبر قطع قماش الستائر على الأرضية الخشبية المخدوشة. كانت الغرفة خاوية تمامًا ولم تكن هناك سوى منضدة مقلوبة على الأرض. استندنا بظهورنا إلى النضد ونظرنا إلى الحائط المقابل لنا الذي كان من الممكن رؤية بقايا فسيفساء كبيرة متعددة الألوان؛ كانت صورة من آلاف الأحجار الصغيرة. استطعنا أن نتبين فيها نصف النجمة

الحمراء وأجزاء من جنود كانوا يحملون أسلحة كلاشينكوف، إلا أن أغلب أجزاء الفسيفساء كانت قد تكسرت. مخربون في الليل، أطفال، جامعو قطع خردة مخمورون. لم أدرِ كم من الوقت وقفنا هناك ونحن ننظر بصمت إلى الصورة المُدمَّرة.

قلت: «كنت في بعض الأحيان أسمع في الليل صوت أحد الجنود. روسي، سوفيتي (قال الكلمتين بالروسية)».

«هنا؟ أنت تمزح، أليس كذلك؟».

«إنه يغني هنا يا «ماريكا». لقد ظل باقيًا ولم يرحل. وهو يغني أغاني عسكرية. وعندما ألقي نظرة في الصباح، أجد أعقاب سجائر على النضد، سجائر...».

ضحكتْ وجذبتْ أحد الشرائط الموضوعة على كتفَيْ سترة رداء عملي. «أنت تمزح أيها الضابط الألماني الصغير».

لمستْ وجهي بأطراف أصابع يدها. «أنت نفسك تدخن سجائر هنا، في المساء، مساءً (قالت الكلمة بالروسية)...».

«مساءً (قالها بالروسية)» قلتها ووضعتُ يدي على يدها. كانت قد وقفتْ فجأة أمام قاعة الاستراحة، في منتصف الشارع الصغير، فكنت أستطيع أن أراها من النافذة. بدا أنها كانت تشعر بالخوف، وحتى وإن ضمَّت جسدها إلى جسدي، كان هناك شيء ما غريب وبارد فيها وكانت شاردة الذهن في موضع آخر لدرجة أنني لم أجرؤ على أن أقبِّلها، أن ألمسها...

«سجائر (قالها بالروسية)» قلتها وأضفت: «هل ترين، هنا» أشرتُ إلى السجائر المضغوطة وبها فلتر السجائر الروسي الطويل والتي كانت

موجودة أمامنا وبجوارنا على الأرض «إنها سجائر روسية أصلية. لقد ظل أحد الجنود هنا وهو يعيش في القبو وأنا أسمعه في بعض الأحيان وهو يغني».

«سجائر (قالتها بالروسية)» قالتها ومسحت بيدها على وجهي وتحركت يدي -التي كانت لا تزال موضوعة على يدها- مع يدها «والدي يدخن السجائر، في المنزل، ذات مرة، كنت ما زلت طفلة، جرَّبتها. لكنها كانت قوية جدًّا، شعرتُ بالغثيان، غثيان شديد... وأطلق بابا السباب...».

سحبتْ يدها بعيدًا، لا، لم تكن تداعب وجهي بيدها؛ بل كانت تريد أن تخلص يدها من يدي بحذر. قُبلة عابرة عند السور، باضطراب، ولمست شفتاي أنفها. ضمَّتْ معطفها على صدرها كأنها تشعر ببردٍ شديد حد التجمد. كنت مضطرًّا ألا أنظر في عينيها؛ إذ كنت أدري أنها أصبحت من جديد شاردة الذهن في مكانٍ آخر. في المنزل، في البيت (مكتوبة بالروسية) مثلما كانت تقولها باللغة الروسية على الرغم من أنها لم تكن روسية. الاتحاد السوفيتي العظيم المنهار. عندما سألتها عن والديها، لم تجبني أبدًا. لم أستطع أن أفعل شيئًا، كان بإمكاني فقط أن أنتظر. بحثتُ عن حافظة سجائري في جيوب سترة رداء عملي.

«سجائر قديمة» قالتها فجأة وانحنت نحو أسفل ورفعت أحد أعقاب السجائر ومدَّت إصبعين من أصابع يدها بحذر نحو الفلتر الطويل والذي أصبح لونه مصفرًّا منذ وقتٍ طويل. رفعتْ عُقب السيجارة عاليًا وأمسكت به لوهلة في الهواء، بيننا، ثم ضغطت عليه في الغرفة فأحدثت صوت طرقعة.

«أنت تحكي... حكاية أسطورية (قالتها بالروسية)...».

قلت لها: «حكاية أسطورية».

قالت: «أجل. لا يوجد جندي هنا».

«لا» أومأتُ برأسي «ما من جندي».

«لكن أنت هنا أيها الضابط» قالتها وارتعش صوتها قليلًا وابتسمتْ واستدارت نحوي «سنشرب نبيذ القرم (قالتها بالروسية)» رفعتْ يدها كأنها تريد أن تطلب شيئًا من الرجل الواقف خلف البار «اليوم عيد ميلادي».

وقفتْ أمامي وأمسكت بي من كتفيَّ وتناولت يدي وجذبتني إلى منتصف الغرفة، إلى المكان الذي كانت فيه بالتأكيد ساحة الرقص في السابق.

قالت: «تعالي. أرجوك».

رقصنا في صمت، باضطراب في البداية، ونحن نبحث عن إيقاع ما وعن موسيقى ما، ولم يكن هناك سوى صوت أقدامنا على الأرض. رقصنا ببطء شديد وقرَّبتها مني بشدة وشعرتُ كيف كان ثدياها يرتفعان وينخفضان عندما كانت تتنفس. وعندما استدرنا ونحن نرقص باتجاه النوافذ العالية، التي نفذ من خلالها ضوء المساء، أصدرت شظايا الزجاج صوت طرقعة أسفل أقدامنا. وضعتْ رأسها على كتفي. كنت أطول منها بقليل فحسب وعندما كنت أميل رأسي بخفة، كان وجهي يلمس شعرها ذا اللون البني المائل إلى الاحمرار. خرجنا عن الإيقاع؛ فقد كنا مضطرين أن نرقص حول المنضدة المقلوبة على الأرض. أخذنا نرقص على نحو أبطأ شيئًا فشيئًا ونحن نضع أيدينا على ظهورنا وضممنا بعضنا بعضًا وكنا نشعر في بعض الأحيان بالضوء الذي كان ينفذ عبر النافذة، وبعد ذلك رحل الضوء مرة أخرى. تحركنا عبر الغرفة. كانت تدندن بلحنٍ ما وهي تضع شفتيها على قميصي. تحركنا في الضوء وأخذنا نرقص حتى

حلَّ الظلام وأصبحت الشمس غارقة خلف أسقف ثكنة الروس القديمة.

أصبحت الغرفة مظلمة. ذهبتْ إلى النافذة واستطعتُ أن أتبيَّن في الضوء القليل شعرها ذا اللون البني المائل إلى الاحمرار. لم يتغير أي شيء. في مكانٍ ما اندلعت من جديد حرب ما، كانت قد أتت بها إليَّ مرة أخرى.

«ماذا عن والديكِ؟».

«لا أعرف (قالتها بالروسية)».

«وماذا عن والدتك؟».

«لا أعرف (قالتها بالروسية)».

«ماما، والدتك أنتِ؟ (قالها بالروسية)» لم أكن قد عاودت الحديث باللغة الروسية منذ ذلك الحين؛ فأخذتُ أبحث عن الكلمات وأخذتُ أبحث عن الجمل.

«أنا لا...» كانت تقف إلى النافذة وهي تدير ظهرها لي. لم تكن تريد أن أضيء النور. كان قد انتابها شعور بالخوف على الرغم من أن الوضع بالخارج أصبح عندئذ هادئًا وكانت إحدى سيارات الشرطة فقط لا تزال تقف أمام المجمع السكني للأجانب. كان أحد ضباط الشرطة يتكئ على السيارة بينما كان ضابط آخر قد أنزل زجاج النافذة الجانبية نحو أسفل ولم يكن يظهر منه سوى ذراعه التي كانت متدلية خارج النافذة وكان الضابط يحمل سيجارة بين أصابعه.

«أنا... أنا لا...».

«لا، أنتِ لا يا «ماريكا»».

««ماريكا»؟» استدارت من جديد نحوي. ربما كان عمرها تسعة عشر

أو عشرين عامًا. كانت قد شبَّكت ذراعيها أمام صدرها وارتعشتْ قليلًا.

سألتها عن بلدها وذكرتُ لها البلد الصغير ذا الجبال والسهول التي كانت قد حكت لي عنها ذات مرة. لكنها لم ترد عليَّ. نظرتْ إليَّ بعينيها الواسعتين اللتين بدا أن لونهما الأزرق أصبح أغمق مثلما يتغير لون الماء ويصبح أغمق عندما تنقبض السماء أو عندما يحلُّ المساء.

لكن ربما كان ضوء الشفق في الغرفة وحده هو السبب في ذلك.

قلت: «والدتكِ. أمكِ (قالها بالروسية)...».

«لا» قالت وأضافت بالروسية: «لا، لا أعرف...».

«لا» قلتها وأردفت «لا، لا. والدتك. ماذا يا «ماريكا»؟ أين يا «ماريكا»؟ (قالها بالروسية)» كنت قد حاولتُ أن أستكشف أين كانت عندما اختفت، آنذاك، لكن هذا لم يكن أمرًا مجديًا وسرعان ما فقدتُ الأمل بالفعل.

«أنا لست «ماريكا»» قالتها وأضافت بالروسية: «لا أفهم...» وتراجعت من جديد بضع خطوات نحو النافذة.

كان الملصق على الحائط عبارة عن نتيجة كبيرة بها حروف باللغة العربية ومناظر طبيعية صحراوية مبتذلة ومسجد. من المؤكد أنها لم تسكن في الغرفة وحدها أو أن الملصق كان معلقًا هناك بالفعل عندما جاءت إلى هنا.

عدتُ في طريقي إلى السور. كانت سيارة الشرطة ما زالت واقفة أمام المجمع السكني للأجانب وكان كلا رجلي الشرطة يجلسان بداخلها وقد أصبح زجاج النوافذ مرفوعًا لأعلى وبدا كأنهما كانا نائمين في مقعديهما.

أصدرت الشظايا الزجاجية صوت طرقعة أسفل حذائي. وكانت إحدى النوافذ قد تحطمت، بالأعلى في الطابق الثاني، وكانت الغرفة من خلفها

معتمة وخاوية. انحنيتُ وتناولت إحدى الشظايا.

«هل ما زلت أنت مسؤول الأمن؟».

«لا».

«أنت ما زلت شابًّا...».

«أنتِ ما زلتِ شابةً يا «ماريكا»».

«كلانا شاب أيها الضابط الصغير».

«أجل، كلانا».

ألقيتُ الشظية الزجاجية في الظلام وعدت إلى العقار 95، إلى المنازل الشاهقة الساكنة ذات الطوابق المتعددة في مدينة الأقمار حيثما كان الكلب ينتظر في بيت حراستنا الصغير أو حيثما كان نائمًا. ظللتُ واقفًا مرة أخرى إلى السور. ظننتُ لوهلة أنني رأيتها، بأنفها الصغير، أنفها ذي الأرنبة المرتفعة، يا لها من كلمة جميلة، شعرها متوسط الطول وذا اللون البني المائل إلى الاحمرار...

جلستُ في السيارة ونظرتُ إلى الحافلة وقد استقلها رجال ونساء وأطفال.

هل تم نقلهم من مكانهم؟ هل تعرضوا للإجلاء؟ الضوء الأزرق لسيارات الشرطة. جلستُ في سيارة خدمتنا حتى حلَّ الصباح.

«من رقم واحد إلى رقم اثني عشر. منرقم واحد إلى رقم اثني عشر».

«رقم اثني عشر يسمعك».

وصول متأخر

«لقد أصبحتِ مقصرة يا سيدة «فيشر»».

«نعم» قالتها وأضافت «لا...».

«أي أنكِ تعترفين أنكِ أصبحتِ مقصرة يا سيدة «فيشر»».

قالت: «لا، لقد كان يومي سيئًا فقط، أنا...».

«أنتِ لدينا منذ وقت طويل بالفعل وأنتِ تعرفين بالطبع أننا لا نستطيع أن نتحمل الشكاوى».

قالت: «أجل. لن يتكرر أن...».

«من المؤكد أنه لن يتكرر. نحن نعتمد عليكِ؛ أنتِ تنتمين بالطبع لفريقنا. لكن إن لم تستطيعي الاستمرار مرة أخرى، سنكون متفهمين لذلك».

قالت: «لا، سوف أستمر، كان الأمر مجرد...».

«لا داعي للقلق يا سيدة «فيشر». كل إنسان يمكن أن يكون يومه سيئًا ذات مرة».

كانت ممسكة في قبضة يدها بكلتا نواتي الكرز طوال الوقت عندما كانت تعدو بجوار الرصيف متجهة نحو محطة القطار. وكانت ترتدي الصديري العاكس البرتقالي اللامع فوق سروال رداء عملها الأزرق. مثلما اعتادت دائمًا عندما كانت تمضي بمحاذاة القضبان متوجهة إلى محطة القطار بعد أداء وردية العمل في منتصف اليوم. رأت مع بداية الليل الأقواس المستديرة التي كانت تؤدي إلى مبنى محطة القطار الضخم

كأنها بوابات. كانت القضبان تلمع في ضوء الغسق هذا بلونٍ مائل إلى الاحمرار وبلونٍ فضي في بعض الأماكن. كان مطلع شهر سبتمبر وما زال ما يتبقى من ضوء النهار يتلاشى في وقتٍ متأخر عندما تكون السماء صافية.

ألقت كيس القماش، الذي كانت به إحدى عشرة علبة مشروبات فارغة، في شجيرة بجوار القضبان. ثم استدارت وحاولت أن تجذب الكيس من الشجيرة الشعثاء الشائكة. جلست القرفصاء أمام الشجيرة وسمعت صوت قطار وصلصلة قضبان وتحويلات متشعبة ومتقاطعة. لكنها كانت تعرف أن القطار كان بعيدًا بما فيه الكفاية.

وضعت قبضة يدها على النضد. فتحت قبضة يدها وشعرت كيف سقطت كلتا نواتي الكرز. لا، لقد التصقت إحداهما للحظة في جلد راحة يدها؛ إذ كانت قد كوَّرت قبضة يدها بإحكام شديد عندما كانت تعدو بجوار القضبان باتجاه محطة القطار. لكنها كانت قد تركت الكيس بعد ذلك في أدغال الشجيرة. على الرغم من أن طولها كان مترين وخمسة وسبعين سنتيمترًا. لكن مركز التسوق التجاري الموجود في الطابق السفلي من محطة القطار الكبيرة سيغلق في غضون دقائق قليلة وهي لم تكن تريد أن تركض. فيومها كان طويلًا وقاسيًا وقضت مساءً طويلًا في القطارات. ربما أنها كانت تستطيع أن تأخذ الكيس وفيه العلب الفارغة معها إلى المنزل. لكنها لم تكن ترغب أن تجلس في الترام في طريقها إلى المنزل بعد وردية عمل منتصف اليوم هذه وبصحبتها العلب الفارغة والكيس الذي كانت تفوح منه رائحة البيرة النتنة. وكانت قد ألقت الكيس بعيدًا بغضب؛ إذ إنها كانت لا تزال تسمع صوت رئيس لجنة المراقبة. كان الصوت يخشخش بجوارها فوق فلنكات القضبان فقد أصدرت عبارة «لقد –أصبحتِ– مقصرة...» صوت صرير في فرامل القطارات التي دخلت إلى محطة القطار والتي خرجت من محطة القطار. أحضرت

الكيس في اليوم التالي.

«أتريدين أن تعرفي ماذا وجدنا أيضًا؟».

«بالإضافة إلى نواتي الكرز؟ بالتأكيد ليس البيض ذو القشرة المجعدة الخاص بكِ».

ضحكت واحتست رشفة من قهوتها التي كانت قد صبت لنفسها فيها كأسًا من نبيذ «ماريا الصغيرة»، كأسًا صغيرًا من نبيذ من ماركة «مارياكرون براندي». كانت حانة محطة القطار تقع مباشرةً بجوار السلالم التي كانت تؤدي من القضبان الموجودة في صالة محطة القطار العلوية إلى الصالة الغربية بالأسفل. عندما استدارت، استطاعت أن تتبين عبر نوافذ الحانة الطويلة الضيقة مصفف الشعر في الجانب الآخر من السلالم الكبيرة. غرفة من الزجاج كانت مجففات الشعر موضوعة فيها على هيئة نصف دائرة. كانت هناك سيدتان شاباتان تقومان باللمسات الأخيرة في الضوء الساطع وكانتا ترتبان سويًّا وتنظفان بالمكنسة الأرض المغطاة بالشعر، فترة نهاية العمل، بعد الساعة العاشرة بالفعل. في وقتٍ لاحق، أصبحت مجففات الشعر موضوعة في الظلام. استعدت محطة القطار لحلول الليل، القطارات الأخيرة، ظلال على أرصفة المحطة، آخر مسافرين، صعدوا السلالم لأعلى متجهين إلى أرصفة المحطة. سمعت صوت صرير قطارات الترام في الفناء الأمامي ومرَّ حراس الأمن بالحانة، كان دائمًا يمر اثنان سويًّا، وردية عمل ليلية، فترة الانتهاء من العمل. أصبحت مجففات الشعر موضوعة في الظلام واستدارت هي من جديد باتجاه النضد.

«كأس أخرى من نبيذ «ماريا الصغيرة»؟» كان نادل الحانة البدين ممسكًا في يده بالفعل بزجاجة نبيذ من ماركة «مارياكرون براندي» ونظر لها مبتسمًا من فوق نظارته المستديرة المصنوعة من النيكل وبدا

بالأحرى مثل معلم ودود في مدرسة ابتدائية. أومأت برأسها ووضعت يدها على نواتي الكرز. منذ بضع سنوات، تذهب بين الحين والآخر إلى حانة محطة القطار لتحتسي شيئًا ما عندما تنتهي وردية العمل في منتصف اليوم لكنها لم تكن تدري ما اسم الرجل البدين الذي كان يرتدي النظارة المستديرة. «كلاوس»؟ لا. «جيمي» الدبور؟ لا، هذه كانت حكاية أخرى تمامًا.

في بعض الأحيان، كانت زوجته، التي كاد الشيب يكسو شعرها بالفعل والتي كانت تدخن كثيرًا جدًّا، هي من تعمل بالخدمة. وفي بعض الأحيان، عندما كانت الحانة بها حركة كبيرة، أي في عطلات نهاية الأسبوع أو في أيام الاحتفال بعيد الميلاد، كان كلاهما يقفان خلف النضد.

ارتشفت من كأس نبيذ «ماريا الصغيرة». لم تتحمل كثيرًا وأصبحت مُتعَبة. ارتشفت من كأس نبيذ «ماريا الصغيرة» وأغلقت عينيها وسمعت الأصوات الغريبة المنبعثة من محطة القطار في الليل. في أحد الأماكن، كان هناك شخص يهتف بشيء ما وكان الصوت مدويًا أسفل القبة وبين الأقواس المستديرة. كانت الحانة ذات بابين واللذين كانا مفتوحين في أغلب الأوقات، في ما عدا في الشتاء عندما كانت البرودة تأتي مع القطارات عبر البوابات الكبيرة. تصاعد البخار من محطة القطار بعد ذلك. تصاعد البخار من محطة القطار في الظلام عندما كانت تسير بخطوات كبيرة وإيقاع سريع بجوار القضبان متجهة إلى محطة القطار بعد أن تؤدي وردية العمل في منتصف اليوم كأن محطة القطار كانت تطلق زفيرًا عبر الأقواس المستديرة الكبيرة وكأن الهواء الذي تتنفسه محطة القطار كان متجمدًا بسبب برودة الجو. داست بقدمها بجوار القضبان. داست بقدمها في الجليد. كانت العلب تصدر صوت صلصلة في الكيس الذي كان يرتطم بساقها. ما زالت هناك عشر دقائق حتى يصبح المتجر الكبير في الطابق الأرضي مغلقًا. خمس عشرة علبة، ثلاث وخمس وسبعون.

عندما اقتربت من الأقواس المستديرة لمحطة القطار، دار برأسها أنه من الجيد ألا تعود هناك أيام وليالٍ شتوية كثيرة جدًّا. ضوء أرصفة المحطة أصفر اللون والذي امتزج مع هواء النَّفَس أبيض اللون. استطاعت بالكاد أن تتبين الهواء الذي كانت تتننفسه. ضغطت على قبضتي يديها ولم تكن قد خلعت قفاز يدها الذي كانت ترتديه أثناء أداء العمل. أخذت تفتح راحتي يديها وتغلقهما مرارًا وتكرارًا لتقاوم البرودة وكوَّرت قبضة يدها التي أخذت تفتحها وتغلقها بعد ذلك.

«لقد وقع منكِ شيء ما هناك».

«ماذا؟» فتحت عينيها واستدارت. كانت هناك سيدة تجلس من خلفها إلى إحدى طاولات البار المرتفعة.

أشارت السيدة إلى الأرض. «لقد وقع شيء منكِ للتو هناك». كانت السيدة ذات شعر داكن لامع بلونٍ أسود مثل الطلاء. من المؤكد أنه مصبوغ؛ فلا بدّ أنها في مطلع الستين من عمرها. كان وجهها نحيفًا للغاية وعندما كانت تأخذ نَفَسًا من سيجارتها، كان يبدو كأن التجاعيد الموجودة حول زاويتي فمها تصبح أعمق وأطول.

«آه، شكرًا» نظرت نحو الأرض لكنها لم تستطع أن تتبيَّن شيئًا هناك. نهضت واقفةً من كرسي البار العالي وأرادت أن تنحني.

«انتظري، هناك بالضبط بجوار رجل الكرسي». وقفت السيدة أيضًا وكاد رأساهما أن يصطدما بعضهما ببعض.

«معذرةً» قالتها السيدة ذات الشعر الداكن وعادت إلى الوراء قليلًا مرة أخرى «هناك، بالأسفل يوجد الشيء، لقد وقع منكِ للتو...».

وعندئذ رأت نواة الكرز. كانت النواة الأخرى لا تزال موجودة على

النضد بجوار كأس نبيذ «ماريا الصغيرة» الخاصة بها. جلست القرفصاء وتناولت نواة الكرز بحذر بين إصبعي الإبهام والسبابة. نهضت واقفةً وشعرت من جديد بألم في ظهرها، أعلى عظمة العصعص مباشرةً، والذي يؤلمها منذ بضعة أيام. «شكرًا جزيلًا، لكن هذا... هذا ليس بالشيء الكثير». وضعت نواة الكرز في مطفأة السجائر التي كانت موضوعة على النضد بجوار كأس نبيذ «ماريا الصغيرة» قليلًا.

«هل هذا...» قالتها السيدة ذات الشعر الداكن وتقدمت نحو النضد بجوارها. «كانت تبدو مثل لؤلؤة». أمسكت بسيجارتها من خلفها بعض الشيء ومدَّت ذراعها قليلًا كأنها كانت تريد ألا تزعجها بدخان السيجارة.

«لؤلؤة» قالتها وشعرت كيف ابتسمت «لا. ليست هكذا للأسف».

أطفأت السيدة ذات الشعر الداكن سيجارتها في مطفأة السجائر التي أصبحت نواة الكرز موضوعة فيها آنذاك.

«هذا لا يزعجني» قالتها للسيدة ذات الشعر الداكن وأضافت: «فنحن بالطبع في حانة مسموح فيها بالتدخين. وأنا أحب رائحة السجائر».

«أنتِ قادمة أيضًا من عهد التدخين» قالتها السيدة ذات الشعر الداكن وأومأت برأسها.

قالت: «عهد التدخين، أجل...» وأومأت برأسها أيضًا وحركَّت بصرها مرورًا بالسيدة ذات الشعر الداكن وعبر اللوح الزجاجي ونظرت إلى الخارج نحو صالة محطة القطار شبه المعتمة والتي كانت خاوية أسفل منهما. وعندئذ رأت زجاجة الشمبانيا الصغيرة الموضوعة على طاولة مرتفعة بجوار النافذة.

«الشمبانيا الخاصة بكِ» قالتها واستدارت من جديد نحو النضد «لقد

نسيتِ الشمبانيا الخاصة بكِ».

«شكرًا» قالتها السيدة ذات الشعر الداكن، «بكل سرور». نهضت واقفةً وأحضرت الزجاجة والكأس العالية الضيقة ووضعتهما بجوار مطفأة السجائر. «في صحتك» قالتها ورفعت كأس الشمبانيا الخاصة بها والتي كانت نصف ممتلئة وبعد ذلك قرعا كأسيهما.

كادت كأس نبيذ «ماريا الصغيرة» أن تصبح خاوية ولوَّحت بيدها للرجل البدين الذي كانت قد نسيت اسمه وطلبت مرة أخرى كأسين.

«هل سبق لكِ أن دخنتِ؟» سألت السيدة ذات الشعر الداكن الذي كان يلمع مثل الطلاء وصبَّت بعدها لنفسها قليلًا من الشمبانيا.

قالت: «لا، كان زوجي يدخن وأحيانًا أفتقد هذا الأمر».

ومن جديد أومأت كلتاهما برأسيهما وصمتتا وأخذتا تصوبان بصريهما نحو مكانٍ ما، وتحركان بصريهما مرورًا بعضهما ببعض، نحو الألواح الزجاجية، التي كانت تعكس لهما ما يوجد داخل حانة محطة القطار، ونحو الطاولات الأخرى وطاولات البار المرتفعة والرجل البدين الذي كان يصب كؤوس النبيذ في مكانٍ ما، الرجل البدين، الذي كان يبدو مثل مدرس، والنظارة المستديرة على أنفه التي كانت تلمع بقطرات العرق، رغاوي البيرة على الكؤوس. اتكأ رجل على آلة لعب القمار في الجانب الآخر من الغرفة، وألقى بعد ذلك بالمال وأخذت أضواء آلة لعب القمار متعددة الألوان تومض على وجهه. دخان أعلى النضد ذي الشكل المربع ورجل كان يتناول سجقًّا معدًّا من لحم التيس عند إحدى طاولات البار المرتفعة. كان صوت الراديو منخفضًا جدًّا لدرجة أنهما كانتا تسمعانه بصعوبة.

سألت السيدة ذات الشعر الداكن: «أنت تعملين على الأرجح في القطار،

أليس كذلك؟» ومدَّت يدها نحو الجيب الداخلي لمعطفها الصيفي.

سألت: «لماذا؟» لكن خطر ببالها حينها أنها ما زالت ترتدي الصديري العاكس البرتقالي الخاص بها وعندئذ نقرت السيدة ذات الشعر الداكن أيضًا على ثنايا معطفها الصيفي لتذكرها بالصديري الذي كانت ترتديه. أصبحت غاضبة وقالت بصوتٍ عالٍ جدًّا: «أجل، أجل، بالفعل».

«معذرةً» قالتها السيدة ذات الشعر الداكن وأضافت: «كنت أود فقط أن...».

«لا عليكِ» قالتها واحتست رشفة من نبيذ «ماريا الصغيرة» الخاصة بها وشعرت أنها أصبحت بالفعل مخمورة قليلًا وهزَّت رأسها وحاولت أن تتقيأ رشفات نبيذ «ماريا الصغيرة» قبل أن تواصل حديثها؛ ففي المعتاد لم تكن تحتسي نبيذًا كثيرًا هكذا.

قالت: «أنا أخلعه في المعتاد، يكون معي دائمًا كيس، أضع فيه الزي البرتقالي الذي كان مثل ألعاب المفرقعات».

قالت السيدة ذات الشعر الداكن: «إنه يليق بكِ» ونظرت إليها وأخفضت بصرها بعد ذلك وسحبت علبة سجائر من الجيب الداخلي لمعطفها الصيفي. «ولماذا تريدين إذًا أن تخلعيه الآن؟».

«لأن وقت العمل انتهى» قالتها وخلعت الصديري ووضعته على كرسي البار العالي بينهما. «يؤسفني أنني هكذا...».

«لا، لا يجب أن يكون الأمر كذلك» قالتها السيدة ذات الشعر الداكن والمعطف الصيفي الذي كان باليًا جدًّا عند الأكمام ومرفقي اليد بالفعل. «أفهم هذا؛ فعندما آتي من العمل، أود أنا أيضًا أن... أن يبقى العمل هناك».

«أين تعملين إذًا؟» سألتها وارتشفت من نبيذ «ماريا الصغيرة» الخاص بها وأصبحت من جديد أكثر هدوءًا وأصبح ذهنها أكثر صفاءً. نفثت السيدة ذات الشعر الداكن والمعطف الصيفي البالي -والذي ما زال أنيقًا على الرغم من ذلك- الدخان وتنفست شهيقًا وشمَّت دخان السيجارة. كانت تحب هذه المشاركة في التدخين؛ فزوجها كان يدخن كثيرًا، هل سبق وأن حكت هذا الأمر للسيدة الأخرى أيضًا منذ قليل؟ مثلما يحكي الناس كل شيء هكذا في الليل. بعد الانتهاء من وردية عمل منتصف اليوم. لقد جاءتا من عهد التدخين.

«عند مصفف الشعر».

«ماذا؟».

«لقد سألتِني أين أعمل».

«أجل، آه. أي إنكِ تعملين هناك بالأعلى؟» مالت برأسها نحو اللوح الزجاجي الكبير، الذي كانت السلالم المؤدية إلى الصالة الغربية بالأسفل موجودة من خلفه. وعلى الجانب الآخر من السلالم كان مكان مصفف الشعر. نصف الدائرة المكونة من مجففات الشعر.

«لا، ليس هناك بالأعلى» ابتسمت السيدة ذات الشعر الداكن ونقرت بإصبع السبابة على سيجارتها؛ فسقط الرماد في مطفأة السجائر الزجاجية «هناك لا تعمل بالطبع سوى صغيرات السن. صالون «قصة شعر ممتازة». لن يأخذوني للعمل لديهم بالتأكيد».

««قصة شعر ممتازة»؟ اسم سخيف». مالت برأسها وقرأت الحروف المكتوبة على الجانب الآخر من السلالم. «لم يسبق لي أبدًا أن دخلت إليه. دائمًا ما ألف من عنده».

«في أي حي تسكنين إذًا؟».

««شونيفيلد». مثلما كنت دائمًا».

«هناك عالم جميل في «شونيفيلد»».

ضحكت. «حسنًا، لم يعد كذلك منذ وقتٍ طويل بالفعل. صالون تصفيف شعر «هوفمان». هل تعرفينه؟ إنه كشك قديم تمامًا».

««هوفمان»، أجل» أومأت السيدة ذات الشعر الداكن والمعطف الصيفي برأسها وضغطت على سيجارتها لتطفئها. «إنه موجود منذ وقت طويل بالفعل. كنت أعرف السيدة «هوفمان» العجوز».

«السيدة ذات الأنف المعوج؟».

«لا، هذه ابنتها. هل ما زال العمل مستمرًّا في المحل؟».

«حسنًا، إن السيدة الشابة «هوفمان» لم تعد شابة والأمر ليس بالسهل عليها. لكنـني ما زلت أذهب إلى هناك». ضحكت ومررت يدها في شعرها وعرفت من جديد أنها لم تعد تتواجد منذ وقت طويل جدًّا في صالون تصفيف شعر «هوفمان».

«أنا أعمل بالأعلى في القاعة الشرقية» قالتها السيدة ذات الشعر الداكن والمعطف الصيفي وأضافت: «وهي مطلة أيضًا على السلالم».

«أمر هناك كثيرًا» قالتها وارتشفت من جديد من نبيذ «ماريا الصغيرة» الخاص بها على الرغم من أن الكأس أصبحت عندئذ فارغة «يبدو أنه صالون تصفيف شعر هادئ وجيد».

«على كل حال، لدينا لا تدوي أي موسيقى صاخبة طوال اليوم مثل الحال لديهم».

أومأت السيدة ذات الشعر الداكن برأسها باتجاه السلالم، أي باتجاه صالون تصفيف الشعر «قصة شعر ممتازة».

«نحن محل نظيف وهادئ ويدار على نحوٍ جيد. هناك بالأعلى، لا توجد سوى فوضى. هذا ما أراه على الفور بمجرد أن أمرّ هناك».

وبعد وقتٍ قليل أصبحت كلتاهما تقف أمام المحل النظيف والهادئ والذي يدار على نحوٍ جيد والمطل على السلالم المؤدية إلى القاعة الشرقية. أصبحت محطة القطار آنذاك مهجورة. ليلًا أسفل الأقواس المستديرة. كانت هناك قطارات تقف على بعض القضبان. كانت تعرف أن الزملاء، الذين كانوا يؤدون وردية العمل الليلية في عربات القطار، قد أصبحوا بالخارج. في محطة القطار وبالخارج على رصيف القطارات المعطلة. مدَّت السيدة ذات الشعر الداكن يدها في الجيب الجانبي لمعطفها الصيفي الذي بدا أنيقًا جدًّا في ضوء الشفق بصالة رصيف المحطة، كاد بالفعل أن يبدو معطفًا فرنسيًّا. كانت تحسد السيدة قليلًا على معطفها وعلى شعرها الداكن... وأخذت تتحسس القماش الجاف لرداء عملها الموحد الأزرق.

كان الهاتف المحمول قد رنَّ داخل المعطف الصيفي. وكانت قد قالت: «هناك شيء ما يصدر صوت أزيز» وكانت السيدة ذات الشعر الداكن قد ردَّت عليه.

قالت بعد ذلك: «يجب أن أذهب إلى الأعلى».

سألتها: «هل نسيتِ شيئًا؟».

«لا، النور. لقد ترك شخص ما النور وهذا الشخص أنا على الأرجح».

«ربما لي أن أقول أن هناك شيئًا أسوأ من هذا».

«أجل، أغلب الظن أن إحدى صديقات المديرة قد رأت هذا واتصلت هاتفيًّا بالمديرة».

«لكن من الصعب رؤية شيء» قالتها عندما أصبحت واقفة مع مصففة الشعر أمام صالون تصفيف الشعر النظيف والهادئ والذي يدار على نحوٍ جيد والمطل على السلالم المؤدية إلى القاعة الشرقية.

لم يكن من الممكن رؤية شيء سوى ضوء أصفر خافت في مكانٍ ما في الجزء الخلفي من المحل. وقفتا أمام اللوح الزجاجي الكبير. مجففات شعر مصطفة إلى أحد الحوائط. بدا الأمر في الضوء الأصفر -الذي ألقى ظلالًا غريبة خلف اللوح الزجاجي الكبير- للحظة كأن هناك زبائن كانوا يجلسون أسفل بعض مجففات الشعر وينتظرون. أمسكت بالصديري العاكس المطوي أمام صدرها وصمتت مصففة الشعر أيضًا وهكذا وقفتا لبرهة وأخذتا تنظران للوح الزجاجي الكبير الذي كان الضوء الأصفر يضيء صالون تصفيف الشعر من خلفه إضاءة قليلة، مرايا خاوية أمام كراسٍ خاوية... «هناك يوجد مصباح، إنه مجرد مصباح قائم على الأرض ودائمًا ما أتركه مضيئًا عندما أمضي. عندما أكون قد أطفأت كل شيء. عندما أكون قد أغلقت كل شيء. إن المديرة تقول دائمًا: لا تنسي النور. إنه يكلفنا تيارًا كهربائيًّا».

«يا لسخافة التيار الكهربائي. قروش. أموال رهن».

«أموال رهن؟».

«حسنًا، فلتنسي هذا الأمر. كنت أريد فقط أن أقول إنني كثيرًا ما أترك النور في الدهليز قبل أن أذهب للنوم. وعندئذ يظل النور مضيئًا طوال الليل. وماذا؟ ما تكلفة هذا؟ لا شيء. يا للعنة!».

«هل يجعل هذا الأمر أعصابك هادئة؟».

«وماذا عن الآن؟».

«النور في الدهليز».

«يكون أمرًا جيدًا أن أراه عبر الباب الموارب».

«سوف أذهب إلى الداخل، لو كنتِ تريدين أن تنتظري...».

«يجب أن أذهب إلى محطة الحافلات. آخر ترام».

«كنتِ ما زلتِ تريدين أن تقولي لي شيئًا متعلقًا بنواتي الكرز...».

«نواتا الكرز؟ أريد أن أغرسهما، بالخلف في الفناء حيثما أعيش. شجرتا كرز. ومن ثمَّ أصبح بائعة كرز».

«بائعة كرز؟ أنت تحكين أشياء...».

هزَّت السيدة ذات الشعر الداكن رأسها وفتحت باب صالون تصفيف الشعر ومضت نحو الداخل.

لوَّحت لها بيدها قبل أن تذهب إلى السلالم المؤدية إلى القاعة الشرقية بالأسفل. ولوَّحت لها السيدة ذات الشعر الداكن بدورها من وراء الباب ونزلت من ثمَّ ببطء، درجة فدرجة، إلى أسفل نحو القاعة الشرقية. «لماذا كنتِ تريدين في النهاية ألا تخبريني بأمر نواتي الكريز؟»، «لأنه أمر سخيف. لقد عثروا عليهما أسفل أحد المقاعد، في القطارات، لجنة المراقبة»، «لجنة المراقبة؟ هذا عبث، أليس كذلك؟»، «لا»، «كان ينبغي عليكِ حقًّا أن تغرسيهما»، «أترين، كان هذا الأمر أجمل بكثير. لكن أردتِ أن تعرفي هذا الأمر». وعندما سارت ببطء عبر القاعة الشرقية باتجاه المخرج، باتجاه محطة موقف الترام، استدارت مرة أخرى ورأت كيف انطفأ النور خلف اللوح الزجاجي الكبير بجوار السلالم.

***

رأتها خلف اللوح الزجاجي الكبير. كانت السيدة ذات الشعر الداكن تمضي عبر صالون تصفيف الشعر باضطراب قليلًا، كأنها مثقلة بالنعاس.

كانت قد خلعت الصديري العاكس البرتقالي وضمته إلى صدرها. وأخذت تنظر كيف كانت ترتدي مريلتها البيضاء. كانت الساعة قد جاوزت السادسة صباحًا بقليل، نهاية وردية العمل الليلية في القطارات وبداية وردية العمل الصباحية المبكرة في صالون تصفيف الشعر. كانت طوال الليل تنظف بالمكنسة وتمسح وفي ساعات الصباح كان الزملاء صامتين وكان كل شيء صعبًا وبدا كأن القطارات، التي كانوا يعملون فيها، تزداد طولًا باستمرار. ومن خلف كل عربة قطار، كانوا قد نظفوها، كانت هناك عربة جديدة بانتظارهم.

أرادت في بادئ الأمر ألا تسير مرة أخرى نحو محطة القطار، بمحاذاة القضبان، بعد أن كانت موجودة مع الزملاء في منزل عمال نظافة القطارات حيثما تبدأ ورديات العمل وحيثما تنتهي ورديات العمل، على طرف خطوط السكك الحديدية، لكنها كانت قد ارتدت عندئذ الصديري العاكس البرتقالي الخاص بها من جديد وانطلقت تسير بخطوات كبيرة وإيقاع سريع. كان الصباح معتمًا ورماديًّا كأن الليل ما زال مخيمًا. أصبحت عندئذ ترتدي بلوفر صوف أسفل رداء عملها الأزرق. بعد انتهاء وردية العمل الليلية المتأخرة، كانوا يُخزِّنون الزجاجات والصفائح، التي كانوا يعثرون عليها في القطارات، في منزل عمال نظافة القطارات ويقسمونها في ما بينهم في وقتٍ لاحق.

وصلت القطارات وقطارات الترام الأولى إلى محطة القطار. أمطرت السماء رذاذًا. كان صباحًا رطبًا رماديًّا وكانت القضبان تلمع بلونٍ

فضي في ضوء عربات القطار المضيئة. سارت القطارات فوق تشابك القضبان والتحويلات في البوابات الكبيرة أسفل أقواس القبة المستديرة محدثةً صوت صلصلة وطقطقة. عندما دخلت أخيرًا إلى رصيف المحطة الخارجي، الذي كان ماثلًا أمامها مثل درجة سلم كبيرة، شعرت من جديد بظهرها. قرفصت ومضت بالمكنسة أسفل المقاعد. لم تكن هناك ثمَّة نواة كرز بين كل القاذورات التي نظفتها بالمكنسة وأخرجتها هناك. «لقد أصبحتِ مقصرة يا سيدة «فيشر»». قضت نصف الليل في التنظيف بالمكنسة؛ ثم تولت أمر نوافذ القطارات. غمست ممسحة الزجاج في دلو الماء وانحنت نحو الأمام ولمست الزجاج بالممسحة المبللة ومررتها على الزجاج. شعرت بظهرها وأخذت تسير مترنحة على رصيف المحطة الخارجي. «أتعرفين، أنتِ تسيرين مثل بحَّار».

«أنا، مثل بحَّار؟ حسنًا، فلتقل لي..».

«بلى، مثل بحَّار وصل إلى البر لتوه».

«لكنني لست بحار محنك..».

«مثل ضابط بحرية برتبة مساعد قبطان وصل إلى البر لتوه».

«أنتِ لا تحسنين هذا الأمر!».

«لكنني أحب الطريقة التي تسيرين بها. وأفضِّل أن أراها».

كانت محطة القطار تعج بالناس في الساعة السادسة من الصباح الباكر؛ فكانت تمتلئ بالمتنقلين بين القطارات وبالعمال والمسافرين وشعرت بالندم أنها لم تذهب مباشرة من منزل عمال نظافة القطارات إلى إحدى محطات الترام. لكنها رأت بعد ذلك الحوائط الزجاجية لصالون تصفيف الشعر، ما زالت بعيدة جدًّا، ورفعت يدها كأنها تلقي التحية. لم

تكن تعرف عندئذ هل كانت السيدة خلف اللوح الزجاجي بالفعل وتستعد لوردية العمل النهارية. وما زال صالون تصفيف الشعر بعيدًا لدرجة أنها كانت تستطيع أن تحجب اللوح الزجاجي بيدها ودست يديها من جديد في جيوب رداء عملها الأزرق وسارت ببطء وهي تترنح قليلًا وتمر بالناس في الصباح. اختصرت الطريق عبر نفق، كان يمتد أسفل أرصفة المحطة ويربط بين أرصفة المحطة معًا أسفل الأرض. كانت تحب هذا النفق؛ لأنه في أغلب الأوقات لم يكن أي شخص يتواجد هناك. فلم يكن أحد يستخدم هذا الاختصار سوى القليل من المسافرين والعاملين في محطة القطار. توقفت لوهلة ونظرت إلى الأنبوبة ذات الإضاءة الخافتة التي ربما تدوي خطواتها فيها من جديد على الفور، كانت تحب أيضًا هذه الأصوات هنا بالأسفل. صوت دوي الخطوات، صدى الصوت، عندما كانت تصاب بالسعال. كانت تتعجب دائمًا أن الأفراد المنتمين لثقافة «البانك»، والذين كانوا يجلسون أمام المخارج ويحتسون الخمور، والمشردين والأجانب، الذين كانوا يقفون حول محطة القطار وكثيرًا ما يطوفون بالقاعات، لم يكونوا يستخدمون هذا النفق ليخلدوا قليلًا للهدوء أو لكي يتموا هناك صفقاتهم القذرة. لم تكن ترى هنا بالأسفل أفراد أمن القطارات أبدًا.

سارت عبر النفق أسفل أرصفة المحطة وسمعت صوت طقطقة القطارات أعلى الحجر ومرت أثناء سيرها بالأبواب الفولاذية التي كانت تؤدي يسارًا ويمينًا إلى مسافة عميقة نحو القاع وصعدت بعد ذلك ببطء درجات السلم الموجودة بجوار رصيف المحطة رقم أحد عشر. وعندئذ رأتــها خلف اللوح الزجاجي الكبير. كانت ترتدي مريلتها البيضاء وتجهز كل شيء من أجل وردية العمل النهارية. وكانت تقف هي هناك على رصيف المحطة رقم أحد عشر وتنظر إليها وتسمع كيف وصل القطار المتجه إلى برلين ومرَّ بها كل المسافرين وخلعت الصديري العاكس البرتقالي وسارت بينهم وبصحبتها الصديري العاكس البرتقالي -الذي

ضمته إلى صدرها- نحو الأمام وهي تترنح قليلًا بعد الليلة الطويلة.

اتكأت على أحد جداول مواعيد السفر صفراء اللون ورأت كيف كانت السيدة تعمل في صف مجففات الشعر وتضيء الأنوار ورأت انعكاس صورتها في المرايا الكثيرة.

لم تريا بعضهما بعضًا منذ بضعة أسابيع لكن ربما تنتهي عما قريب ورديات عملهما سويًّا. كم مرة التقتا حتى الآن؟ ثلاث مرات أم أربع مرات؟

«كريستا فيشر».

«بيرجيت».

«وماذا عن اسم عائلتك؟».

«لماذا؟».

«لقد قلت لكِ اسم عائلتي أيضًا. إذًا...».

«كرينتس».

«مثل اسم رجل السياسة؟».

«لا اسمي به حرفا التاء والسين».

«حسنًا، لا بأس. إن «كرينتس» العجوز كان عضوًا أصيلًا في جماعة «القمصان الزرقاء». «إيجون كرينتس»[2] رئيس جماعة «القمصان الزرقاء»».

«كنت أنا أيضًا عضوة في جماعة «القمصان الزرقاء». وكنت أجد هذا

2- المقصود هنا «إيجون كرينتس» رئيس جمهورية ألمانيا الشرقية سابقًا وهو سياسي شيوعي ألماني. (م)

الأمر آنذاك جيدًا جدًّا».

«وأنا أيضًا يا «بيرجيت». لكن هذا الأمر مرت عليه عقود. كنا على الأرجح فتاتين شيوعيتين في ريعان شبابنا».

«اشتراكيتين».

«أجل، اشتراكيتين جميلتين، لا مانع لديَّ. قمصان زرقاء. والآن أنا أرتدي رداء عمل أزرق رجاليًّا».

«رداء عمل أزرق نسائيًّا» قالتها «بيرجيت» السيدة ذات الشعر الداكن. جلستا إلى النضد واقتسمتا زجاجة شمبانيا صغيرة. بدتا مُتعَبتين جدًّا واستندتا برأسيهما إلى أيديهما وبمرافق أيديهما إلى خشب النضد.

قالت «كريستا فيشر»: «أجل، أنا إحدى بطلات العمل».

وفي وقتٍ لاحق، ومن جديد كانت هناك ليالٍ وأسابيع في تلك الأثناء وقبل ذلك، تُرى كم مرة التقيتا حتى ذلك الوقت؟ قبل أن تغلق حانة محطة القطار، التي تقع بجوار السلالم المؤدية إلى القاعة الشرقية بالأسفل، أبوابها، في منتصف الليل، سمعتا في الراديو أغنية «السيدة ذات الرداء الأسود»[3].

«كثيرًا ما رقصت على أنغامها في الديسكو».

«وأنا أيضًا. قبل مئة عام».

«هل تفهمين الكلمات؟».

«ليس بصورة صحيحة. لقد جاءت السيدة ذات صباح. وبعد ذلك

3- المقصود هنا أغنية ,,Lady in Black'' لفرقة الروك الإنجليزية الشهيرة ,,Uriah Heep''والتي صدرت في السبعينيات من القرن العشرين. (م)

هناك شيء ما له علاقة برياح الشتاء».

«جاء الشتاء سريعًا».

«هلا اقتسمنا زجاجة شمبانيا صغيرة أخرى؟».

«بكل سرور» وطلبت «بيرجيت» مصففة الشعر زجاجة صغيرة أخرى من الشمبانيا ومعها كأسان.

«جولة أخيرة» قالها نادل الحانة البدين الذي كان يبدو بنظارته المصنوعة من النيكل مثل معلم طيب القلب في مدرسة ابتدائية.

قالت «كريستا»: «أنت لست في حاجة لأن تقول هذا يا «جيمي»».

«اسمي ليس «جيمي»» قالها نادل الحانة البدين وأحضر الشمبانيا من الثلاجة.

تساءلت «بيرجيت» عندما أخذتا تحتسيان النبيذ: «هل لديكِ أبناء؟». احتستا الشمبانيا الأخيرة وفجأة أصبحتا لا تشعران بالتعب مرة أخرى على الرغم من أن محطة القطار كانت آنذاك ساكنة وخاوية وأصبحت غارقة في الليل.

«ابنة. وهي تعمل في برلين. وماذا عنكِ؟».

«لا، عندما كنت شابة، كان لديَّ جنين. هناك». وضعت راحة يدها على بطنها. ما زالت ترتدي المعطف الصيفي على الرغم من أن الليالي أصبحت عندئذ باردة. «ولم يستمر وجوده بعد ذلك. هل أصبحتِ جدة بالفعل؟».

«لا» قالتها وأضافت: «لكننا نعمل على ذلك. عمرها اثنان وثلاثون عامًا. لكنني أصبحت أيضًا أمًّا في سنٍ متأخرة».

«زيجة جيدة؟».

«زيجتي؟» ضحكت وأشارت بالنفي. «منذ وقتٍ طويل».

«أعني زيجة ابنتك».

«آه... سوف يجعلانها أفضل. إنها لا تأتي كثيرًا وأنا دائمًا في العمل. هل *أنتِ* متزوجة يا «بيرجيت»؟».

«كنت متزوجة. مرتين».

«قفزة تزلج مزدوجة».

«معذرة؟».

«حسنًا، هي مجرد مقولة يا «بيرجيت». فن التزلج على الجليد».

«لم يثِر اهتمامي أبدًا يا «كريستا». على الرغم من «كاتارينا» الجميلة».

«وفي غضون بضع سنوات لن يعود هناك أحد يعرف «كاتي» الجميلة. فنانة التزلج على الجليد الاشتراكية العظيمة».

ثم صمتتا لبرهة واحتستا رشفات صغيرة من الشمبانيا الخاصة بهما وصبَّتا جرعات أصغر من الزجاجة في كأسيهما الضيقتين العاليتين وأخذتا تريان كيف أصبحت آخر زجاجة شمبانيا صغيرة فارغة شيئًا فشيئًا.

«لا أدري يا «كريستا» هل ينبغي أن أشعر بالسعادة من التقاعد».

«هل ما زالت أمامك سنوات طويلة على التقاعد؟».

«بعض الشيء. بضع سنوات».

قالت: «أنا أيضًا. لكن أنتِ... أنت ما زلتِ تبدين في حال جيد. أنتِ لا تبدين مثل... حسنًا، أنتِ تعرفين هذا بالفعل».

«شكرًا».

«لا، أنا أتحدث بجدية. أنت تعتنين بنفسك وتبدين في حالٍ جيد».

«وأنتِ أيضًا يا «كريستا»».

«الأمر ليس كذلك، أنا عاملة نظافة. وهذا يضر بالبشرة». وضعت يديها على النضد ورفعت راحتي يديها لأعلى. كانت يداها جافتين وبشرتها ممزقة في مواضع كثيرة.

قالت «بيرجيت»: «أنتِ لستِ عاملة نظافة». وأرادت أن تضع يدها في إحدn اليدين المفتوحتين ولكنها عدلت عن ذلك ومسحت على ثنايا معطفها الصيفي.

سألت: «هل كنتِ متواجدة دائمًا في القطارات؟».

قالت «كريستا»: «لمدة عشرين عامًا تقريبًا. هذا *المعتاد دائمًا*، أشعر أنني *اعتدت هذا*».

«وقبل ذلك؟».

«كنت أعمل في فندق كبير، بجوار محطة القطار مباشرةً، الناحية الغربية. بجوار الصالة الغربية مباشرةً. لقد تعلمت هناك أيضًا. كان أفضل فندق في المدينة».

قالت «بيرجيت»: «يمكنني أن أذكره، لقد أغلقوه في بداية التسعينيات».

قالت «كريستا»: «أجل. ظللت عاطلة لبعض الوقت، ثم تقدمت للعمل لدى جهة نظافة القطارات. لا أريد أن أتبرم؛ فقد فات الأوان بالفعل».

قالت «بيرجيت»: «أعرف هذا؛ فالإنسان يصبح رقيق المشاعر بطريقة أو أخرى».

«وماذا عنكِ؟ منذ متى وأنتِ هنا تقصين الشعور بالقرب من القطارات؟».

قالت «بيرجيت»: «أشعر أنني *اعتدت هذا*».

«ولم يسبق لنا أن رأينا بعضنا بعضًا أبدًا؟».

قالت «بيرجيت»: «يكفي بالطبع أننا نرى بعضنا بعضًا الآن دائمًا».

«أجل، مضبوط». وبعد ذلك صمتتا لبرهة وأخذتا تحتسيان رشفات صغيرة من الشمبانيا الباردة الخاصة بهما والتي لم تعد باردة جدًّا، رشفات أخيرة، وأخذتا تراقبان النادل البدين الذي كانت «كريستا» تسميه دائمًا «جيمي» والذي كان يغسل الكؤوس، وتحركت على النضد كؤوس أخرى نصف ممتلئة ذهابًا وإيابًا، آخر حركات لآخر زبائن. كان هناك محصل تذاكر يحتسي القهوة ويضع قلنسوته الزرقاء ذات الحافة الأمامية السوداء بجواره على النضد. أصدر هاتف في معطف «بيرجيت» الصيفي صوت أزيز لكنها لم تقم بأي رد فعل وأخرجت سيجارة من علبتها وأشعلتها.

قالت «كريستا»: «هناك شيء ما لديكِ يصدر صوت أزيز».

قالت «بيرجيت»: «لا، لا شيء يصدر صوت أزيز».

«ألا تريد مديرتك شيئًا آخر؟».

«لا، ليس في هذا الوقت. فقد تجاوز الوقت منتصف الليل».

توقف صوت الهاتف وارتشفتا من كأسيهما وبعد ذلك بدأ الهاتف يصدر من جديد صوت الأزيز وجذبته «بيرجيت» من الجيب الداخلي لمعطفها الصيفي ورمقت الشاشة المضيئة بنظرة خاطفة وضغطت على زر لترفض المكالمة.

قالت «كريستا»: «ليس لديَّ هاتف محمول على الإطلاق، بسبب الإشعاع».

«أنتِ لا تعنين هذا بجدية، أليس كذلك؟».

«بلى، وعلاوة على ذلك لا يستطيع أي شخص أن يزعجني ويثير أعصابي في مثل هذه الساعة...».

ودت أن تطلب لنفسها كأسًا من نبيذ «ماريا الصغيرة» لكن عندئذ خطر ببالها أن نادل الحانة كان قد أعلن بالفعل أنها آخر جولة عمل له. نظرت إلى الشاشة المضيئة لهاتف «بيرجيت» المضيء الذي كان قد أصدر صوت أزيز من جديد وما زال يصدر صوت أزيز وتبينت وجود اسم ما ونظرت سريعًا إلى مكان آخر قبل أن ينطفئ وقبل أن تدس «بيرجيت» الهاتف مرة أخرى في الجيب الداخلي لمعطفها الصيفي.

«أشعر أنني أكثر أمانًا بصحبة الهاتف المحمول. فلتتخيلي أنكِ تعرضتِ لهجومٍ ما. هنا يكون الوضع خطيرًا في الليل. أقصد بالخارج».

«أجل، إنه خطير. في بعض الأحيان، عندما ينصرف آخر قطار، أمضي سيرًا على الأقدام. صحيح أنني أتفادى حي الأجانب الجميل لدينا لكن هذا دائمًا ما يكون معي عندئذ.» مدَّت يدها في الجيب الموجود عند صدرها في رداء العمل الأزرق ووضعت علبة من رذاذ الفلفل على النضد بجوار زجاجة الشمبانيا. «لو ضايقني أي شخص... وعندئذ لن يكون أي هاتف محمول مفيدًا أيضًا».

«وماذا لو أردت أن أتصل بكِ؟» أخذت «بيرجيت» علبة رذاذ الفلفل من النضد بحذر وأمسكتها في كلتا يديها وحرَّكت شفتيها كأنها تقرأ الكلام المكتوب على العلبة.

«لديَّ هاتف أرضي في المنزل. لكن... من أجلك ربما أشتري هاتفًا محمولًا. يوجد متجر بيع الإلكترونيات الكبير قريبًا جدًّا من هنا».

«أليس لديكِ حقًّا هاتف محمول؟» ابتسمت «بيرجيت» ووضعت رذاذ الفلفل على النضد مرة أخرى.

قالت «كريستا»: «أفكر في بعض الأحيان أنه ليس من الجيد أن الهواء كله هنا، كل شيء، في كل مكان، إن كل المحادثات تصبح عابرة وشبكة الإنترنت وكل الإشارات... لا يمكن أن يكون هذا أمرًا جيدًا بالنسبة لرؤوسنا». نقرت بإصبع السبابة على صدغها وبعد ذلك مررت يدها بين شعرها.

«يجب أن تذهبي ذات مرة لمصفف الشعر يا «كريستا»».

واتكأت على جدول مواعيد السفر أصفر اللون وأخذت تنظر نحو صالون تصفيف الشعر المطل على السلالم التي كانت تؤدي لأسفل حيث القاعة الشرقية حتى ظل رجل عجوز -كان يجر وراءه حقيبة سفر ضخمة ذات عجلات- واقفًا أمامها. ولأنها ظلت تنظر، وهي تحمل الصديري العاكس البرتقالي المطوي أمام صدرها، فقد اقترب منها بشدة بعد ذلك وقال: «معذرة!» وبعدها مرة أخرى: «معذرة من فضلكِ!» لم تكن قد سمعته في البداية؛ لأنه كان يتكلم بصوتٍ منخفض للغاية لكن ربما كان الضجيج وأصوات محطة القطار في الصباح هي من ابتلعت صوته. تنحت جانبًا وانحنى الرجل العجوز نحو جدول مواعيد السفر. كاد رأسه أن يلمس الزجاج الموجود أعلى الورق الأصفر؛ فانحنى نحو الأمام قدر استطاعته.

ذهبت إلى أحد أكشاك المخبوزات، التي كانت تفتح أبوابها في هذا الوقت، عند نهايات أرصفة المحطة، واشترت لنفسها قدحًا من القهوة في كوب

من الورق المقوى. نزعت الغطاء ذا الفتحة وألقت الغطاء البلاستيكي بجوار الكشك ونفثت الهواء في المشروب الساخن. نظرت إلى الساعة الكبيرة الموجودة أعلى الممر الذي كان يؤدي إلى السلالم المؤدية إلى القاعة الشرقية. كان شيء ما قد حدث في صالون تصفيف الشعر آنذاك. ظنت في بادئ الأمر أنها ربما كانت المرايا التي كانت ترى فيها «بيرجيت» مرارًا وتكرارًا.

لكن بعد أربعين دقيقة، فتح صالون تصفيف الشعر أبوابه وعندئذ جاءت أيضًا زميلات «بيرجيت».

كانت مُتعَبة ولم تجعلها القهوة أيضًا في حالٍ أفضل.

لكنها أرادت أن تنتظر حتى يفتح صالون تصفيف الشعر أبوابه. «صباح الخير، أود أن أقص شعري».

مسحت بيدها خلال شعرها الذي كان مقصفًا وطويلًا وكان متكورًا عند الأطراف وملتصقًا من العرق.

في الليلة قبل الماضية، أي بالأمس، لا، أول أمس؟ كانت مضطربة قليلًا؛ إذ كانت الأيام والليالي تدفع بعضها بعضًا أكثر فأكثر... كانت في الليلة قبل الماضية قد تولت أمر حاويات النفايات لبضع ساعات. في القطارات. أزاحت كيس القمامة أسفل حاوية النفايات ورأت نفسها منحنية في اللوح الزجاجي الموجود أعلى حاوية النفايات ومدَّت يدها يسارًا ويمينًا نحو المعدن وجذبته واستخرجته لترفعه حتى سقطت حاوية النفايات باتجاهها وكادت أن تفرغ من تلقاء نفسها في كيس القمامة بينما أخذت هي تمسك الحاوية بإحكام وتهزها بقوة حتى تصبح فارغة تمامًا وذلك قبل أن ترفعها من جديد إلى حامل الحاوية. ومرة أخرى، رأت نفسها في اللوح الزجاجي في الضوء الأصفر للإضاءة الليلية. ولوهلة لمست أكتافهما

بعضها بعضًا عندما ذهبت إلى حاوية النفايات التالية.

«قمامة سخيفة!» انتفضت واقفةً وقامت من جلسة القرفصاء نحو أعلى وتركت حاوية النفايات عندما انساب السائل في كيس القمامة وسال أعلى كيس القمامة وسقطت منه قطرات على الأرض وسال على ساقيها؛ فأصبح لون بذلة العمل الزرقاء داكنًا وأصبح عندئذ لون القماش الأزرق داكنًا ومبلولًا على ركبتيها وشمَّت رائحة البول المنبعثة من حاوية النفايات. «خراء لعين!» تعثرت خطاها متقهقرةً وأبعدت يديها المبلولتين عن نفسها وغمستهما بعد ذلك في دلو ماء التنظيف. أرادت أن تفتح النافذة المنزلقة على مصراعيها لكن ألم يكن هناك ضوء في قطارٍ آخر؟ كانت لجان المراقبة لا تأتي إلا نادرًا وتفتش الأرض والنوافذ وسلات المهملات بكشافات اليد وكانت تتحرك في القطارات وبين أرصفة القطارات المعطلة دون صوت تقريبًا وتظهر وتمضي من جديد.

أمسكت بالقهوة أمام وجهها من مسافة قريبة جدًّا لدرجة أنها شعرت بالبخار ساخنًا ورطبًا على بشرتها وأغلقت عينيها. وعلى الرغم من أنها لم تكن قد اتسخت بشدة أثناء وردية العمل الليلية هذه فقد أرادت أن تستحم قبل أن تذهب إليها. كانت في بعض الأحيان تبدل ملابسها في منزل عمال نظافة القطار وتستحم هناك أيضًا.

كانت عارية وفتحت صنبور الماء الدافئ حتى لم يعد من الممكن فتح الصنبور أكثر من ذلك. كانت قد ألقت خمسة يوروهات في الفتحة المخصصة لذلك. أموال مقابل رهن الأيام الماضية. كان مركز دورات المياه الكبير المزود بالدش يقع على بعد بضعة مترات فقط بجوار صالون تصفيف الشعر. وكان هناك متجر لبيع الحيوانات الأليفة يقع بينهما. نظرتا إلى الأقفاص التي كان بها طيور خضراء وصفراء والتي كانت تجلس نائمةً على قضبانها، أطواق الكلاب وأطباق طعام الحيوانات

ومراحيض القطط وقالت: «لم يكن لديَّ أبدًا حيوان أليف، وأنتِ؟».

«حيوانا «هامستر»، عندما كنت طفلة. وفكرتُ كثيرًا أن أقتني قطة».

«لا أدري. أظن أن الإنسان يصبح عندئذ وحيدًا».

«أجل». رأتا بعضهما بعضًا في اللوح الزجاجي حيث وقفتا كتفًا بكتف. وبعيدًا من خلفهما، مضى في الليل قطار عبر أحد الأقواس المستديرة التي كانت تبدو مثل بوابات كبيرة.

ضغطت مرارًا وتكرارًا على الزجاجة البلاستيكية، التي كان بها الشامبو، ووزعَّت الشامبو على شعرها وجسدها. سبَّب لها الشامبو حرقانًا في عينيها ورمشت بعينيها ونظرت لنفسها لأسفل وشفطت بطنها نحو الداخل. كان ملمس شعرها طريًّا وجيدًا أسفل ماء الدش وسال الماء الدافئ على ظهرها.

«عليكِ الآن أن تبقي رأسك هادئًا. يجب أن يبقى مستقيمًا وإلا سأقص أذنك». شعرت بملمس يدي «بيرجيت» على فروة رأسها وسمعت الصوت المنخفض لطقطقة المقص.

فتحت عينيها ورأت نفسها في المرآة. كانت هناك قطعة قماش بيضاء تغطي الجزء الأعلى من جسدها وأخذ الشعر يسقط أكثر فأكثر على القماش. رأت أطراف شعرها رمادية اللون. كانت بعض الخصلات رمادية تمامًا ونظرت من جديد في المرآة ورأت يدي «بيرجيت» في شعرها، الصوت المنخفض لطقطقة المقص الذي كان يتحرك في شعرها بين الأيدي وخلالها. تخيلت كيف وقفت بالخلف أمام المحل ورأت امرأتين وحيدتين تمامًا في صالون تصفيف الشعر؛ وكانت إحداهما ترتدي رداء عمل أزرق رجاليًّا، كان من الصعب رؤيته أسفل قطعة القماش البيضاء التي كان الشعر يسقط عليها. أما الأخرى فكانت تقف خلفها وتنحني

فوقها. لمعان لون المقص الفضي...

ومن جديد أغلقت عينيها وشعرت بيدي «بيرجيت» وأطراف أصابعها على فروة رأسها. وشعرت بالقشعريرة مثلما كانت تشعر بالقشعريرة عندما كانت تذهب إلى مصفف الشعر وهي فتاة. التلامسات.

وضعت «بيرجيت» يدها على يدها وشعرت بملمس بشرتها الجافة والمليئة بالشقوق. «أنا إحدى بطلات العمل». بدا لها لوهلة كأن «كريستا» كانت تود أن تسحب يدها بعيدًا بسرعة لكنها كانت مجرد حركة غير ملحوظة على خشب النضد.

«تعالي معي إلى هذا الاتجاه. سأقص لكِ شعرك».

«الآن في جوف الليل؟».

«أجل. نحن نريد أن نجعلك حسنة المظهر من جديد».

«حسنًا، لكن مظهري ليس بمثل هذه الدرجة من السوء، أليس كذلك؟».

«بلى، سنذهب الآن إلى هذا الاتجاه وسأقص لكِ شعرك».

«لو كنتِ تقصدين... سيكون أمرًا جميلًا بالفعل».

«أريد أن أهديكِ هذا».

«حسنًا، فلتتوقفي...».

«بلى».

«أنتِ لطيفة. هل تعرفين أنني وقفت مؤخرًا في الصباح أمام اللوح الزجاجي لمحلك...».

«بعد وردية عملكِ الليلية؟ أي قبل وقت قليل من ورديتي المبكرة».

«أجل».

«ولماذا لم تدخلي؟».

«لا أعرف. أنا... أنا لا أعرف».

«أغلب الظن أنه كانت هناك مصففات الشعر كثيرات جدًّا أكثر من اللازم في آن واحد».

«لا، ليس لهذا السبب. كان لديَّ بالطبع وبصورة إضافية...».

«كيفما يكون الأمر يا «كريستا». فالآن الوضع أجمل بكثير».

«أجل. إنه كذلك».

***

جلست إلى النضد وانتظرت لكن «بيرجيت» لم تأتِ. احتست قدحًا من القهوة وكأسًا من نبيذ «ماريا الصغيرة» وبعد ذلك سددت الحساب وذهبت باتجاه صالون تصفيف الشعر. أدركت بالفعل من مسافة بعيدة أنه لم يعد هناك نور مضيء. سارت لبضع دقائق عبر صالة أرصفة المحطة ولكنها لم ترَ «بيرجيت» في أي مكان. وفي الطرف الآخر للصالة، أي عند المتاجر التي تفتح أبوابها لأوقات متأخرة ومطاعم الوجبات السريعة، كان هناك بضعة شباب واقفين.

عادت إلى حانة محطة القطار. تأكدت لوقتٍ عابر تمامًا أنها عندما تدخل، ربما تكون «بيرجيت» جالسة إلى النضد وتدخن لكن ما من أحد كان جالسًا هناك وعادت من جديد إلى قهوتها وإلى نبيذ «ماريا الصغيرة» الخاص بها الذي كانت ترتشف منه مرارًا وتكرارًا بينما أخذت تنتظر.

مسحت بيدها بضع مرات على قصة شعرها الجديدة، أي خلال شعرها

متوسط الطول، وبدا لها لبضع مرات أنها سترى أطراف شعر قصيرة فضية اللون تحلق أعلى النضد في الهواء.

مرَّت بالفعل بضعة أيام من جديد منذ أن جلستا في صالون تصفيف الشعر في جوف الليل وقصت «بيرجيت» شعرها. كانت الورديات قد تبدَّلت وكانت «بيرجيت» قد تركت النور مضيئًا في صالون تصفيف الشعر مرتين وهو ما كادت قد وعدت به وهي تمزح: «مثل الرسالة التي توضع في زجاجة ويتم قذفها. هل تفهمين؟».

«ما من نور يضيء في الرسالة التي توضع في زجاجة ويتم قذفها يا «بيرجيت»».

«اممم... مثل رسالة توضع في زجاجة ويتم قذفها وبداخلها دودة متوهجة صغيرة».

«أنتِ تحكين قصصًا يا «بيرجيت»».

كانوا قد جاؤوا بعد منتصف الليل لينظفوا قطارين من قطارات المسافات الطويلة التي كان ينبغي أن تواصل السفر في الصباح. ومن بعيد بالفعل، كانت «كريستا» قد رأت الضوء الأصفر لصالون تصفيف الشعر على الرغم من أن ضوءه كان خافتًا للغاية. هذا الضوء الأصفر للمصباح القائم على الأرض الذي كانت «بيرجيت» تضيئه أحيانًا عندما تنظف كل شيء وتوقف تشغيل المصابيح الأخرى، حركات أخيرة باليد، إذ كانت تضع ماكينات حلاقة الشعر في الشواحن الكهربائية وتغلق كل الأبواب بالمفتاح وتغادر صالون تصفيف الشعر.

«سوف ينصب الغضب عليها». هكذا دار برأسها قبل أن تصعد مع الآخرين إلى قطار المسافات الطويلة. لكن في الليلة التالية أضاء النور من جديد وابتسمت عندما صعدت إلى قطار المسافات الطويلة وبصحبتها

الدلو والمقشة وأدوات التنظيف.

بعد ذلك لم يعد النور يضيء لكنها كانت سعيدة جدًّا في الحقيقة بسبب ذلك؛ فلماذا كان من المفترض أن تثير «بيرجيت» غضب مديرتها؟ لكنها كانت على الرغم من ذلك جميلة، هذه الرسالة الموضوعة في زجاجة في قاعة محطة القطار شبه المعتمة. في هذا الوقت، كانت الحانة المطلة على السلالم أيضًا مُغلقة بالفعل منذ وقتٍ طويل وبالأعلى عند المخرج الغربي فقط كان هناك بضعة أشخاص واقفين أمام مطاعم الوجبات السريعة التي تفتح أبوابها على مدار أربع وعشرين ساعة.

«وهذا من أجلك وحدك. لن يلاحظه أي شخص آخر».

احتست كأس نبيذ «ماريا الصغيرة» عن آخره وسددت الحساب ومضت.

في المساء التالي أيضًا لم تلتقِ بـ«بيرجيت» في الحانة المطلة على السلالم المؤدية بالأسفل إلى الصالة الغربية. سارت مرة أخرى لبضع دقائق عبر صالة أرصفة المحطة وذهبت بعد ذلك إلى أسفل وركضت عبر ساحات محطة القطار الكبيرة. فكرت لوهلة أن تذهب إلى النفق الذي كان يربط أرصفة المحطة معًا لكن ما عساها أن تفعل هناك؟

ومن جديد تبدلت ورديات العمل وكانت هناك أيام إجازات في ما بينها وشعرت بالغضب أنها لم يكن لديها هاتف محمول. كانت الليالي باردة وجاء أول صقيع ثم أصبح الجو من جديد أكثر دفئًا بعض الشيء. وكادت السنة أن تنتهي.

أخذت تتأمل مصففات الشعر اللواتي كن يجهزن كل شيء من أجل العمل. «أنا مصففة شعر محترفة يا «كريستا» ولست مصففة شعر تقليدية. مصففات الشعر التقليديات تجدينهن في صالون «قصة شعر

ممتازة»». لكن «بيرجيت» لم تكن هناك. «« قصة شعر ممتازة»؟ يا له من اسم سخيف...». ضحكتا. أطراف أصابعها على فروة رأسها. خلف أذنيها. استندت إلى حائط كابينة الاستحمام المغطى بالسيراميك. كان الوقت، الذي حجزته، قد انتهى منذ فترة طويلة بالفعل ولم يعد الماء ينساب. خمس دقائق مقابل خمسة يوروهات. ورفعت يدها عن بطنها ومسحت بيدها عبر شعرها المبلول وأخذت قطرات الماء تسيل من شعرها على وجهها.

***

كانت قد وقفت أمام المنزل لفترة من الوقت. والآن أخذت تصعد السلالم نحو أعلى، درجة تلو أخرى. لم تكن تريد أن تقرع الجرس بالأسفل ولم تكن تدري ماذا كان ينبغي عليها أن تقول عندما تسمع صوتها عبر جهاز الاتصال الداخلي «الإنتركم». «نعم؟».

«هذه أنا. أنا «كريستا»».

«نعم؟».

«كنت أريد...» كانت قد وقفت طويلًا أمام أزرار الجرس التي كانت بجوار لافتات الأسماء ووضعت يدها على مقبض الباب الموصد.

«لقد أصبحتِ مقصرة يا سيدة «فيشر»».

قالت: «لا، أجل. إنه الليل».

«أي لو أنكِ...».

«فلتسكتي ببساطة».

كانت قد ذهبت في الصباح بعد وردية العمل إلى صالون تصفيف الشعر

وكانت قد بدَّلت ملابسها قبل ذلك في منزل عمال نظافة القطار وعلَّقت رداء عملها الرجالي الأزرق في خزانتها. وكانت قد أحضرت معها سترتها الشتوية الجيدة ولكن عندئذ أصبحت تتصبب عرقًا في السترة الشتوية الثقيلة جدًّا أكثر مما ينبغي والتي كانت قد ارتدت فوقها أيضًا الصديري العاكس البرتقالي. كان هناك مطر ثلجي بارد بصورة منفرة قد بدأ يهطل وكانوا يشعرون بالسعادة عندما يصبحون في القطارات. وكانت قد نظفت الألواح الزجاجية من الداخل بينما أخذت ندفات الثلج الكبيرة بالخارج ترتطم بالزجاج وذابت هناك وارتسمت خطوط ومنحنيات طويلة فوق الزجاج.

لم تكن مصففة الشعر تريد في البداية أن تقول لها أين كانت «بيرجيت» وأين تسكن. كانت «كريستا» تعرف الحي فحسب. وكانت قد خلعت الصديري العاكس وجمعته في كيسها القماشي. وتخلت عن نصيبها من العلب والزجاجات التي عثرت عليها في القطارات.

«نحن نعرف بعضنا جيدًا، أنا...».

«لقد أبلغت أنها مريضة. ولا أعرف أكثر من ذلك».

«لو أن معكِ ربما رقم هاتفها أو عنوانها...».

«لا يجوز أن أعطيها لكِ ببساطةٍ هكذا».

وهكذا أخذت تقف لبرهة أمام المرايا، بين مجففات الشعر، بينما أخذ أول زبائن، من الرجال والنساء، يسيرون مرورًا بها. أمسكت بالكيس القماشي، الذي كان به الصديري العاكس البرتقالي، وقد ضمته لصدرها.

«لكن «بيرجيت» صديقتي ونحن... أود فقط أن أزورها».

صوت طقطقة المقصات وأزيز ماكينات قص الشعر، وبالخارج أمام

اللوح الزجاجي الكبير لصالون تصفيف الشعر دبت الحياة في محطة القطار فسارت القطارات -التي كانت قد نظفتها في الليالي السابقة- عبر الأقواس المستديرة التي كانت تبدو مثل بوابات كبيرة.

«معذرة، معذرة من فضلكِ». لم تكن قد سمعت الفتى على الرغم من أنه انحنى فوقها. جلست على عتبة الباب وكانت حركة المرور أثناء ساعة الذروة تسير في الشارع الكبير وربما أن هذه الضوضاء كانت قد ابتلعت صوت الفتى.

وعندما أفسح لها الفتى، الذي كان يرتدي حول رقبته مفتاحًا في سلسلة، الطريق إلى الداخل، صعدت السلالم، درجة تلو أخرى، نحو أعلى. كان الفتى، الذي استدار بضع مرات نحوها، ممسكًا بكلتا يديه بهاتف محمول ضخم ومسطح.

كان يتحدث في هذا الهاتف المحمول وأخذت تنظر إليه من الخلف قبل أن يركض سريعًا عبر بئر السلم نحو أعلى.

وقفت بعد ذلك أمام باب الشقة. كان اسم «بيرجيت» على لافتة الباب. اقتربت بشدة من عتبة الباب. هكذا ظلت واقفة لبرهة وأخذت تتنصت إلى داخل الشقة. كان كل شيء هادئًا. تقهقرت خطوة إلى الوراء ورتبت ثنايا معطفها الشتوي ومررت يدها بين شعرها وعلى جبينها وبعد ذلك طرقت على الباب.

الرحلة الأخيرة لقطار الشاطئ

كنت أذهب كل مساء إلى حاجز الأمواج الغربي لكي أجلس هناك على أحد المقاعد. كنا في منتصف سبتمبر والموسم يقترب من نهايته، غير أن أواخر الصيف كانت مشمسة ودافئة. الأمسيات طويلة ولطيفة والكثير من المصطافين يبقون على الشاطئ حتى يخيم الظلام.

عند نهاية حاجز الأمواج، كان هناك فنار صغير مطلي باللونين الأخضر والأبيض ومن خلفي أيضًا، أي عند طرف المدينة القديمة، كان هناك فنار لكنه أجمل بكثير من الفنار الصغير؛ إذ كان الفنار العريق ناصع البياض السامق يسمو فوق منازل المدينة القديمة. كان الفنار الكبير أيضًا بمثابة متحف لكنني عندما كنت أذهب في المساء إلى حاجز الأمواج الغربي، كان الفنار يكون مغلقًا بالفعل وكان كلا معرضي الصور الدائريين -وأحدهما في منتصف الفنار والثاني أسفل قمة الفنار- مهجورين. كان السياح يتطلعون هناك إلى البحر نهارًا وكنت أنا أيضًا قد وقفت ذات مرة هناك ونظرت إلى البحر والسفن، مرتين في حقيقة الأمر، لكن كانت هناك سنوات كثيرة تفصل بين كلتا زيارتيَّ لمتحف الفنار هذا على الرغم من أن كلمة *سنوات* كثيرة قد قيلت *كثيرًا جدًّا أكثر مما* ينبغي، إلا أن زيارتي الثانية قد تمت قبل أيام قليلة فقط.

كنت أذهب كثيرًا للتنزه على الشاطئ وأحيانًا كنت أستأجر كرسي شاطئ وأجلس من ثمَّ بضع ساعات أسفل القماش المخطط باللونين الأزرق والأبيض أو المخطط باللونين الأحمر والأبيض وأقرأ كتابًا أو صحيفة أو أنظر ببساطة فقط إلى البحر والسفن وكنت أحيانًا أخلد إلى النوم بينما ما زلت أسمع في أحلامي الصرخات الرتيبة لطيور النورس

لكن في المساء كنت أذهب دائمًا إلى حاجز الأمواج الغربي.

وحسب الطريقة التي كنت أجلس بها، كنت أستطيع أن أرى من مقعدي الشاطئ، الذي كان يمتد حتى فندق «نبيتون» الأبيض وبعد ذلك أيضًا، وميناء اليخوت –وهو الميناء الأصغر لرحلات البواخر والجولات في الميناء– وبالطبع الفنار الذي كان يسمو فوق منازل المدينة القديمة. لكن في أغلب الأوقات، كنت أنظر إلى عرض البحر أو إلى القناة التي كان اسمها «تيار كبير»، وإلى السفن الكثيرة التي كانت تشق البحر انطلاقًا من هناك. لم أكن خبيرًا في الأمور البحرية؛ إذ ترجع نشأتي إلى منطقة داخل البلاد ذات المياه الضحلة لكن هواء البحر كان له أثر طيب بالنسبة لي؛ فقد كنت أريد الاستشفاء وكنت أنوي أن أبقى بضعة أسابيع في المدينة الصغيرة المطلة على البحر. كل بضعة أيام، كانت إحدى هذه السفن السياحية الضخمة تسير ببطء شديد من الميناء عبر قناة «التيار الكبير» باتجاه عرض البحر وكانت ترافقها عندئذ سفن الإرشاد البحري الصغيرة.

عندئذ كان السياح يقفون على الضفاف. وكان المسافرون يقفون بشكلٍ أكثر كثافة وعددًا على متن السفن السياحية ويلوحون بأيديهم ويركضون على متن السفن ونحو سور السفن، وكان بعضهم يلتقط صورًا للنزهة، وكان الكثير من المصطافين أيضًا يلتقطون صورًا للسفينة الضخمة بكاميراتهم أو بأجهزة هواتفهم المحمولة.

استغرقتُ في النوم ذات مرة على مقعدي؛ لا بدَّ أنني كنت مُتعَبًا بشدة في هذا الوقت، ولم أفِق إلا في جوف الليل. ارتديتُ سترتي التي كنت قد غطيت بها المسند من خلفي. أصدر الفنار الصغير عند طرف حاجز الأمواج الغربي وميضًا. كما أرسل الفنار الكبير من خلفي أشعته في الليل. أغلقتُ سوستة سترتي ونظرتُ إلى البحر واستطعتُ أن أرى من مسافة بعيدة أضواء الشاحنات. وباتجاه الساحل نحو الأسفل كانت

هناك مدينة أكبر، بها ميناء للحاويات. وكنتُ أرى من حجرتي في الفندق أيضًا السفن في الأفق ليلًا.

«قديمًا كانت المياه هنا أقل» قالها شخص ما بجواري. لم أشعر بالفزع أو أنني شعرت بالفزع قليلًا فحسب؛ لأن الصوت كان منخفضًا جدًّا. وعلى مقعدٍ آخر، كان على بعد مسافة متر أو مترين فحسب، كان هناك شخص ما يجلس. استدرتُ نحو الرجل، الذي استطعت بالكاد أن أراه بسبب الظلام -الذي أوشك أن يحل- على الرغم من أن أشعة كلا الفنارين كانت تضيء الليل أعلى حاجز الأمواج الغربي بعض الشيء. بدا أنه كان رجلًا عجوزًا؛ فشعره كان رماديًّا أو أبيض، كما أن صوته كان عجوزًا ومتثاقلًا.

قال: «أعرف أنه ربما يكون وقع هذا الأمر غريبًا على الرغم من أننا نجلس إلى البحر. لكن في ما سبق كانت قناة «التيار الكبير» أضيق بكثير وهناك في تلك الناحية كانت أرض يابسة».

رأيت كيف رفع ذراعه وأشار باتجاه حاجز الأمواج الشرقي. عند طرف حاجز الأمواج الشرقي، كان هناك فنار آخر صغير. كنت قد رأيته نهارًا، أثناء نزهاتي، بضع مرات.

«هل تقصد هناك حيث يوجد الفنار الصغير؟» تساءلت واقتربت على مقعدي أكثر من الرجل العجوز واتكأت على المسند الجانبي وكان هو أيضًا قد تزحزح إلى طرف مقعده؛ فأصبحنا نجلس أكثر التصاقًا بعضنا بجوار بعض.

«إشارة ضوئية للحاجز الشرقي للأمواج» قالها الرجل العجوز مستدركًا حديثه وأضاف: «ليست فنارًا بالمعنى الحقيقي».

«وهل كان شيء هناك في تلك الناحية أرضًا يابسة؟» لم أفهم ماذا كان

يقصد وماذا كان يريد، في جوف الليل. ربما كنت أستطيع ببساطة أن أنهض واقفًا وأنصرف؛ كنت مُتعَبًا وفي هذا الوقت كنت أجلس في أغلب الأحوال في شرفة غرفتي في الفندق وأحتسي كأسًا من نبيذ «شنابس» من الثلاجة الصغيرة وأصوب بصري نحو السماء أعلى البحر والتي لم تصبح معتمة تمامًا أبدًا؛ كانت النجوم هي السبب في هذا بالتأكيد... لكنني كنت أريد أن أعرف بأي طريقة ماذا كان يقصد الرجل العجوز بحديثه وماذا كان يريد أن يحكي لي. وكنت وحدي في المدينة الصغيرة المطلة على البحر؛ لم يكن أحد ينتظرني.

قال الرجل العجوز: «يمينًا خلف حاجز الأمواج الشرقي، باتجاه البحر، لا يوجد هناك الآن سوى جزيرة واحدة وهناك تعشش الآن الطيور لكن في ما سبق كان قطارنا يسير هناك».

«قطارنا» كرَّرتها ورأيت كيف أومأ برأسه. «كنا نسير بمحاذاة الشاطئ مباشرة وندخل بعد ذلك مسافة قليلة إلى داخل اليابسة حيث حفرة المستنقع وهي ما زالت موجودةً اليوم».

قلت: «أي إنه كان مثل قطارات شركة «بيدربان»». كنت قد مضيت في طريقي إلى المدينة الصغيرة عبر مسبح «دوبيران» وهناك كان يسير قطار بالبخار، وهو قطار كان يسير على قضبان سكك حديد ضيقة وكانوا يطلقون عليه اسم «دير موللي» وكان يسير بين المنازل وبمحاذاتها وأعلى منتجع «هايليجيندام» ويواصل سيره حتى البحر.

«لا، لا» قالها الرجل العجوز وزاد من انحنائه فوق المسند الجانبي لمقعده متجهًا نحوي: «ليس مثل قطار «دير موللي». قطار الشاطئ. كان قطار شاطئنا».

عندما قال الرجل العجوز هذه العبارة «كان قطار شاطئنا»، جعل

ضوء إشارة الفنار الكبير وجهه مضيئًا للحظة. كان في الحقيقة رجلًا عجوزًا للغاية ذا وجه عجوز به تجاعيد وحاجبان أشعثان لونهما أبيض يقعان أسفل جبينه المُجعَّد. لكن عينيه -اللتين نظرت إليهما في هذه اللحظة المضيئة، أي عندما خيم شعاع ضوء الفنار على حاجز الأمواج وأخذ يشير مرارًا وتكرارًا إلى البحر ولمس الماء هناك في موضعٍ ما- كانتا يقظتين للغاية وشابتين أو على الأقل بدا لي الأمر هكذا. وفي وقتٍ لاحق، عندما أصبحت أقف في شرفة غرفتي، دار برأسي أن ما أضاء في عينيه هناك هو ذكرى شبابه فقط أو فلنقل: الفترة التي كان فيها أصغر سنًّا.

صمت واتكأ إلى المسند الجانبي لمقعده.

«أي نوع من القطارات كان قطار الشاطئ هذا إذًا؟» تساءلت؛ لأن الرجل العجوز ما زال صامتًا وكان قد نسيني على ما يبدو. أصبح حاجز الأمواج عندئذ شبه مظلم من جديد وكاد البحر أن يصبح أسود اللون أمامنا. تحركت الإشارة الضوئية للفنار بعيدًا عنا في مناطق أخرى من الليل.

«كنا نسير بالطاقة الكهربائية». قالها الرجل العجوز عندما كنت أظن بالفعل أنه قد غفا. وفي أثناء ذلك، كانت عيناه لا تزالان... «هناك في تلك الناحية كان يوجد مخزننا. أظن في بعض الأحيان أنه أصبح الآن في قاع البحر لكنهم هدموه بالفعل قبل وقتٍ طويل. قبل أن يحفروا قناة «التيار الكبير» بوقتٍ طويل. كان قطار شاطئنا في الحقيقة مثل الترام».

قلت: «ترام على البحر».

قال: «أجل، ترام على البحر» وظننتُ لوهلة أنني رأيت كيف ابتسم.

«لا، لا» قالها بعد ذلك فجأة بصوتٍ أعلى قليلًا ونهض واقفًا وجلس من جديد. «ليس ترامًا، إنما قطار شاطئ».

«لكنك محق» قالها بعد لحظة وتحدث من جديد بصوتٍ منخفض مثلما كان يفعل قبل دقائق قليلة عندما كان قد بدأ يحكي بجواري. «انتهى المطاف ببعض سياراتنا القديمة إلى الترام، في مكانٍ ما، بعد أن انتهى الأمر هنا. وأظن حتى أن أحدهم نجح في الوصول آنذاك حتى «نورنبرج»، أي إلى الغرب الذهبي. لكن كان لدينا أيضًا عربات قطار خاصة، عربات صيفية مفتوحة حتى البحر».

«هل كنت تعمل هناك أي لدى قطار الشاطئ؟».

قال: «أجل، في المكان الذي يوجد فيه البحر الآن والذي توجد فيه جزيرة الطيور، هناك كان يوجد مخزننا وهناك كانت تبدأ رحلتنا. دائمًا بمحاذاة الشاطئ. هناك، في المكان الذي يوجد فيه البحر الآن».

«ومتى... متى اختفى إذًا؟ أقصد قطارك». لم أعرف السبب وأخذت أفكر لوقتٍ طويل في هذا الأمر في شرفة غرفتي في الفندق حيث كنت أجلس وأحتسي كأسًا من نبيذ «شنابس» من الثلاجة الصغيرة حتى أصبحت السماء مضيئة شيئًا فشيئًا وأصبح لون البحر معها أسود ورماديًّا وأزرق داكنًا وازداد سطوعًا... لم أعرف السبب لكنني شعرت أن هناك شيئًا ما، كان يريد أن يحكيه لي أكثر من عربة قطار الشاطئ الصيفية المفتوحة حتى الشاطئ، أن هناك شيئًا أكثر من القطار المختفي وقناة «التيار» المحفورة والتي تسير خلالها الآن السفن السياحية باتجاه البحر. وفي بعض الأحيان، كانت السفن السياحية ترجع أيضًا وتمضي عبر قناة «التيار» نحو الميناء. وبعد ذلك أيضًا كانت أسطح السفن تمتلئ بالناس الذين يلوِّحون بأيديهم ويسيرون في فوضى وتمتلئ أفكارهم بالبلاد الأجنبية التي كانوا قد شاهدوها.

قال العجوز: «كنا نسير بمحاذاة الشاطئ مباشرة، وأنا كنت أصغر سائق لقاطرة ترام. ما زالت حفرة المستنقع موجودة اليوم. وما زال

المطعم الصغير المطل على مرج المستنقع موجودًا اليوم. لكنه مبنى آخر. هناك كانت رحلتنا تنتهي. نحن...». صمت ووقف وظل واقفًا. «في الكثبان الخضراء -قريبًا جدًّا من مخزننا- كان يوجد مطار. «مدرسة التدريب على الطيران التابعة للسلاح الجوي». لم يعد أحد يعرف هذا».

مضى باتجاه المدينة القديمة ومضيت أنا إلى فندقي. كان قد قال أيضًا: «أنا أتواجد هنا دائمًا. أجلس كل مساء هنا».

«أنا أيضًا» وددت أن أجيب بها لكنني لم أكن أدري هل سيكون هذا أمرًا صحيحًا على الرغم من أنني كنت أعرف أنني سوف أشاهد الرجل العجوز مرة أخرى، هو وقطار شاطئه وحكايته. اختفى خلف الفنار، في موضعٍ ما من الشوارع الضيقة وأزقة المدينة القديمة. وعندما أشرقت الشمس بعد ذلك، كنت أجلس في مقعد وثير، كنت قد أزحته من غرفتي في الفندق إلى الشرفة، حاولت أن أرى جزيرة الطيور وشاهدت الفنار أمام منازل المدينة القديمة والإشارات الضوئية على حواجز الأمواج واستغرقت في النوم.

وفي الحلم، رأيت أنني كنت في عربة قطار الشاطئ الصيفية والذي لم يسبق لي قبل ذلك أبدًا أن سمعت عنه... وكانت طيور النورس ترفرف حول العربة الصيفية المفتوحة وتترقب بقايا الطعام وقد ألقى بعض الأطفال قطع خبز في الهواء وضحكوا عندما تصارعت طيور النورس عليها وهي تحلق طائرة. وبعد ذلك أصبحتُ واقفًا فجأة في محطة ما ولم أستطع حتى أن أتذكر أنني نزلت من العربة. لكن هكذا يكون الأمر أحيانًا في الأحلام ومرَّ بي قطار الشاطئ ولوهلة رأيت الرجل العجوز يقف في كابينة القيادة خلف ذراع القيادة وبجواره فتى صغير وفتاة يتكأن عليه. لكن قبل أن أتمكن من أن أرى بدقة، مضى القطار ببساطة إلى داخل الأمواج وامتدت القضبان إلى البحر.

قال الرجل العجوز: «من الذي يريد أن يتذكر هذا الأمر أيضًا؛ بعد الحرب اختفى هذا كله».

جلسنا من جديد عند سفح حاجز الأمواج الغربي. لم يكن الرجل العجوز قد لفت انتباهي أبدًا حتى الليلة الماضية.

لكن كانت لديَّ أفكار أخرى أيضًا؛ إذ كنت قد أتيتُ إلى المدينة الصغيرة المطلة على البحر لكي أستجم وأنسى كل البذاءات التي سبق وأن تركتها من خلفي ومضيت.

سألت: «هل تعرض عندئذ للتدمير، أقصد القطار؟». كان ضوء النهار ما زال موجودًا لكن البحر بدأ يتلوَّن بالفعل باللون الأحمر وقد جمع بعض المصطافين أغطيتهم ومتاعهم بالأسفل على الشاطئ. كان الرجل العجوز يحمل سترة جلدية بالية؛ كانت واحدة من السترات التي كان يُطلق عليها في الماضي سترات "تيلمان».

«تدمير؟» نظر الرجل العجوز نحوي وبدا أنه يمعن التفكير وقال: «لا، في ما عدا الإصابة الثقيلة الواحدة...» أومأ برأسه وسار بيده على وجهه وبعد ذلك على شعره الأبيض القصير.

«ولماذا...».

«لقد فكك الروس كل شيء. ومن ذا الذي كان يحتاج قطار شاطئ في السنوات الصعبة».

«كم كان عمرك عندئذ؟» سألته وأضفت سريعًا: «لو كان من حقي أن أسأل...».

قال الرجل العجوز: «أنت شاب مهذب»، ورأيت كيف ابتسم «كان يجدر بك أن تسأل كم عمري اليوم...».

قلت: «عمري اثنان وأربعون عامًا وأشعر أنني لست شابًّا في هذه اللحظة. لا بدَّ أنك كنت ما زلت طفلًا عندئذ، أي قبل... خمسة وستين أو ستة وستين عامًا».

قال الرجل العجوز: «شكرًا، لكنني كنت بالفعل شابًّا آنذاك، شابًّا. في السابعة عشرة من عمري. كان هذا عام ألف وتسعمئة وأربعة أربعين وألف وتسعمئة وخمسة وأربعين، كنت كبيرًا بما فيه الكفاية لأن... لكن كان من الضروري أن يقود شخص ما القطار. وكان الرجال جميعًا قد أُرسِلوا إلى جبهة الحرب. وترقيت أنا من شخص تحت التدريب إلى سائق قاطرة ترام. كنا في أغلب الأوقات ننقل فقط الجنود إلى «مدرسة التدريب على الطيران». أو من «مدرسة التدريب على الطيران» إلى «هايديشينكه». كان هناك القليل من المصطافين آنذاك. ولم يكن الشتاء ينتهي. ربما يكون وقع هذا الأمر غريبًا لكن هذا الوقت كان أسعد أوقات حياتي».

«على الرغم من الحرب؟».

قال: «أجل، على الرغم من الحرب أيها الشاب» وشعرت على الفور بالخجل من سؤالي. فماذا يدريني بهذا الأمر فعلًا. لكن راودني الشعور أنني ربما يجب أن أطرح عليه أسئلة لكي يواصل حديثه ولكي تتواصل حكايته التي كان قد بدأها في المساء السابق.

«هل كان السبب أنك ترقيت؟».

«آه، ما معنى ترقيت! كنت أقود القطار ببساطة. قطار شاطئنا. وقد حصل ابن عمي الصغير على الزي الرسمي الموحد لمحصل التذاكر وكان يثقب تذاكر السفر. «كارلي» هذا...».

«اسم جميل».

«أجل، في الحقيقة كان اسمه «كارلمان» لكننا كنا دائمًا نطلق عليه «كارلي» فقط. أتعرف أن الأمر الغريب هو أنني أفكر كثيرًا أن الصيف كان موجودًا دائمًا آنذاك، في كل الأسابيع، التي كنا نقضيها سويًّا في قطار الشاطئ، «كارلي» وأنا و... هي، في أواخر الصيف مثل الحال الآن».

استنشق الرجل العجوز الهواء بعمق كأنه سيستطيع أن يشم رائحة أواخر الصيف هذا.

قلت: «الفتاة».

قال: «أجل، الفتاة». غربت الشمس الآن واكتست كتل السحب والبحر بلونٍ أحمر. وكنت قد أخذت في الأمسيات السابقة ألقي نظرة إلى هذا اللونٍ الأحمر الذي ازدادت قتامته وربما يكون هذا هو سبب أنني لم ألتفت قبل ذلك إلى الرجل العجوز الجالس على المقعد المجاور.

«لقد جاءت مع تيارات المهاجرين من الشرق». بدأ الرجل العجوز يحكي من جديد.

لم أعرف كم من الوقت صمتنا وأخذنا ننظر ببساطة إلى البحر والسماء وحدهما. وفجأة لم أعد متأكدًا متى كانت أول مرة ذكر فيها هذه الفتاة في حكايته. كانا يسافران بقطار الشاطئ وكانت السماء في الشرق متوهجة بلونٍ أحمر لكن هذا لم يكن غروب الشمس، وكان «كارلي» ابن عمه الصغير يركض مرتديًا الزي الرسمي الموحد لمحصل التذاكر –والذي كان فضفاضًا عليه للغاية– عبر عربات قطار الشاطئ، التي كادت أن تصبح فارغة، وكان الرجل العجوز يجلس في كابينة القيادة ويلف ذراع القيادة الكبير وكانت هي تجلس خلفه وتنظر من فوق كتفه نحو الطريق الممتد أمامهما. الشتاء والثلج والسماء فوق البحر مثلما يحدث في أواخر الصيف.

«لقد جاءت مع تيارات المهاجرين من الشرق. دون والديها. لم أسألها أبدًا عما جرى أثناء الرحلة. كانت تعيش لدى «كارلي» وقد أحضرها «كارلي» معه ذات يوم».

«كم كان عمر «كارلي» آنذاك؟».

«آه، يجب عليَّ أن أتدبر هذا الأمر قليلًا... أحد عشر عامًا أو اثنا عشر عامًا. أظن أن «كارلي» كان في الثانية عشرة من عمره آنذاك. أجل. كان لدى والديه مزرعة قبالة المدينة. وهناك كان اللاجئون يجدون مأوى لهم».

«وكم كان عمرها هي؟».

«كانت في مثل عمري. حتى إن عيدي ميلادنا كانا في الشهر نفسه».

وددت أن أسأله أي شهر كان هذا الشهر إذًا لكنني عدلت عن ذلك.

«وهل حدث هذا كله قبل قليل من نهاية الحرب؟».

«نعم. لا. لقد استمرت الحرب طويلًا. كانت هذه الشهور الأخيرة طويلة للغاية. في بادئ الأمر اختفى الرجال وكان مسموحًا لي أن أقود قطار شاطئنا. وأصبح «كارلي» محصلًا للتذاكر. وبعد ذلك جاءت تيارات المهاجرين من الشرق. ومع تيارات المهاجرين جاءت هي».

ووددت أن أسأل الرجل العجوز ما اسمها لكنني كنت أعرف أنه لا يجوز لي أن أسأله وأنه يجب عليَّ أن أنتظر حتى يقول هو اسمها.

«كنت أحب «كارلي» كثيرًا. ليس لديَّ إخوة. فقد مات والدي قبل الحرب بالفعل وكان والد «كارلي» شقيق والدي. وكان «كارلي» كأنه شقيقي الصغير. أجل».

بدأ الفنار الكبير، الذي كان يسمو فوق منازل المدينة القديمة، يلقي بضوئه إلى المساء، الذي أصبح أكثر عتمة، إلى الليل. وأصدرت كلتا الإشارتين الضوئيتين وميضًا، إحداهما أمامنا، أي عند قمة حاجز الأمواج الغربي، ورأينا الإشارة الضوئية الأخرى في حاجز الأمواج الشرقي على مسافة بعيدة فوق الماء، هناك، حيث كان قطار الشاطئ يسير في أوقاتٍ سابقة. أخرج الرجل العجوز كيسًا مربوطًا من أحد جيوب سترة «تيلمان» التي كان يرتديها وفتحه. أخرج قصاصة صغيرة من ورق لف السجائر ووضعها على ساقه وفتت قليلًا من التبغ من الكيس الجلدي على قصاصة الورق. لكنه لم ينجح في أن يلف لنفسه هذه السيجارة؛ لأن قليلًا من الرياح قد هبَّت. وبعد أن حاول أن يلفها عدة مرات، نهضت واقفًا وقلت: «يمكنني بكل سرور أن أفعل هذا من أجلك».

«هذا أمر لطيف للغاية أيها الشاب». قالها وتناولت أنا التبغ وقصاصة الورق الصغيرة والتفت عكس اتجاه الريح ولففت له السيجارة. وبينما كنت ألفها، أخذت أفكر قليلًا وأحسب كم عمره الآن بالتأكيد إذا كان عمره آنذاك –أي في عام ألف وتسعمئة وأربعة وأربعين أو ألف وتسعمئة وخمسة وأربعين– سبعة عشر عامًا. لا، إنه لم يكن يبدو طاعنًا في السن هكذا؛ لكننا لم نكن نلتقي دائمًا سوى في ضوء الفنارين وضوء النهار المتلاشي. كان التبغ الموجود في الكيس الجلدي جافًّا ومُفتتًا جدًّا. على الأرجح أنه كان يدخن قليلًا جدًّا ولم يسبق لي أنا أيضًا أن رأيته يدخن؛ لكننا لم نتعرف بعضنا على بعض سوى قبل مساء وليلة.

ناولته السيجارة وأخرج هو ولاعة سجائر معدنية كبيرة من أحد جيوب سترته. أضاء لهب النيران وجهه. رأيت أن معدن الولاعة كان به صدأ. أخذ الرجل يسعل.

«كنا نجلس سويًّا في كابينة قيادته وندخن وأمامنا الطريق. كنا في

أغلب الأوقات نقتسم سيجارة واحدة وكانت هي تدسها بين شفتيّ؛ فقد كنت مضطرًّا لأن أقود القطار. كنا ندخن كلنا آنذاك ونحن سبعة عشر عامًا. ولم يكن الشتاء يريد أن ينتهي لكن ما أتذكره أننا كنا في أواخر الصيف من جديد. كنت أسميها دائمًا «إيرمشين». كان هذا يذكرني بحشرة من حشرات الخنافس المضيئة. أتعرف إحدى هذه الحشرات، اسمها «إيرمشين»».

«لم يسبق لي أن سمعت بهذا أبدًا، أي باسم «إيرمشين»».

«لا، لقد كان مجرد اسم تدليل. طيري أيتها الدودة المتوهجة الصغيرة، طيري...». أخذ يغني هذه العبارات الأخيرة ويدندن بصوتٍ منخفض على أنغام لحنٍ ما. «طيري أيتها الدودة المتوهجة الصغيرة... كان اسمها «إيرما». وقد جاءت مع أحد تيارات المهاجرين من الشرق».

وعندما جلستُ بعد ذلك في شرفة غرفتي في الفندق، حاولت أن أتخيلها، «إيرمشين» هذه، بالطريقة التي كان قد حكى لي بها عنها.

«كان شعرها يصل إلى كتفيها وكان داكنًا. بني اللون. وكانت تستطيع أن تركض، يا إلهي. عندما كنا على الشاطئ كان هناك ثلج بالتأكيد وكانت هي تمضي دائمًا نحو الأمام. وكنت ألحق بها بالكاد. لم يكن جسدها ضخمًا لكنني كنت أضخم آنذاك بكثير مما أنا عليه اليوم، صدقني. كانت في بعض الأحيان تربط شعرها على هيئة ضفيرتين وكان هذا يعجبني كثيرًا. ضفيرتاها. ما اسم هذا؟ الأهداب؟ أقصد أسفل الضفائر. كنت أتناولها كأنها فرشاة وأمسح بها على وجهها. وكنت أدغدغ بها أنفها؛ لأنني كنت أريد أن أجعلها تضحك. أتذكر كثيرًا أنفها. على الأرجح يبدو وقع هذا الأمر غريبًا. لكنني رجل عجوز».

«لا، إن وقع هذا الأمر ليس بغريب».

«كان أنفها رفيعًا وكان مُعوَّجًا قليلًا، بعض الشيء نحو اليسار، بعض الشيء فقط، كيف ينبغي أن أقول هذا الأمر...».

رأيتُ كيف حرك يده في الهواء ببطء تام وحذر على بعد مسافة بسيطة أمام وجهه. كان يمسك في يده الأخرى بالسيجارة التي كنت قد لففتها له. كانت السيجارة قد انطفأت لكن يبدو أنه لم يلحظ هذا ولم يعد أيضًا يأخذ نفسًا منها وبعد ذلك بقليل تركها تهوي على الأرض ببساطة.

«كانت تستطيع أن تنظر بصرامة شديدة ثم تقطب بعد ذلك جبينها فيتجعد وتتأفف وتضيق عينيها لكن عندما كانت تضحك... كان هذا يحدث نادرًا لكنها كانت لا تتمالك نفسها أن تسخر من «كارلي». كان هذا أمرًا جيدًا. فـ«كارلي» كان مهرجًا. كان دائمًا في رحلات بالقطار وهو يرتدي زيه الرسمي الذي كان فضفاضًا عليه للغاية. كان الجنود وتلاميذ مدرسة الطيران جميعًا يحبونه. فكانوا يدسون له الشوكولاتة. وكنا نأكلها سويًّا بعد ذلك. في المخزن أو على الشاطئ. لا بدَّ أنه كان هناك الكثير من الثلج آنذاك. وكانت تستطيع أن تركض، يا إلهي. كنا في أغلب الأوقات نفارق «كارلي»، على الشاطئ أو في الثلج، وعندئذ كان يشعر بالغضب. على الرغم من أنه كان يمدنا دائمًا بالسجائر، من الجنود. من أجل «إيرما» ومن أجلي. كان يستطيع بالإقناع أن يحصل من الجنود وتلاميذ مدرسة الطيران على كل شيء تقريبًا. فببساطة لم يكن أحد يستطيع أن يغضب منه».

وألقيت نظرة من شرفتي على الشاطئ المغطى بالثلوج ورأيت «كارلمان» الصغير بين الكثبان البيضاء وبعيدًا جدًّا رأيت الرجل العجوز، عندما كان شابًّا، وبصحبته «إيرمشين». ونقطتان فقط لونهما أسود أمام بياض الثلج وأمام اللون الرمادي للبحر.

عدت من جديد إلى الغرفة واتصلت هاتفيًّا بزوجتي. كنت في كثير من

الأوقات أتصل بها في الليل بعد أن أحتسي كأسًا من نبيذ «شنابس» من الثلاجة الصغيرة وكنت أسمع صوتها مرارًا وتكرارًا في البريد الصوتي. وكنت أعرف في كل مرة أنها لن ترد على المكالمات.

وبعد ذلك أصدر هاتفي صوت أزيز عند حاجز الأمواج، من خلفي، لأنني كنت قد طويت سترتي ودسستها بين المسند والظهر.

تساءل الرجل العجوز: «ما هذا؟».

قلت: «شخص ما يتصل بي هاتفيًّا».

«هنا؟» تساءل الرجل مندهشًا وبدا أنه أخذ يتذكر بعد ذلك من جديد في أي زمن هو وتساءل: «ألا تريد أن ترد على الهاتف؟».

قلت: «لا، في الحقيقة لا».

قال الرجل العجوز: «أتخيل في بعض الأحيان لو كانت لدينا آنذاك هذه الإمكانيات. أن نتصل هاتفيًّا بعضنا ببعض ببساطة هكذا. مهما كنت بعيدًا. ومهما جرى».

«هذا الأمر ليس متحققًا اليوم أيضًا» قلتها وشعرت في ظهري كيف أصبح الهاتف صامتًا.

لم ألقِ نظرة لأتحقق من الذي كان قد اتصل بي هاتفيًّا إلا في غرفة الفندق. لكنه كان أحد أصدقائي القدامي فحسب. لم يكن أحد يعرف أنني كنت بالأعلى على الشاطئ.

كنت دائمًا أترك الباب المؤدي للشرفة مفتوحًا عندما كنت أذهب إلى الفراش؛ إذ كنت أخلد إلى النوم بصورة أسرع عندما كنت أسمع صوت البحر.

ومن جديد مضى قطار الشاطئ عبر أحلامي. كانت خطوطه الهوائية متجمدة وكانت هناك صواعق برق كهربائية تخشخش بين الخطوط الهوائية ومجمع التيار الكهربائي على سطح قطار الشاطئ. كان ثلاثتهم عندئذ في عربات القطار الخاوية. «كارلي» والرجل العجوز وهي. والأمر الغريب أنه ظل عجوزًا دائمًا في الحلم. بدا جسده أكبر قليلًا وبدا أقوى لكن وجهه كان عجوزًا. مضوا في العربة الصيفية المفتوحة وسرى الريح باردًا بيننا محدثًا صوت صفير. ولأنني أنا أيضًا أصبحت هناك عندئذ، في القطار الصيفي، فلم أعد أراه من الخارج مثلما يمكن للإنسان أن يراقب ويرى كل شيء في الأحلام هكذا كأن الإنسان موجود في كل مكان. وكنت قد صعدت إلى قطار الشاطئ من إحدى المحطات، لافتة عند المحطة وبها جدول مواعيد السفر موضوعة في رمال الشاطئ، وأصبحت عندئذ أجلس في أقصى نهاية العربة وأخذت أراقب الثلاثة. وكانت هي تجلس تارةً خلفه وبعد ذلك بجواره في كابينة القيادة وكان «كارلمان» الصغير يركض في العربة وقد رفع أكمام زيه الرسمي، الذي كان فضفاضًا عليه للغاية، وكان يحكي شيئًا ما، نكات وأقوالًا مأثورة، والتي كان هو نفسه يضحك عليها دونما انقطاع. سجائر وشوكولاتة. أومأ لي بعينه من أسفل حافة القلنسوة الأمامية الزرقاء «التذاكر من فضلك، تذاكرك من فضلك!» وبعد ذلك ركض عبر عربة قطار الشاطئ وتظاهر كأنه لا يستطيع أن يرى أي شيء من أسفل القلنسوة وكأنه سيصطدم بكل مقعد من المقاعد وبعد ذلك تعثرت خطاه مرة أخرى واستطعت أن أسمع صوت ضحكه.

«هل تعرف لماذا أتذكر هذا الأمر بدقة هكذا؟».

سألت: «أي أمر؟». جلسنا من جديد عند حاجز الأمواج أم أننا ظللنا هناك؟ أمطرت السماء رذاذًا وكانت ملبدة بالغيوم التي كانت تتحرك في مجموعات متكتلة وتتخذ أشكالًا موحشة أعلى البحر على الرغم من أنه كان من الصعب هنا الشعور بالرياح. أخذت الغيوم تتفرق بعضها

عن بعض مرارًا وتكرارًا ورأينا بعد ذلك غروب الشمس. لا، لقد انتهى غروب الشمس منذ وقت طويل بالفعل لكن ضوءه ما زال موجودًا وسط الظلام. وكانت هناك أضواء صفراء وحمراء للسفن أسفل الغيوم، بعيدًا بالخارج، والتي كانت تتحرك تارة هنا وتارة هناك وتصبح بعد ذلك مرة أخرى في مكانٍ آخر.

«أمر أن أنفها كان به هذا الانحناء البسيط نحو اليسار...».

«لأنك...».

قال الرجل العجوز: «لأن قلبها كان هناك. يشعر الإنسان بأمرٍ كهذا ويرى كيف يدق القلب. لو أن الإنسان... يبدو وقع هذا الأمر غريبًا بالتأكيد بالنسبة لك...».

«لا، إن وقعه ليس كذلك».

«... كأن هذا الانحناء البسيط نحو اليسار يشير إلى ذلك. إلى ثديها الأيسر. هل أنت تتذكر الآن، أي في هذه اللحظة، أنف زوجتك بشكل دقيق؟ وكيف يدق قلبها... هل تشعر بهذا؟ وهل تتذكر كل هذه الأشياء الصغيرة؟».

وددت أن أقول: «لا، لا أعرف هذا». وددت أن أقولها لكنني صمت.

«يجب عليَّ أن أعتذر». قالها الرجل العجوز وأصبح صوته أكثر انخفاضًا وهدوءًا من جديد وأضاف: «لقد أصبحت فظيعًا وعاطفيًّا».

قلت «سأكون أنا أيضًا هكذا على الأرجح، بعد سنوات كثيرة هكذا».

أومأ الرجل العجوز برأسه. ولم أرَ إلا عندئذ أنه كان يحمل الولاعة الصدئة في يده اليسرى. سحب غطاء السدادة لأسفل وسحبها لأعلى مرة أخرى، أغلقها وفتحها لكن الولاعة كانت قد أصبحت على الأرجح مبلولة

بسبب رذاذ المطر الذي كان قد بدأ يتساقط قبل بضع دقائق.

قال: «كان «كارلي» ابن عمي قد أحضرها معه. وأصبحت هي فجأة هنا». لكنني كنت أعرف هذا بالفعل.

ازداد صمته في مسائنا الثالث. وقبل أن يحكي عن أنفها وأفكاره حول أنفها وذكرياته عن أنفها وضفائرها، كنا قد جلسنا لوقتٍ طويل صامتين في مقعدنا.

كنا قد رفعنا ياقات ستراتنا لأعلى وأصبح جلد سترته «تيلمان» البني الداكن لامعًا بسبب الأمطار لكن بعد ذلك هدأت الأمطار وتوقفت من ثمَّ تمامًا.

تساءل: «وماذا تفعل أنت هنا عند البحر في الحقيقة؟». كان لا يزال يحمل الولاعة في يده وبدا وقع حديثه كأنه سيخرج ببطء تام مرة أخرى من ماضيه، أي من هذه الرحلات الأخيرة لقطار شاطئه.

قلت: «مجرد عطلة للاستجمام قليلًا».

«لقد حكيت لك أشياء كثيرة بالفعل، أليس كذلك؟».

قلت: «أجل، عن حشرة الخنفسة المضيئة».

وعندما رأيت في الليل حلمًا عن قطار الشاطئ –وكان باب الشرفة مفتوحًا كالمعتاد وقبل أن أستغرق في النوم كنت قد سمعت صوت زوجتي في البريد الصوتي وكنت أفتقدها للغاية– كنا نمضي جميعًا بقطار الشاطئ وسط تيارات المهاجرين الكبيرة، التي سبق وأن حكى لي عنها، لكن بدا أن تلك التيارات لم تكن تلاحظنا بتاتًا، ربما لأننا كنا نسير في الاتجاه الذي كانوا يأتون منه، رجال ونساء وأطفال، أطفال كثيرة جدًّا، في عربات تجرها الخيول وفي عربات يدوية وسيرًا على الأقدام. وكان قطار الشاطئ،

الذي بدا مثل ترام كهربائي، يسير باتجاههم وكان الرجل العجوز يلف ذراع القيادة الكبير في كابينة القيادة وكانت هي تقف بجواره وقد ضمت جسدها إليه وتشبثت بكتفه بينما كانت تنظر لتيارات الهاربين والذين كانت هي نفسها قد جاءت معهم. وكان «كارلمان» الصغير نفسه ينظر بصمت من النافذة مرتديًا الزي الرسمي لمحصل التذاكر، بالخلف في العربة، بينما أخذت تيارات المهاجرين تتحرك وسط الثلوج باتجاه المدينة وبينما ظلت الثلوج تنهمر وتنهمر. كان البحر رماديًّا وكانت كتل الجليد الطافي تتحرك على الماء. وقد خلَّفت العربات –التي كان الأطفال والنساء العجائز يجلسون فيها بين الخزانات الخشبية ذات الأدراج ومتاع المنزل– آثارًا في الثلج، بدت مثل خطوط قضبان سكك حديدية خارجة عن خط قضبان سكتنا الحديدية حتى غطاها الثلج المتساقط من جديد. كنت أجلس في قطار الشاطئ وأضع ذراعي حول زوجتي، وددت أن أضع ذراعي حولها لكن المكان بجواري كان خاويًا. ورأيت عبر الألواح الزجاجية المتجمدة فتى وفتاة يعدوان بمحاذاة الشاطئ ويقذفان بعضهما بعضًا بكرات الثلج.

قال الرجل العجوز: «وكم كانت تستطيع أن تركض وكنت ألحق بها بالكاد عندما كنا نتنزه على الشاطئ وكانت تبدأ فجأة في السير بخطوات كبيرة وإيقاع سريع، نحو الأمام وتبتعد، فكنت أضطر لأن أعدو لكي ألحق بها من جديد. سقطنا في الثلج، استلقينا في الثلج، عانقنا بعضنا بعضًا في الثلج. وشعرنا بالدفء في مخزن قطار شاطئنا؛ فهناك كانت توجد مدفأة حديدية أسطوانية. ابتسم «كارلي» الصغير ابتسامة عريضة لكنه تركنا وحدنا. ذات مرة استغرقت في النوم وكان لدينا هناك مضجع، في المخزن، بجوار المدفأة، وكنا نستريح هناك في بعض الأحيان. وذات مرة استغرقت في النوم على المضجع وعندما استيقظت مرة أخرى، كانت تقف أعلاي وقالت: أنت تبدو مثل جثة؛ إنهم يثنون أجسادهم هكذا أيضًا. ولم

أسألها من أين عرفت هذا. لم يسبق لي أبدًا أن رأيت جثة من مسافة قريبة على الرغم من أن القنابل كانت تسقط وجبهة الحرب كانت تقترب أكثر فأكثر. كنت أقود قطار شاطئنا. وكانت دائمًا تجلس معي في العربة. وددت أن تبقى، وددت أن أبقى دائمًا بجوارها».

صمت وأومأ برأسه عدة مرات، هل كان يرتعش؟ كان رجلًا عجوزًا جدًّا وكان يدخن سيجارة، كنت قد لففتها له، بينما كان يسعل.

سألت: «وماذا عن والديها أو أي شخص آخر من أقاربها؟».

«كانت وحيدة تمامًا في العالم. الناس كانوا يقولون ما معناه هذا لكن الأمر كان هكذا آنذاك. وحيدة تمامًا...العالم».

ومرة أخرى نظرت من نافذة قطار الشاطئ. عندئذ كانت هناك جثث في الثلج وكانت طيور النورس تجلس عليها وتنهش بمناقيرها في اللحم المتجمد.

كان الرجل العجوز يجلس كعادته خلف ذراع القيادة اليدوي الكبير في كابينة القيادة لكن هذه المرة لم يكن في العربة أحد سواي أنا وهو. وفي البحر، كانت السفن تتحرك بين الكتل الجليدية الطافية. وكانت أسراب طيور النورس ترفرف حول السفن مصدرة أصوات ضوضاء وتصطدم بالأسفل مرارًا وتكرارًا بسطحها. أين كان «كارلي» وأين كانت هي؟ ببطء، ببطء تام مضيتُ عبر العربة الخاوية نحو كابينة القيادة ورأيتُ من فوق كتفي الرجل العجوز أننا كنا نسير مباشرةً باتجاه لسان لهب ضخم. هل كانت هذه هي مدرسة الطيران التي سبق أن حكى لي عنها؟ صحت: «توقف، توقف بحق السماء!» لكن بدا أنه لم يسمعني وأخذ يدير عجلة القيادة اليدوية وكانت قاطرة قطار الشاطئ الصغير تسرع فوق القضبان محدثة صوت صرير وكان الثلج متناثرًا يسارًا ويمينًا.

وبعد ذلك استدار نحوي وكان وجهه رماديًّا بشكلٍ غريب وملطخًا بالهباب كأننا كنا بالفعل وسط النيران المتوهجة التي سرنا باتجاهها. وكان يحرك شفتيه لكنني لم أستطع أن أفهمه؛ لأن صوت طنين عالٍ، كأنه صوت محركات، كان قد بدأ، لا، لم تكن هناك طيور نورس بالخارج، بل كانت هناك طائرات، طائرات لا حصر لها. أملت رأسي فالتصقت تمامًا بفمه فكادت شفتاه أن تلمسا أذني. «لقد مات؛ أنا قتلته».

«من؟» صرخت بها وسط الضوضاء وبعد ذلك ابتلعتنا ألسنة اللهب، أجل، لقد ابتلعتنا، جدار من النيران، اختفينا فيه، وشعرت كيف تمزقنا جميعًا بفعل أحد الانفجارات واعتراني خوف بالغ من الظلام ومن الموت وبعد ذلك استيقظت من النوم.

كان يومًا صافيًا مشمسًا عندما دخلت إلى الشرفة لكن ربما ينقضي الصيف عما قريب. لقد حان وقت أن أعود إلى المنزل مرة أخرى.

لكن لا أحد كان بانتظاري هناك وكنت في عطلة حتى إشعار آخر. «فلتسترِح ولتذهب إلى البحر».

«لماذا إلى البحر؟ من أين عرفت أننا...؟».

وقفت في الشرفة وأمسكت بهاتفي المحمول وتجولت ببصري في الشاطئ الذي كان يأتي إليه من يوم إلى آخر عدد أقل من المصطافين. لم أتصل في الليلة الماضية برقم هاتف زوجتي كي أسمع صوتها في البريد الصوتي.

كان الفندق يقع أعلى الشاطئ قليلًا ومن الشرفة، كنت أستطيع أن أرى المدينة الصغيرة والميناء وحواجز الأمواج مع الإشارات الضوئية. لقد كلفتني الغرفة المطلة على الناصية والتي تقدم إطلالة بانورامية، آخر مدخراتي، لكننا كنا قد قضينا آنذاك بضعة أيام هنا بعد زفافنا.

كم سنة مرت منذ ذلك الوقت؟ منذ أن جلست في الأمسيات عند الرجل العجوز إلى حاجز الأمواج، أصبحت أفقد الوقت.

كنت مُتعَبًا ومُنهكًا من الليلة والأحلام وعلى الرغم من ذلك فقد تنزهت طوال الليل وركضت عدة كيلومترات بمحاذاة الشاطئ وأصبحت أبتعد بذلك أكثر فأكثر عن طريق قطار الشاطئ المختفي وعدت بعد ذلك مرة أخرى وأخذت إحدى بواخر التنزه التي يمضي بها السياح عبر قناة «التيار الكبير» والميناء ومررنا من مسافة قريبة بجزيرة الطيور التي كانت أقرب إلى أن تكون كثبانًا كبيرةً ومضينا بالخارج نحو البحر لكننا كنا نمضي بمحاذاة لسان الأرض الممتد في الماء ونقترب منه أكثر فأكثر. هناك كان يسير هو في الماضي، أي قطار شاطئه، وفي مكانٍ ما كانت توجد مدرسة الطيران والمخزن. وقفتُ إلى سور الباخرة وأخذتُ أنظر إلى الأمواج.

واصلت الباخرة سيرها نحو مرج المستنقع وهناك كان يوجد رصيف ميناء. نزل بعض الأشخاص من الباخرة ووصلت الباخرة إلى حفرة المرج، وكانت عبارة عن قناة، تؤدي بعد مسافة صغيرة إلى اليابسة. رأيتُ المطعم الصغير من مسافة بعيدة بالفعل. كان مبنى قديمًا له سقف من البوص. ألم يسبق وأن قال إن الحانة القديمة أيضًا كانت قد اختفت، ومعها قاعة الانتظار التي كان المصطافون يجلسون فيها. لكن في الشتاء كانوا يصبحون هناك وحدهم تمامًا. رست الباخرة الصغيرة ونزلنا منها وجلسنا على مقاعد وكراسي منطقة الجلوس في الهواء الطلق التابعة للمطعم الصغير. تناولنا الطعام والشراب وانتظرنا حتى تستأنف الباخرة سفرها من جديد.

«الإقلاع بعد خمس دقائق واثنتين وأربعين ثانية» صاح بها «كارلمان» الذي كان الجميع يسمونه «كارلي» فقط وركض ذهابًا وإيابًا بين طاولات

ومقاعد منطقة الجلوس في الهواء الطلق التابعة للمطعم الصغير. كان بإمكاننا أن نسمعه يضحك. كان مقاس قلنسوة محصل التذاكر أكبر منه بكثير وكانت تصل إلى مسافة منخفضة من جبينه. وقد أزاح حافة قلنسوته الأمامية الحمراء نحو أعلى بأداة محصل التذاكر وذلك عندما انحنى نحوي. «تذكرة سفر أيها السيد من أجل رحلتنا الخاصة؟ يجب أن تعود بالطبع».

قلت: «اثنتين؛ لي ولزوجتي». دق أحد الأجراس في مكانٍ ما.

قال الرجل العجوز في المساء: «لا، لقد اختفى كل شيء؛ حانة المرج وقاعة الانتظار، منذ وقتٍ طويل بالفعل ومعهما القطار».

قلت: «لكنني كنت هناك اليوم».

قال الرجل العجوز: «لقد اختفى كل شيء، مثلما اختفت هي، آنذاك».

«إلى أين...».

«لقد مضت ببساطة. على الأرجح، إلى هذا الاتجاه حيث يوجد الأمريكيون. لا أحد يعرف أي شيء بدقة. في نهاية مايو أو مطلع يونيو. كان شهر مايو جميلًا؛ وفجأة حلَّ الصيف. ذهبنا إلى منطقة «بادن» للمرة الأولى. وفي اليوم التالي رحلتْ».

سألت: «الروس؟».

«كنت أعتني بها، أعتني بها دائمًا. لعلها لم يكن من حقها أن تمضي، بعد ما جرى مع «كارلي». لا، لعلها لم يكن من حقها أن ترحل».

سألت: «ماذا جرى لـ«كارلي»؟» أضاءت الإشارات الضوئية -في حواجز الموج ووميض الفنار الكبير من خلفنا- وجهينا. جلسنا في هذا المساء، في هذه الليلة، بجوار بعضنا على مقعد وكنت قد أحضرت زجاجات صغيرة

من نبيذ «شنابس» من الثلاجة الصغيرة الموجودة في غرفتي المطلة على الناصية -والتي تقدم إطلالة بانورامية- ووضعتها بيننا على الدعامات الخشبية. وكنت قد رأيت في الصباح إحدى هذه السفن السياحية الضخمة تبحر وكان متنها يمتلئ بالمسافرين الملوحين بأيديهم وعندئذ أصبحت قناة «التيار الكبير» ساكنة أمامنا لكن أضواء الإشارات أخذت تتحرك مرارًا وتكرارًا أعلى سطح الماء الذي كاد أن يكون أسود اللون.

««كارلي»» قالها وصمت بعد ذلك لثوانٍ واستطعت أن أسمع صوته وهو يتنفس وأخذت الزجاجات تصطدم بعضها ببعض محدثة صوت صلصلة عندما مدَّ يديه نحوها. «ربما كنت أستطيع أن أنقذه. لكنني كنت وحيدًا وكان عمري سبعة عشر عامًا». أمسك إحدى الزجاجات في يده وأراد أن يلف سدادتها ليفتحها لكنه لم ينجح في ذلك. أخذتها من يده وفتحتها وناولتها له من جديد وبدا لوهلة كأنه كان يريد أن يشرب لكنه ألقى بعد ذلك بالزجاجة في الظلام.

«لقد أخرجت «إيرما» من العربة المقلوبة وحملتها نحو الشاطئ بالأسفل. وكان «كارلي» قد انحشر. كان مستلقيًا بالخارج وانحشر وأنا... لقد نظر إليَّ عندما أخرجتها من العربة. ما زلت أرى اليوم كيف نظر إليَّ. أرجوك ساعدني. كان يبكي. كنت أحبه كثيرًا، ابن عمي «كارلي». ربما كان يجب عليَّ أن أجذبه نحو الخارج. ربما كان يجب عليَّ بالطبع أن أحاول».

نظر إليَّ. ماذا كان يجدر بي أن أقول.

«لكنني أخرجتها هي من القاطرة المقلوبة. وعندما عدت... كان يبكي عندما ذهبت معها إلى الشاطئ. لا ترحل، هكذا صاح. لكنني كنت مضطرًّا أن أذهب بها بعيدًا عن هناك أولًا قبل أن أتمكن من مساعدته. كنت وحيدًا. كان لون السماء بأكملها أحمر داكنًا. كنت أريد أن أحضره

لكن عندما عدت...».

احتسيت آخر ما تبقى من نبيذ «الويسكي» أو «الفودكا» وألقيت الزجاجة في الظلام. سمعت كيف ارتطمت بالماء. صوت منخفض مثل صوت التصفيق فحسب كأن أحدهم قد ألقى حجرًا صغيرًا في الماء أو كرة ثلج في فصل الشتاء.

ظللنا جالسين لوقتٍ أطول بعضنا بجوار بعض ونحن ننظر إلى قناة «التيار الكبير». وأمسك هو في يده من جديد بالولاعة المعدنية. ألم يحكِ أنها هي من سبق وأهدتها إليه؟ ولاعة قديمة كانت تخص أحد الجنود. وكانت هي قد عثرت عليها في مكانٍ ما أثناء هروبها قبل أن تهتدي إليه وإلى قطار شاطئه وأن تختفي من جديد بعد ذلك مثل «إيرمشين»، أي مثل حشرة خنفسة مضيئة.

كانت السماء تمطر رذاذًا عندما ذهبت بعد بضعة أيام إلى حاجز الأمواج الغربي مرة أخرى. كان الرجل العجوز يجلس على أحد المقاعد. وجلست على المقعد بجواره. بدا أنه لم يلاحظ وجودي لكنني عندما... كم من الوقت مرَّ منذ ذلك الحين؟... عندما أتيت إلى حاجز الأمواج للمرة الأولى، لم أكن قد رأيته أيضًا على الفور.

«قديمًا كانت المياه هنا أقل». قالها الرجل العجوز بعد برهة من الوقت دون أن ينظر إليَّ.

«أعرف» قلتها ونهضت واقفًا من جديد وعدت وسط رذاذ المطر إلى الفندق.

الجزء الثاني

كان والد صديقي القديم «راء» يجلس في الشرفة. بدا قصير القامة للغاية ونحيلًا في المقعد الوثير الكبير الذي سبق وأن جهزه «راء» ووالدته من أجله في الشرفة. كان هناك مفرش أخضر على ركبتيه؛ فقد أصبحت الأيام باردة وكان ملمس المقعد رطبًا عندما وضعت يدي على وسادة المسند. رفع والد «راء» بصره ورمقني بنظرة خاطفة وأومأ برأسه. وهمس بشيء ما لكنني لم أستطع أن أفهم سوى كلمة «جميل».

وقفنا بجواره إلى سور الشرفة ونظرنا إلى المباني السكنية الجاهزة المسطحة للمجموعة السكنية الواقعة عند طرف المدينة والتي كانت المناطق التجارية الكبيرة توجد خلفها ورأينا من مسافة بعيدة جدًّا الشريط الأبيض للطريق السريع الذي كان من الممكن سماع صوت

الطنين المنبعث منه في الليل.

ساعد «راء» والده ليخرج من المقعد الوثير وبعدها سندناه يسارًا ويمينًا وذهبنا معه ببطء نحو باب الشقة. كان يرتدي روب الحمام فوق البذلة الرياضية واستطعت أن أشعر بأحد الخراطيم وبالكيس عندما وضعت ذراعي حوله. ذهبنا به إلى سيارتي.

سرنا في المدينة وكان «راء» يجلس خلفي ويتكئ على المسند الخلفي لمقعدي وكان ينظر إلى والده الذي كان يجلس في المقعد الأمامي المجاور لمقعد السائق ويضع رأسه على اللوح الزجاجي. اكتسى الزجاج ببقعة بيضاء مثل الضباب بجوار فمه. كان قد تمنى كثيرًا جدًّا أن يسير مرة أخرى في حيه القديم لكن عندئذ بدا الأمر كأنه كان نائمًا.

عندما مررنا بمكان إقامة أحد الاحتفالات الشعبية، رفع رأسه وأشار إلى الأرجوحات الدوارة وإلى الأكشاك. كنا في الخريف وكان آخر ما تبقى من عارضين يجوبون القرى والمدينة. توقفت. توجه «راء» إلى أحد الأكشاك وأحضر لوالده كأسًا من البيرة. احتسى بضع رشفات وأخذ يسعل واتكأ على السيارة وأشار إلى العجلة الضخمة التي كانت تسمو فوق الأكشاك والأرجوحات الدوارة في نهاية مكان الاحتفال. نظرت إلى «راء» وأومأ هو برأسه ووضع والده ذراعه حول أكتافنا ومضينا ببطءٍ شديد عبر الشوارع الضيقة المكونة من منصات التنشين وأكشاك بيع الوجبات الخفيفة وألعاب الملاهي حتى أصبحنا عند العجلة الضخمة. لم تحدث أحداث كثيرة في الاحتفال الصاخب على الرغم من أن الظلام حلَّ بالفعل.

جلسنا في الجندول المتأرجح وألقينا نظرة على الاحتفال الصاخب والمنازل والأرض المنبسطة قبالة المدينة. أراد والد «راء» أن يقول لنا شيئًا ما لكننا لم نستطع أن نفهم همسه فالرياح كانت تعصف في آذاننا ومن أسفل كانت موسيقى الأكشاك والأرجوحات الدوارة تصفر. لكن بعد ذلك

رأينا ماذا كان يقصد. توربينات الرياح. كان من الممكن رؤيتها جدًّا من هنا بالأعلى. كانت موجودة بالمئات في السهل المقابل للمدينة، غابة من توربينات الرياح، ومع بداية الغسق بدأت الأنوار التحذيرية تضيء أسفل دوارات التوربينات. كان والد «راء» يعمل عاملًا في صناعة المعادن وفي السنوات العشرين الأخيرة كان يستلقي بصحبة جهاز اللحام الخاص به في قاعة كبيرة في داخل الأنابيب القائمة لعجلات توربينات الرياح وكان يقوم بلحامها. حتى أصابه المرض.

كانت العجلة الضخمة قد توقفت عن الدوران وأخذت الجناديل تتأرجح وتتمايل وأخذنا نحن ننظر إلى الوميض الأحمر والدوارات التي أخذت تختفي على مهل في الظلام والتي بدت قريبة جدًّا ورفع والد صديقي القديم «راء» يده للحظة.

فتحة الباب

عندما مضى في هذه الليلة عبر بئر السلم نحو شقته، التي تقع في الطابق الأرضي، انتابه على الفور الشعور بأن هناك شيئًا ما غير مضبوط.

ظل واقفًا كالمعتاد إلى صناديق البريد وأخذ يبحث عن مفتاح صندوق البريد بين المفاتيح الأخرى في ميدالية مفاتيحه ولكنه عدل عن هذا بعد ذلك وأخذ يرهف السمع. كان المنزل ساكنًا وبالخارج أيضًا لم تكن هناك أحداث كثيرة في الشارع.

لم يكن بإمكانه بعد -وهو يقف أمام صناديق البريد- أن يرى مدخل شقته لكنه فكر في ما بعد أنه ربما كان قد شعر بتيار الهواء أو أنه كان قد سمع كيف أخذ باب الشقة الموارب يرتطم مرارًا وتكرارًا -بفعل تيار الهواء- بقضيب غلق الباب بخفة تامة.

وقف أمام شقته وكان قد أنزل حافظة الأوراق وظل ينظر إلى الباب الموارب حتى انطفأ نور بئر السلم.

فتح النور من جديد وتناول حافظة أوراقه بكلتا يديه وضغط بها على خشب الباب حتى انفتح الباب شيئًا فشيئًا. ألقى نظرة على الدهليز المظلم.

لم يستطع أن يتبيَّن وجود أي آثار في إطار الباب؛ فما من خشب متشظٍّ. بدا كأن هناك شخصًا فتح شقته بأحد المفاتيح. دخل إلى عتبة الباب، صوت الصرير المنخفض، الذي كان يعرفه جيدًا جدًّا؛ فهو يسكن في هذه الشقة منذ قرابة خمسة عشر عامًا أي منذ أن انتقل من السكن لدى والدته. ولاحظ على الفور -بعد أن أضاء النور في الدهليز- أن حذاء

رعاة البقر الخاص به غير موجود. كان الحذاء موضوعًا في القسم الأعلى من رف أحذيته. وكان هو قد اشتراه قبل بضعة أعوام أثناء عطلة قضاها في أمريكا. كان من أجود أنواع الجلود ومصنوعًا يدويًّا وبه قطع معدنية فضية عند رقبة الحذاء لكنه اختفى الآن.

سند حافظة الأوراق إلى رف الأحذية وعاد إلى بئر السلم وأغلق باب المنزل بالمفتاح مرتين ومضى نحو الطابق الأول بحذر لكي لا تحدث خطواته ضوضاء كثيرة أكثر مما ينبغي. لم يكن أحد يسكن هناك ولم تكن توجد سوى شقة واحدة، كانت تقع فوق شقته مباشرةً، وواصل تسلله إلى أعلى نحو الطابق الثاني. بدا كلا بابي الشقتين سليمًا ومن خلف شراعات البابين المحاطة بقضبان حديدية كان هناك نور مضيء. سمع صوت برنامج تليفزيوني منبعث من إحدى الشقتين وعندما بدأت الإعلانات، أصبح الصوت أعلى فجأة. وعاد هو من حيث أتى. عندما أصبح على بسطة السلم الأخيرة، انطفأ النور ورأى فتحة الباب المضيئة التي نفذ من خلالها ضوء شقته ودهليزه إلى بئر السلم المعتم.

تفحص القفل. لم يعد من الممكن إغلاقه. صحيح أن مفتاحه ما زال مناسبًا له وكان بإمكانه هو أن يديره لكن لم تعد ثمَّة مقاومة لسن المفتاح وأخذ القفل يحدث صوت طقطقة مع المفتاح الموجود بداخله ذهابًا وإيابًا.

وعلى الرغم من ذلك، فقد جذب الباب ليغلقه وبعد ذلك بدأ في تفتيش الغرفة. شيء ما كان قد منعه من ذلك حتى هذا الحين كأنه كان يشعر بالخوف من أن يكتشف أن هناك تغييرًا ما طرأ على الغرف.

فتح باب المطبخ ولم تكن دراجته -التي كانت موضوعة هناك أمام رف المطبخ- موجودة. كان يأخذها معه دائمًا إلى الشقة؛ لأنه كان يخاف من أن يتمكن أحدهم من سرقتها من القبو. كثيرًا ما كان يذهب إلى العمل

بالدراجة وهو يضع حافظة الأوراق في مكان وضع الأمتعة بها. إلا أن الأمطار كانت قد تساقطت في اليومين الماضيين وكان هو قد ذهب إلى العمل بالحافلة.

وبعد ذلك وجد أن جهاز راديو مطبخه الصغير غير موجود. كان جهاز راديو مطبخ جيد وصغير مزود بساعة رقمية وزود بخاصية لاستخدامه في سلق البيض وكانت والدته قد أهدته له قبل سنوات. أنتجته شركة «جروندیش» وهي شركة جيدة. ومع ذلك لم يفهم هو كيف استطاع شخص ما أن يسرق جهاز راديو مطبخه. ما قيمة هذا الشيء إذًا؟ لكنه كان أيضًا يرجع إلى أكثر من عشر سنوات وكان إحدى الهدايا الأخيرة لوالدته.

مدَّ يده نحو أحد السكاكين الموضوعة في حوض غسيل الصحون، سكين كبير وحاد لتقطيع الخبز ولكنه عدل عن ذلك الأمر؛ فما جدوى مثل هذا الأمر أيضًا إن كانت الشقة خاوية. على الرغم من أنه لم يكن قد ألقى نظرة في جميع الغرف. تناول السكين. ووضعه مرة أخرى. أخرج هاتفه المحمول من جيبه الداخلي وطلب رقم واحد واحد صفر وفتح مكبر الصوت وألغى المكالمة من جديد عندما دوى في مطبخه صوت أول صافرة ممدودة يشير لطلب الرقم. شعر كيف كان فمه جافًّا وأخذ كوبًا وملأه أسفل صنبور المياه.

ذهب ببطء إلى الغرف الأخرى. لقد تواجدوا هنا أيضًا. ففي غرفة المعيشة لم يكن جهاز الموسيقى المجسمة الخاص به موجودًا. وكانت أدراج مكتبه مفتوحة وقد تم تفتيشها وبعثرة ما فيها. وكان التليفزيون الصغير ذو الشاشة المسطحة قد اختفى. بدا أن شيئًا لم يكن ناقصًا في غرفة النوم. لكن فراشه -الذي كان قد رتبه في الصباح كعادته- كان في حالة فوضى. سحقًا، عما كانوا يبحثون في سريره؟ فتح درج الكومودينو

الخاص به. أصابه نور المصباح الموضوع على اللوح الرخامي بزغللة في عينه فلفَّ غطاء المصباح الأخضر. كانوا قد قلبوا صفحات ألبوم صوره الذي كان موجودًا في درج الكومودينو. كان ألبوم الصور لا يزال نصف مفتوح وكانت إحدى صفحاته منثنية وكانت إحدى الصور غير موجودة.

رأى في ضوء مصباح الكومودينو كيف كان يجلس على حجر والدته عندما كان طفلًا صغيرًا، صورة باللونين الأبيض والأسود، واصل تقليب الصفحات، آخر صديقة له على الشاطئ، كم كانت جميلة. وبينما استمر في تقليب الصفحات، دفع بيده الأخرى باب الدرج ليغلقه وترك الألبوم وجلس على الفراش. ظل الدرج مفتوحًا؛ فرأى صورة قدمه وهو طفل رضيع على ركبة والدته. كانت الصورة غير موجودة لكن حواف الصورة السوداء كانت ملتصقة بين الصور الأخرى. وكان الدرج قد مال وضغط هو على الخشب؛ فانزلق لوح المنضدة الرخامي فقد كان موضوعًا بالأعلى بصورة غير محكمة وترك هو الدرج -الذي لم ينغلق بعد تمامًا- ودفع اللوح الرخامي من جديد ليصبح في وضع مستوٍ ونظر إلى الفراش المبعثر الذي كان يجلس عليه. نهض واقفًا. ذهب إلى دورة المياه. لم يتواجدوا هناك على ما يبدو. فكل شيء كان في مكانه. جلس على غطاء المرحاض المغلق. كانت الجرائد على حافة النافذة. استطاع أن يتذكر أنه قرأ شيئًا ما عن سلسلة من جرائم السطو. عصابات منظمة. جلس على غطاء المرحاض ونظر إلى نفسه في المرآة أعلى حوض الغسيل.

في وقتٍ ما، بعد دقائق أو ساعات، نهض واقفًا واستلقى على الأريكة في غرفة المعيشة. شعر ببرودة شديدة وجذب عليه الغطاء الذي كان يوضع دائمًا عند حافة السرير متكورًا مثل وسادة. فاحت من الغطاء رائحة حلوى بشكلٍ غريب. هل جلسوا على أريكته أيضًا؟ بعد ذلك نهض واقفًا مرة أخرى وأزاح رف الأحذية أمام باب الشقة. أصبحت الآن حافظة أوراقه -التي كانت قد مالت إلى رف الأحذية- في منتصف الدهليز. تأملها

لبرهة من غرفة المعيشة وبعد ذلك أحضرها ووضعها بجواره إلى الأريكة. استلقى طويلًا وهو يقظ ونظر إلى السقف ونظر في ظلام عينيه المغلقتين وأرهف السمع إلى الشقة وأرهف السمع إلى المنزل بينما بدأت باكورة حركة المرور بالخارج في الشارع.

نهض واقفًا في وقت متأخر من الضحى، لم يكد ينام. فقد كان عليه أن يذهب إلى العمل في غضون ساعات قليلة. بالخارج، كان يومًا خريفيًّا جميلًا، لقد أدرك هذا عبر فتحات تهوية شيش النافذة؛ لكنه ربما يضطر من جديد أن يستقل الحافلة. فمكاتب خدمة البريد السريع، التي كان يتولى فيها أمر تجهيز تكليفات العمل، كانت تقع في إحدى المناطق التجارية بالخارج قبالة المدينة. وكان يجب عليه أن يسير لمدة عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة أخرى انطلاقًا من آخر محطة من محطات الحافلة. كانت رائحة حرائق الخريف تفوح ليلًا. ففي الحدائق المقسمة إلى حصص وفي قطع الأراضي المحيطة بالمنطقة الصناعية، كان هناك دائمًا شخص ما يحرق خشبًا أو أوراق الأشجار المتساقطة في مثل هذا الوقت من العام.

«هل اتصلت بالشرطة؟».

«أجل. أجل».

«أقصد من أجل التأمين».

«أجل، بالطبع».

«وإلا فلن يسددوا لك أي تأمين».

«ما من شيء ناقص. لقد فاجئتهم. وقد هربوا. هناك مشكلة بالباب فقط».

«أجل، الباب. يجب على الشرطة أن تسجل الخسائر وبعد ذلك يمكنك أن... إلى التأمينات».

لماذا لم يستطع عامل المفاتيح أن يكون هادئًا ببساطة ويستبدل القفل؟ وقف في دهليز شقته وكان قد أغلق كل أبواب الغرف وراقب الرجل المسؤول عن خدمة المفاتيح الذي جلس القرفصاء على عتبة الباب وهو يعبث بأدوات مختلفة تارة في القفل وتارة في إطار الباب.

«لو حالفك الحظ، سيظهر من جديد شيء ما... لكنه غالبًا اختفى. وربما لا أعقد أملًا...».

«ما من شيء ناقص». قالها مرة أخرى لكن الرجل المسؤول عن خدمة المفاتيح واصل حديثه ببساطة. «أنت لست أول شخص. إنهم يتجولون هنا في الحي، في المدينة بأكملها. أشخاص من خارج البلاد، لو تسألني عن رأيي فإنهم أجانب همج».

«لكنني قلت لك إن... لقد تفاجئوا. إنهم لم يدخلوا حتى إلى الشقة».

كان قد ظل واقفًا لبرهة إلى باب غرفة النوم -في الضحى بعد أن استيقظ- وكان قد ألقى نظرة على فراشه المبعثر وعلى الكومودينو، الذي تزحزح من مكانه، ومعه الدرج الذي ظل مفتوحًا وكان به ألبوم صوره الذي كانوا قد اطلعوا عليه. وبعد ذلك أغلق الباب.

كان قد ذهب إلى دورة المياه وفتح غطاء المرحاض ومقعد المرحاض لأعلى.

كان يتبول في أغلب الأوقات واقفًا على الرغم من أن آخر صديقاته سبق وأن جعلته يقلع عن هذه العادة لبعض الوقت. كان السبب ببساطة أنه كان يعتقد -لأسباب تشريحية- في أن المثانة لا تصبح فارغة بشكلٍ كامل

وهو جالس. لماذا انفصلت عنه آخر صديقاته حقًّا؟ الشجار الأبدي بسبب سيارة ولأنه لم يكن يسكن معها إلخ.

وقف أمام المرحاض ونظر إلى بركة المياه ذات اللون الأصفر الباهت في الحوض. أحدهم لم يشد سيفون المرحاض. حاول أن يتذكر متى كانت آخر مرة له في المرحاض.

كان قد ذهب إلى المنزل وكان الباب مواربًا وقد فتش شقته وكانت أشياء كثيرة قد اختفت واكتشف هو أنهم قد ألقوا نظرة على صوره أو على الأقل تصفحوها وكان قد جلس على غطاء المرحاض المغلق واستلقى على الأريكة...

في الحافلة، أمسك بالمفتاح الجديد في يده وكان لا يزال يمعن التفكير هل استخدموا مرحاضه. لم تكن رائحة البول مثل رائحة بوله. وكان قد شدَّ سيفون المرحاض وضغط على زر السيفون لوقتٍ طويل جدًّا لدرجة أن الماء لم يعد يسيل بعد ذلك.

وبعدها، جلس من جديد في الحافلة، بعد الساعة العاشرة مساءً بقليل. كانت حافظة الأوراق وبها جهاز حاسوبه المحمول موضوعة بين قدميه. أحرقته عيناه؛ إذ كان قد حدَّق في الساعات الماضية في شاشة الجهاز واستقبل تكليفات عمل وطبع عناوين طرق وأعد فواتير وأعاد إرسال تكليفات العمل المُجهزة. أغلق عينيه. لقد مازحته سائقة خدمة البريد السريع ذات البشرة الداكنة مرة أخرى، هل كانت تريد شيئًا منه؟ كانت وحيدة، على حد علمه. كانا يتفاهمان بشكل جيد وكثيرًا ما كانت هي تقترب منه جدًّا عندما كانا يتحدثان لدرجة أنه سبق وأن فكر عدة مرات بالفعل في أن يُقبِّلها ببساطة. كان يفكر فيها في بعض الأحيان عندما كان يشعر باستثارة جنسية. وكانت قد مازحته كعادتها لكنه لم يستجيب لهذا في تلك المرة وحدَّق في الشاشة، في الأرقام والبيانات.

عندما أفاق من نومه، لاحظ أنه كان قد مضى بعيدًا جدًّا أكثر مما ينبغي. استغرق الأمر بضع ثوانٍ حتى عرف إلى أين وصل بالحافلة. عاد من العمل وكان قد رأى حلمًا في هذه الغفوة بين المحطات أن ضباط شرطة كانوا في شقته وأنهم فتشوا غرفة تلو الأخرى. «لا» كان قد صاح بها «لا يحق لهم أن يدخلوا إلى هنا» لكنهم كانوا قد نبشوا في أغراضه وقلَّبوا في صوره ولم يشاؤوا ببساطة أن يمضوا من جديد.

وقف في الجانب الآخر من الشارع ونظر إلى النوافذ المظلمة لشقته التي تقع في الطابق الأرضي. كان قد نزل من الحافلة عند الجسر الكبير الذي كانت القطارات وقطارات الترام تمر أسفله وقطع الطريق كله إلى منزله وهو يركض نحو الخلف.

كان قد وقف على الجسر قبل أن ينصرف ويلقي نظرة على شبكة القضبان المتفرعة. كانت هناك منازل تقع يسارًا ويمينًا بجوار الطريق وكانت الأسوار تنحدر بشدة نحو جسر السكة الحديدية وقد بدت له في الليل كأنها جدران صخرية.

لم يستطع أن يقول لماذا عاد في وقتٍ لاحق ليتجول من جديد باتجاه الجسر الكبير. ولم يفكر طويلًا أيضًا في هذا الأمر.

أخذ ينظر لدقائق إلى نوافذ شقته، التي تقع في الطابق الأرضي، وأمسك بمفتاحه الجديد في يده. استدار. مضى بامتداد الشارع، بعيدًا عن شقته، بعيدًا عن منزله. مرَّت به حافلة وكانت مقاعدها خاوية. في أقصى الوراء تمامًا فقط، كان هناك رجل يجلس إلى اللوح الزجاجي الخلفي الكبير وبدا أنه كان نائمًا وكان قد أخفض رأسه على صدره وكان يتحرك قليلًا ذهابًا وإيابًا مع إيقاع سير الحافلة.

احتسى كأسًا من البيرة في حانة مطلة على الناصية والتي كان يتردد

عليها في بعض الأحيان في ما مضى. غير أن هذا مضت عليه بالتأكيد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة بالفعل. حدث هذا عندما كان في مقتبل العشرين من عمره. وقد اندهش أن الحانة ما زالت موجودة. في ما مضى، كانت هناك محطة ترام تقع أمام الحانة مباشرةً. لكن الطريق كان قد تعطل قبل بعض الوقت بالفعل وكانوا قد غطوا القضبان نفسها بالأسفلت. كانت الحانة خاوية نوعًا ما وقال نادل الحانة: «لكن ليس سوى كأس واحدة من البيرة. نحن سنغلق». ووضع هو حافظة أوراقه بجواره على كرسي البار العالي واحتسى كأسًا من البيرة ومضى من جديد.

بينما سار بمحاذاة الطريق المعطل، أخذ يفكر في فراشه الذي كان قد وجده مبعثرًا ويفكر في صوره التي كانوا قد لمسوها... ماذا كانوا يترقبون بين الصفحات والصور؟ مال؟ ملفات؟ كروت ائتمانية؟ أم أنهم تفاجئوا ومست آثار حياته مشاعرهم؟ لقد ألقوا نظرة على ذكرياته... لقد سرقوا واحدة من ذكرياته.

لم يكن ينظر إلى الألبوم قبل خلوده إلى النوم إلا نادرًا. لكنه كان يعلم أنه موجود هناك، في درج الكومودينو الخاص به.

سار في الشارع الموازي لقضبان السكك الحديدية، أسفل الجسر الكبير، الذي كان قد وقف عنده قبل لحظات، واعتراه الشعور أن لو التقط له أحد صورة فوتوغرافية، فإن ضوء الفلاش المنبعث من أي مطعم صغير لبيع الوجبات السريعة أو أي مكتبة بيع ألعاب أو من أي حانة أو من أي واجهة عرض مضيئة سيزغلل عينه.

كان سبب هذا بالتأكيد البيرة ونبيذ «شنابس». لم يحتسِ كثيرًا منهما كعادته ولم يكن أيضًا يتحمل الكثير منهما. لكنه رأى بعد ذلك أن أمامه زجاجة من مشروب عصير التفاح المزوج مع المياه الغازية وكذلك قدح من القهوة. وقف عند مطعم صغير لبيع الوجبات السريعة واتكأ على

نضد بيع الوجبات وسمع من خلفه أصواتًا ما. كان قد توقف عن احتساء النبيذ بعد أن احتسى كأس البيرة في الحانة المطلة على الناصية عند محطة الترام التي لم يعد أي ترام يتوقف عندها.

«عصابات منظمة» هذا ما كان قد قرأه في الجريدة وسبق وأن قال الرجل المسؤول عن خدمة المفاتيح «أجانب همج، أشخاص من خارج البلاد». لقد ظلت أربع حواف سوداء لصورة -والتي لم تعد صورة- باقية بين كل الصور الأخرى.

سمع الأصوات من خلفه، لغات أجنبية، أحاديث بصوتٍ عالٍ، أصوات، لغات، بدت له مثل نعيق الغراب، طيور كبيرة الحجم وداكنة اللون، كانت ترفرف من خلفه في هذه المدينة الكبيرة وهي تصدر أصواتًا كالنعيق. لكنه لم يلتفت واتكأ على النضد وهو يضع ذراعه على حقيبة ملفاته بينما أخذ يحتسي قهوته ويرتشف بين الحين والآخر من مشروب عصير التفاح الممزوج مع المياه الغازية.

تخيل أنه كان قد ثبَّت حافظة أوراقه في معصمه بأحد أصفاد اليد؛ أي بحلقة فولاذية من حلقتي الأصفاد حول مقبض الحافظة والحلقة الثانية حول ذراعه.

وإلا فكيف كان بوسعه ألا يفقد حافظة الأوراق أثناء هروبه؟

ركض. ماذا جرى؟ ركض. وكانوا خلفه.

لم يتردد على هذا الشارع منذ سنوات. مكتبات بيع الألعاب ومكاتب المراهنات ومطاعم بيع وجبة «الدونر» ومقاهي الإنترنت وأماكن بيع وشراء بعض البضائع وغرف لاحتساء الشاي، يبدو أنها عربية، وبها حروف مزخرفة أعلى المدخل... كانت فتاتان نحيلتان قد أقبلتا نحوه عندما انعطف في الشارع. وبعد ذلك رأى أن إحدى الفتاتين كان فتى

نحيلًا. بديا شاحبين ونظرا إليه بأعين كبيرة نهمة. مدمنا مخدرات، مولعان بتعاطي عقار «ميثامفيتامين»، كانا يريدان سرقة حافظة أوراقه.

لم يتردد على هذا الشارع منذ سنوات على الرغم من أنه لا يفصله عن شقته سوى بضع محطات حافلة فحسب. في ما مضى، كانت توجد دار سينما هنا، ترى هل كان اسمها «حديقة الشتاء» أم «دار سينما الصداقة»؟ وكان يشاهد فيها أفلامًا خيالية أسطورية بصحبة والدته عندما كان لا تزال سنه صغيرة جدًّا.

بعد أن نزل من الحافلة عند الجسر وركض إلى الوراء مسافة المحطات، التي ذهب إليها بالحافلة بعيدًا جدًّا أكثر مما ينبغي، كان قد عبر الشارع الكبير، الذي تمتد خطوط السكة الحديد من خلف منازله. دار برأسه، ترى ما الأمر اللعين الذي حدث هنا مرة أخرى.

انفجارات ضوئية منبعثة من مكتبات بيع الألعاب ذات الأبواب المفتوحة، مساحة خضراء بجوار الشارع، أشخاص جالسون على المقاعد، أخذوا يتفصحونه. ركض. لماذا ركض؟

وبينما أخذ يركض، رأى من زاويتي عينيه منزلًا صغيرًا مضيئًا، على طرف الشارع، بجوار طريق المشاة. بدا كأنه بيت حراسة صغير لأحد حراس المنتزه، جدران زجاجية، أشخاص خلف الزجاج، يرتدون أزياء رسمية موحدة ويلقون نظرة في الليل وحروف كلمة «شرطة» مكتوبة بأحرف كبيرة وباللونين الأخضر والأبيض بالأعلى على سقف المنزل الصغير.

سأل نفسه في ما بعد، عندما جلس على السلالم في المنزل المُتصدِّع، لماذا لم يهرب إلى هناك. كأنه نقطة تمركز خارجية. عصابات منظمة. «أجانب همج»، صاح بها في بئر السلم. كان قد وقف قبل لحظات إلى أحد أماكن

بيع وشراء بعض البضائع وظن أنه رأى دراجته في المتجر بالخلف. بين دراجات أخرى. كان قد رأى مدمني المخدرات النحيلين الاثنين في الصورة المنعكسة في اللوح الزجاجي. واصل الركض واختفيا من جديد وظهر أشخاص آخرون وأزعجوه... تعقبوه...

«هل هذا أنت يا فتاي؟».

هبَّ مفزوعًا. كان على الأرجح قد استغرق في النوم للحظة. كان نور بئر السلم مضيئًا وكانت هناك سيدة عجوز تقف أعلاه. كانت ترتدي على شعرها شيئًا ما مثل الشبكة وأومأت له بعينها عبر نظارة كبيرة مُلوَّنة. لم يدر برأسه أن هناك أي شخص ما زال يعيش في المنزل القديم المُتصدِّع. وكان قد ركض حتى المنزل المطل على الناصية بينما ما زال يسمع صوت الخطوات من خلفه. كان الباب المجاور لواجهة عرض كبيرة خاوية مفتوحًا فتحة صغيرة جدًّا. أدرك هذا وهو يركض مرورًا به. توقف وأمسك بالمقبض وضغط عليه لكن لم يكن من الممكن فتح الباب بسهولة؛ كان به انثناء على الأرجح ويستعصي فتحه لكنه دس يده في فتحة الباب وضغط عليه ودفع الخشب بكتفه حتى انفتح الباب ودخل سريعًا إلى المتجر المظلم وجذب الباب وراءه ليغلقه.

نفذ ضوء مصابيح الشارع عبر اللوح الزجاجي المتسخ وسار هو عدة خطوات إلى داخل الغرفة. لم يكن ينبغي أن يتعرفوا عليه وهم في الشارع. وبعد ذلك، وجد بابًا آخر، لم يكن موصدًا أيضًا، ووقف هو في بئر سلم كبير ومعتم.

كاد أن يصطدم بالعمود الخشبي الذي كان مدخل السلالم يبدأ به والذي كان سور السلالم يلتف بمحاذاته. استطاع أن يشعر بملمس النقوش والزخارف عندما مدَّ يده نحو العمود. ثم ذهب ببطء إلى أعلى وهو يضع يده على سور السلم. كانت السلالم القديمة تصدر صوت أنين

عاليًا جدًّا لدرجة أنه انتابه الخوف من أن يتمكن مطاردوه أن يسمعوا صوته بالخارج في الشارع...

«هل هذا أنت يا فتاي؟» نهض واقفًا ونظرت السيدة العجوز -التي كانت تقف منحنية على بعد درجتين من السلم أعلاه- إلى وجهه وبسطت يدها نحوه. «لقد سمعت بالطبع أن شخصًا ما جاء بالأسفل». كانت ترتدي معطفًا أسود اللون مفتوحًا من الأمام، واستطاع هو أن يرى أسفل القماش الأسود قميص نوم رماديًّا ملطخًا بالبقع.

لمست وجهه بأطراف أصابعها وأراد هو أن يتفاداها متقهقرًا إلى الخلف لكنه عدل عن ذلك وشعر بملمس أظافرها المثلمة على بشرته. كانت تفوح منها رائحة مسحوق قوية؛ مسحوق اللافندر أو شيء من هذا القبيل، وتخللتها رائحة جسدها. فكر لوهلة كيف سبق وأن فتح غطاء المرحاض في شقته ورأى الآثار الغريبة.

«أخيرًا جئت إلى المنزل». وضعت عندئذ كلتا يديها على وجنيته وقرَّبت رأسه منها بحذر كأنها كانت تريد أن تتأمل وجهه بدقة شديدة. أدار وجهه بعيدًا لأنه شعر بنَفَسِها.

وفي وقتٍ لاحق، بعد أن جلس إلى الطاولة لديها، أسمته «ابني لوكاس». لا بدَّ أنها تجاوزت الثمانين عامًا بكثير. كان وجهها صغيرًا وفمها خاليًا من الأسنان وكانت أسنانها موضوعة في كوب على حافة النافذة بين مزهريات نبات الصبار. «أنسى كثيرًا أن أسقيها لكن هذا لا يهم».

كانت تسكن بالأعلى تمامًا في الطابق الرابع وكانا قد احتاجا وقتًا طويلًا لكي يصبحا بالأعلى. كان مضطرًّا لأن يسندها.

قالت: «أنت جئت متأخرًا» ومن جديد أصبح لا يدري بما كان ينبغي عليه أن يجيب.

لم يكن قد قال أي كلمة لها بعد لكنها كانت قد أخذته من يده وجذبته إلى شقتها. كانت قد أعدت قهوة وكان هو قد وقف في الدهليز وانتظر وهو لا يدري ماذا كان ينبغي عليه أن يفعل عندئذ. وكان قد سمع صوتها المبحوح المنبعث من المطبخ. «لقد تركت جدتك العجوز تنتظر وقتًا طويلًا حقًّا». أصبحا عندئذ يجلسان إلى المنضدة وأمسكا بقدحيهما -اللذين كان يتصاعد منهما البخار- واكتست نظارة السيدة العجوز بالبخار. ارتشفت قهوتها واستدار هو نحو الخلف. كان الأثاث قديمًا لكنه لم يكن تحفًا أثرية بالتأكيد. خزانة كبيرة مُثبَّتة إلى الحائط، كانت واجهة عرضه الزجاجية بها أكواب زجاجية وتماثيل من البورسلين وصور موضوعة في إطارات. أريكة، عليها وسادات حمراء، ومنضدة منحفضة أمام الأريكة. مقعدان وثيران. كانت هناك ساعة تدق في مكانٍ ما. وبعد ذلك، رأى في الركن المجاور للباب الساعة العالية القائمة على الأرض. وفي وقتٍ لاحق، دق جرسها معلنًا عن تمام الساعة. يبدو أنها لم تنسَ أن تملأ الساعة. قالت السيدة العجوز: «لم يكن معي سوى «تضامن الشعوب». لقد افتقدتك كثيرًا بالطبع يا ابني «لوكاس»».

قال أخيرًا: «لا أعرف كم من الوقت يمكنني أن أبقى...».

«لا» قالتها العجوز ووضعت قدح قهوتها بعنف شديد على قرص المنضدة لدرجة أن القهوة، التي تصاعد منها البخار، انسكبت على يدها، لكنها بدت لم تشعر بهذا على الإطلاق. «لا، لا ينبغي أن تعود إلى هذا البلد المخيف!».

«حسنًا، حسنًا» قالها ليهدئ من روع السيدة العجوز، التي أطبقت قبضتها على قدحها مثلما أرادت على الأرجح أن تتشبث به هو، لكي لا يعود إلى البلد المخيف، أينما كان هذا البلد. «سوف أبقى هنا بالطبع لبعض الوقت؛ لقد جئت للتو». وبعد ذلك أضاف كلمة: «يا جدتي» لأنها

ظلت تنظر إليه عبر نظارتها بعينين كبيرتين مضطربتين يملأهما الخوف.

أومأت برأسها ودفعت يدها نحو منتصف المنضدة ووضع هو يده على يدها ولمس أطراف أصابعها لوهلة. قالت: «ليس معي سوى «تضامن الشعوب» وخلافًا لذلك فأنا وحيدة تمامًا».

سأل: «متى تأتي هي إذًا، أقصد «تضامن الشعوب»؟» كان لا يزال يعرف هذه الكلمة؛ «تضامن الشعوب». كانت جمعية ما، تعتني بالمتقاعدين. تذكر بيتًا صغيرًا مكونًا من عدة طوابق. هناك بداخله كانت توجد جمعية «تضامن الشعوب». لافتة بأحرف منحنية أعلى الباب. لم يكن يعرف أن الجمعية ما زالت موجودة؛ إذ إنها كانت بالطبع شأنًا يخص ألمانيا الشرقية. لكنها ربما كانت تقصد ببساطة أي جمعية أخرى تقدم خدمات رعاية.

قالت: «أنا... أنا لا أعرف بدقة. إن مسؤولي «تضامن الشعوب» يأتون كثيرًا. أستطيع بالكاد أن أتسوق بنفسي ولا أستطيع دائمًا بالطبع... وأدويتي. بعد كل خطاب، كنت أظن بعد كل خطاب أن الآن... الآن سيأتي ابني «لوكاس» عما قريب».

شعر كم كان مُتعَبًا على الرغم من القهوة. لا بدَّ أن الوقت تجاوز منتصف الليل بكثير. كم مرة دقت الساعة القائمة على الأرض بالفعل لتعلن تمام الساعة؟

عندما خرجت السيدة العجوز من الغرفة، لكي تحضر الخطابات التي كان «لوكاس» قد كتبها لها، افتقد حافظة أوراقه. استطاع أن يتذكر أنه كان قد وضعها بالأسفل في المتجر. فلا بدّ أنها ما زالت هناك بالأسفل. لكن ماذا لو رآها أحدهم عبر واجهة العرض التي كان الغبار يعلوها؟ في ضوء النهار الذي سيبدأ بالضرورة عما قريب. أم أنـهم ربما كانوا

حتى قد رأوا كيف ركض داخلًا إلى المتجر أثناء هروبه؟ لا، وإلا كانوا سيتسللون إلى هذا المنزل منذ وقت طويل بالفعل.

حكت له في وقتٍ لاحق أن هذا المتجر كان ملكها، في ما مضى. واندهش من أنها حكت له هذا؛ فلا بدّ أن «لوكاس» حفيدها يعرف هذا بالطبع لكنها أخذت تحكي كثيرًا منذ أن أصبح هنا من جديد؛ لأنها –حسبما قالت– كانت «قد صمتت طويلًا جدًّا» عندما كانت بانتظاره «ابني «لوكاس» ينتمي إلى هنا طبعًا». متجر لبيع الأسطوانات الموسيقية، متجر «بلاتنتروهه»، كان ما زال من الممكن حتى التعرف على الكلمة المكتوبة بشكل مزخرف أعلى زجاج واجهة العرض المتسخ.

«كنت أفرح كثيرًا بكل خطاب» قالتها ووضعت كومة البطاقات البريدية وأغلفة الخطابات على المنضدة. هبَّ مفزوعًا. وكان على الأرجح قد أومأ لوهلة برأسه بعيدًا.

«وكنت أشعر بالخوف في الوقت نفسه أنك وحيد تمامًا في هذا البلد المخيف».

كان مُتعبًا للغاية وتمنى لو أنهما يجلسان على المقاعد الوثيرة أو على الأريكة وليس على الكراسي الصلبة إلى طاولة الطعام. لقد نفدت القهوة. وبعد ذلك أصبحا فجأة يجلسان في المقاعد الوثيرة وكانت هي قد وضعت عليه غطاءً حتى إنها قد ثبتته خلف كتفيه؛ فأصبح رأسه وحده يظهر من أسفل الغطاء. لكنه لم يكن قد شعر بشيء من هذا وكانا قد تصفحا كومة الخطابات والبطاقات البريدية، التي سبق وأن أرسلها لها، من هذا البلد المخيف.

«لكنني لم أكن وحيدًا هناك بالطبع» قالها بعد أن كان قد نظر إلى بعض من البطاقات والخطابات وقرأها. لكن السيدة العجوز كانت قد

اختفت. ألم تكن تجلس للتو على الأريكة؟ وتحكي عن متجر «بلاتنتروهه» الخاص بها وخطاباته على ركبتيها...

وفجأة سمع صوت موسيقى. موسيقى كلاسيكية ما، لم يكن على معرفة جيدة بها.

عزف عشوائي على البيانو، صوت خشخشة، على الأرجح كانت أسطوانة موسيقية قديمة وبعد ذلك بدأ شخص ما في الغناء. ما الذي كان هذا الصوت يغنيه؟ «غريبًا انتقلت...» وعندئذ جاءت السيدة العجوز من جديد. وقفت خلفه، لقد شعر بهذا؛ إذ كانت يداها على المسند الخلفي العريض للمقعد الوثير بجوار كتفيه. وبينما أخذت تغني مع الأغنية بصوتها المبحوح وبنبرة منخفضة «غريبًا رحلت مرة أخرى...»، جلست بجواره على مسند ذراع المقعد الوثير ووضعت ساقًا على ساق كأنها سيدة شابة «لقد عطف عليَّ شهر مايو بإحدى باقات الزهور» وانزلق قميص نومها الرمادي الملطخ بالبقع «والآن أصبح العالم كئيبًا جدًّا... وأصبح الطريق مغطى بالثلوج».

ولم يرَ إلا بعد ذلك مشغل الإسطوانات الموسيقية في غرفة نومها الكبيرة. كان للغرفة بابان؛ وكان أحدهما يؤدي إلى غرفة المعيشة والآخر إلى الدهليز. كانت الشقة عمومًا كبيرة جدًّا؛ وبها خمس أو ست غرف، وكان «لوكاس» قد عاش في واحدة منها.

استلقى في الفراش، في فراش «لوكاس»، ونظر من جديد إلى الخطابات. كم سبق وأن أرسل إليها خطابات كثيرة. بطاقات بريدية وخطابات طويلة ومعها صور مُلحقة بها. بدا حقًّا في مثل عمره تقريبًا. منتصف الثلاثينيات. «لوكاس» أمام الجبال، «لوكاس» عند النهر، «لوكاس» في السيارة «الجيب»، «لوكاس» مع أهل البلد، «لوكاس» والرفاق. «جدتي الحبيبة، أنا في حال جيدة، حتى وإن كنت أشعر كثيرًا بالحنين إلى الوطن».

ساد الصمت عندئذ في الشقة. «اذهب بجدتك العجوز إلى الفراش» كانت قد قالتها عندما كان صوت الأغنية الأخيرة قد خفت ولم يتبقَّ سوى صوت خشخشة منبعث من مكبرات الصوت ثم صوت ذراعٍ مشغل الأسطوانات الموسيقية الذي يتم الإمساك به عاليًا وإعادته ثانيةً «مثلما كنت أذهب بك سابقًا إلى الفراش يا ابني «لوكاس»».

كان قد اقتادها إلى غرفة النوم لكن في الحقيقة كانت هي من اقتادته؛ لأنه لم يكن على دراية بهذه الشقة الكبيرة الغريبة عنه. كانت قد اتكأت عليه وأصبحت عندئذ تتنفس بصعوبة وعندما استلقت على الفراش الكبير، وضع الغطاء عليها وقالت هي: «فلتظل باقيًا هنا قليلًا يا ابني «لوكاس» حتى أستغرق في النوم».

اعتدلت مرة أخرى وأخذت كوب الماء الموضوع على الكومودينو ومن ثمَّ كان عليه أن يُحضِر لها بضعة حبوب أدوية من رف الكومودينو الذي كان مكتظًّا بعلبِ حبوب الأدوية. واحتاج هو بعض الوقت لكي يجد حبوب الأدوية المناسبة. دست حبوب الأدوية بين شفتيها بأيدٍ مرتعشة واحتست جرعة ماء. أصابها السعال وأخذت تزدرد ريقها وتزدرد ريقها واضطرت أن تمضمض مرة أخرى وتحتسي الماء حتى أصبح الكوب خاويًا.

«فلتبقَ جالسًا هنا قليلًا يا ابني «لوكاس»» قالتها وأضافت: «حتى أستغرق في النوم».

«بكل سرور» قالها وجلس على حافة الفراش وسمع صوت دقات الساعة العالية القائمة على الأرض والمنبعث من غرفة المعيشة ورأى على الوسادة وجه السيدة العجوز الصغير، والذي بدا متقلصًا بسبب الإجهاد، وسرعان ما بدأت السيدة العجوز في الشخير بصوتٍ منخفض. عندما أراد أن يطفئ الأباجورة، رأى على الكومودينو المجاور للفراش -والذي كان

مشغل الإسطوانات الموسيقية موضوعًا عليه أيضًا- صورة موضوعة في إطار. كانت أكبر قليلًا من الصور الموضوعة في غرفة المعيشة والتي سبق وأن تأملها قبل لحظات بالفعل. كان قد رأى السيدة العجوز عندما كانت لا تزال صغيرة السن في متجرها «بلاتنتروهه»، سيدة ورجلًا، زفافًا، قبل وقت طويل، شجرة عيد الميلاد، وفتاة أمامها جالسة على الأرض، هدايا. ورأى في غرفة النوم، على الكومودينو المجاور للفراش، طفلًا على ركبتي... جدته. «لوكاس» على حجر جدته، طفل ذو شعر أشعث وعمره ثلاثة أو أربعة أعوام ربما. تذكر أنه كان في فصله بالمدرسة في ما مضى أيضًا ذات مرة طفلًا نشأ في كنف جدته. ماذا جرى لوالديه؟ هل ماتا أم أنهما غير اجتماعيين (مدمنا خمور ربما) أم أنهما رحلا بعيدًا... ربما كان قد جلس هو و»لوكاس» قبل سنوات كثيرة في دار السينما ذاتها، دار سينما «حديقة الشتاء» أو «دار سينما الصداقة»، في العرض السينمائي المخصص للأطفال الذي كان يعرض في ضحى كل يوم أحد.

نظر إلى السيدة العجوز التي كانت قد توقفت عن الشخير وأصبحت مستلقية أسفل الغطاء بلا حراك تمامًا. ربما كانت في الصورة في نهاية الخمسينيات من عمرها وبدت هناك -بطريقة غريبة- عجوزًا وشابة في الوقت نفسه وكانت تنظر بحدة شديدة بينما كانت تمسك الفتى بإحدى يديها.

ظن لوهلة أنها قد ماتت بسبب الطريقة التي كانت تستلقي بها أسفل الغطاء لكنها بدأت بعد ذلك في الشخير بصوتٍ منخفض مرة أخرى. وأطفأ النور وخرج من الغرفة.

«جدتي العزيزة، لا يمكنك أن تتخيلي كيف يحيا الناس هنا. الكثيرون في فقر مدقع. وأغلبهم ممتنون حقًّا أننا متواجدون هنا. هذا البلد رائع الجمال. أنا سعيد أنني هنا. نحن نشيد ونعمر يا جدتي لكن من الجبال

تأتي الحرب. أود حقًّا ألا أكتب لكِ هذا لكن لهذا السبب نحن هنا. لا تقلقي؛ نحن ننعم بحماية جيدة ومزودون بتجهيزات جيدة. أفكر كثيرًا فيكِ وأرجو أن تكوني بحالٍ جيدة وأن تبقي في صحة جيدة. سوف أعود عما قريب».

واستلقى في الفراش في غرفة «لوكاس» وبجواره الخطابات وكان قد خلع ملابسه ما عدا الملابس الداخلية وتسلل أسفل الغطاء وأرهف السمع إلى الشقة وترقب في كل لحظة أن يسمع صوت خطوات على السلالم، الصول «لوكاس» الذي عاد من ذلك «البلد رائع الجمال» حسبما كان يسميه هو أو من ذلك «البلد المخيف» حسبما كانت تسميه السيدة العجوز.

في ضحى اليوم التالي، ذهب للتسوق من أجلها. بعد أن استيقظ من نومه وقابل السيدة العجوز في غرفة المعيشة في وضح ضوء النهار -الذي نفذ عبر النوافذ المفتوحة- كان قد ظن لوهلة أنها سوف تدرك عندئذ خطأها لكنها نظرت إليه باضطراب للحظة فقط وتناولت يده بعد ذلك وضمتها بكلتا يديها العجوزين الصغيرتين وابتسمت وقالت بصوتٍ منخفض: «صباح الخير يا ابني «لوكاس»» كأنه لم يغب أبدًا.

عندما عاد وكان قد فتح باب المنزل –وكانت هي قد أعطته المفاتيح والمال- سمع أصواتًا في بئر السلم. دخل بخفة عبر الباب الآخر إلى متجر الأسطوانات الموسيقية وجلس القرفصاء على الأرض هناك وانتظر حتى سمع صوت خطوات في بئر السلم، قادمة من أعلى، وانفتح باب المنزل وانغلق مرة ثانية بقوة وبعد ذلك أصبح كل شيء هادئًا. رأى حافظة أوراقه موضوعة إلى الحائط. تسللت أشعة الشمس عبر اللوح الزجاجي المتسخ. تناول كيس المشتريات وعاد إلى بئر السلم.

«يا للخسارة» قالتها السيدة العجوز عندما أفرغ المشتريات في المطبخ

«أنت جئت متأخرًا للحظة. كانت السيدة الشابة اللطيفة القادمة من جمعية «تضامن الشعوب» تود أن تتعرف عليك. لقد حكيت لها بالفعل كثيرًا عنك».

«ماذا حكيتِ لها إذًا؟» سألها بينما أخذ يرتب المواد الغذائية في الثلاجة ويضعها على منضدة المطبخ.

«أن حفيدي بطل، بطل حقيقي. ضابط».

قال: «أنا مجرد ضابط صف يا جدتي».

«فلتكن هنا المرة القادمة عندما تأتي هي. وعندئذ سأعرفكما بعضكما على بعض. إنها سيدة شابة وجميلة يا ابني «لوكاس». في مثل عمرك بالضبط».

«حسنًا يا جدتي».

تناولا الطعام سويًّا في غرفة المعيشة. كانت الجدة قد طهت قطع لحم الخنزير المملحة التي سبق وأن اشتراها هو من القصاب. ومعها بطاطس مملحة. ألم تكن النوافذ مفتوحة منذ قليل؟ غبار في هذا الضوء. وكانت الجدة قد رجته أن يشتري نبيذًا وهكذا أخذا يحتسيان النبيذ وهما يتناولان الطعام.

«في صحة عودتك إلى المنزل يا ابني «لوكاس»!».

دارت أسطوانة موسيقية. ألم تكن هذه هي الأغاني نفسها التي دارت في الليلة السابقة وكذلك في الصباح؟ «غريبًا انتقلت...» وبعد ذلك قفز ذراع مشغل الأسطوانات الموسيقية عاليًا وامتزج مع صوت الخشخشة، الذي تسلل عندئذ من مكبرات الصوت، صوت دقات أو طرق عالٍ ومستمر منبعث من مكانٍ ما. وعندئذ فقط اعتراه الشعور بالخوف؛ هل

كان هناك شخص ما عند الباب؟ لكنه فهم بعد ذلك: كانت جدته تعد شرائح لحم محمرة. سمع كيف كانت تدق اللحم بشاكوش أو مطرقة في المطبخ لتجعله رقيقًا.

صاح قائلًا: «أنا شبعان يا جدتي، شكرًا يا جدتي».

«لا بدَّ أن يتناول ابني «لوكاس» طعامًا يليق به وليس دائمًا «دونر» و»دونر» فقط!».

«إنهم لا يتناولون هناك «دونر» يا جدتي!».

لكن جدته واصلت الطرق ببساطة.

«كفى يا جدتي، لقد أصبح رقيقًا بما فيه الكفاية!».

«ماذا تقول يا فتاي؟».

«لقد أصبح اللحم رقيقًا بما فيه الكفاية بالفعل يا جدتي!».

«لا بدّ أن يذوب على لسانك يا ابني «لوكاس»» وواصلت جدته الدق على اللحم. «لا بدَّ أن يصبح مثل الزبد قبل أن أغطيه بالبيض المخفوق والبقسماط قبل التحمير».

«هو على ما يرام بالفعل يا جدتي».

عندما أغلق عينيه، شعر بأشعة الشمس على وجهه. عندما أغلق عينيه ورمش بعينه بعد ذلك في ضوء الشمس، الذي نفذ عبر النافذة، رأى جبالًا، جبالًا ضخمة أمام سماء زرقاء اللون، ورأى سيارات «جيب» وكان هو نفسه جالسًا في واحدة منها ورأى نهرًا، انعكست فيه الجبال والسماء ورأى ألعابًا نارية في الليل ورأى بوادي لا تنتهي ورأى سيدة شابة. ركضا ذراعًا بذراع وكان يرتدي ما يشبه الزي العسكري وكانت هي قد

دست يدها أسفل أحد الشرائط الموضوعة على كتفيه. ورأى خيامًا وسلكًا شائكًا ورأى رجالًا ملتحين يرتدون ثيابًا طويلة ورأى طيورًا كبيرة داكنة اللون أعلى المعسكر وأعلى النهر ورأى أشخاصًا في بئر سلم منزل جدته والذين تسللوا عبر متجر «بلاتنتروهه» والذين تسللوا عبر باب المنزل... «أجانب همج» هتف بها لدرجة أن صدى الصوت أخذ يدوي في الشقة وفي بئر السلم.

عندما فتح عينيه، كانت غرفة المعيشة مظلمة. وكانت كل الأبواب والنوافذ مفتوحة لكن بالخارج بدا أن الليل قد حلَّ من جديد. هتف قائلًا: «جدتي!». ركض في الشقة لكنه كان وحيدًا. ضل طريقه في الغرف، لم يكن الضوء يعمل في أي مكان. ضغط على مفاتيح الكهرباء لكن المصابيح ظلت مظلمة واختلطت عليه الأبواب في ضوء الغسق وبعد ذلك وجد فجأة حافظة أوراقه الموجودة بجوار المنضدة وفتحها؛ ثمرة تفاح وهاتفه المحمول وحاسوبه المحمول. كانت بطارية هاتفه فارغة وفتح حاسوبه المحمول وأعاد تشغيله وواصل الركض في الشقة في ظل الضوء الأبيض للشاشة الصغيرة وأزاح غطاء السرير. آثار مطبوعة في الوسادة. وجد غرفة تخزين، تكدست فيها أسطوانات موسيقية قديمة وقد تجمع الغبار على الأغلفة. أطل ببصره من إحدى النوافذ المفتوحة عن آخرها. كانت المدينة أيضًا مظلمة وكانت السماء رمادية اللون بشكلٍ غريب.

إلى أين ذهبت كل الأضواء؟ لكن عندما أطل ببصره من نافذة أخرى من نوافذ الشقة الكبيرة، رأى تدفق الألوان المتعددة في الشارع الذي كان قد ركض فيه بالأمس. كاد الأمر يبدو وكأن نعيق الأصوات الغريب سوف يتسلل من هناك إليه بالأعلى. في المطبخ، لم يتبقَّ على المنضدة سوى قطعة لحم بها دماء وبجوارها المطرقة التي كانت تتخذ شكل شاكوش. هتف قائلًا: «يا جدتي، أين أنتِ؟».

كم من الوقت استغرق في النوم؟ نفذ ضوء عبر النافذة. لا بدَّ أن النهار قد حلَّ بالفعل. استلقى في الفراش، بين كل الخطابات. كان قد ألقى أثناء نومه الغطاء على الأرض. قلب بصره في ما حوله في الغرفة. رف به نماذج مصغرة لطائرات ونماذج لسيارات دفع رباعي. جهاز صغير لتشغيل الموسيقى المجسمة. خزانة ملابس. في وقتٍ لاحق، وجد أسفل الفراش الصندوق المسطح وبه الزي العسكري والأوسمة. وكان قد قرأ الخطابات في الليل. كانت حادثة على الأرجح.

بالسيارة «الجيب». على الأقل كتبوا هم ذلك.

سمع السيدة العجوز تحدث صوت جلبة بالخارج في الشقة. ذهب إلى الباب وأرهف السمع. سمع كيف سارت في الدهليز أمام الباب، الذي كان يرهف السمع من خلفه، وظلت واقفة لوهلة ثم واصلت السير. استطاع أن يسمع كيف كانت تتنفس بصعوبة، كاد أن يكون صوت لهاث.

أصدرت الأبواب صوت طقطقة، صوت خطواتها في مكانٍ آخر في الشقة الكبيرة، وبعد ذلك أصبحت من جديد في الدهليز. سمع صوت همسها المبحوح «... لقد قلت له لا تذهب إلى هذا المخيف... كيف يمكن لإنسان أن يكون غبيًّا هكذا...» وكانت تختفي بعد ذلك في الغرف الأخرى لتعود من جديد بعد ذلك بوقتٍ قليل. صامتةً وتتنفس بصعوبة في بعض الأحيان وبعد ذلك كانت تهمس من جديد بلا انقطاع بصوتها المبحوح «كان يجد الأمر جميلًا، كيف يمكن لإنسان أن يكون غبيًّا هكذا، الفتى المسكين، لو أتى إلى المنزل، سيستطيع أن يشهد شيئًا ما...» وتساءل من أين استمدت السيدة -التي تجاوز عمرها ثمانين عامًا بكثير- القوة.

استلقى من جديد على الفراش، بين الخطابات. كان يعرف أنها لن تدخل إليه.

استغرق في النوم من جديد وبعد ذلك استيقظ؛ لأنه سمع أصواتًا في الشقة. لم يكن همس السيدة العجوز أمام الباب؛ إذ إن شخصًا ما كان قد جاء. ذهب بخفة مرة أخرى إلى باب الغرفة. سيدة. صوت شاب. يبدو أنها أحضرت أو طهت طعامًا؛ فقد استطاع أن يشم الرائحة، بطاطس وشيئًا ما، ذكره بالوجبات المدرسية. سمع كيف كانت تُلِح على السيدة بالقول بهدوء.

«أجل، سوف يساعدكم بالطبع عندما يعود. لن أشعر بالقلق. يجب أن تتحلي بالصبر، سوف يعود عما قريب بالتأكيد. أنت تعرفين بالطبع أن الشباب...».

حاول أن ينظر عبر ثقب الباب لكنه لم يتمكن من رؤية شيء في الدهليز؛ فقط أصاب تيار الهواء البارد عينه فحسب. سمع السيدة العجوز تقول بصوتٍ عالٍ جدًّا ومن مسافة قريبة جدًّا: «أنا أحلم، أحلم في كل ليلة بفتاي. إنه بالطبع مثل ابني. إنه ابني «لوكاس»، هل تفهمينني، ليس لديه شخص آخر سواي وأنا...» ومن جديد أخذت السيدة ذات الصوت الشاب تلح عليها بالقول بهدوء: «من الجيد بالطبع أنك تحلمين به، صدقيني كل شيء سيصبح على ما يرام!» سمع صوت خطوات وبعد ذلك ساد الهدوء وبعد ذلك بقليل غادرت السيدة -التي كانت قد أحضرت الطعام- الشقة.

انتظر دقيقة أو دقيقتين وبعد ذلك فتح النافذة بخفة قدر استطاعته ونظر نحو أسفل. خرجت من المنزل سيدة شقراء، ترتدي معطفًا أبيض. ذهبت إلى عربة نقل صغيرة مكتوب عليها «تضامن الشعوب» والتي كانت متوقفة بجوار طريق المشاة وقبيل أن تستقل العربة ونظرت إلى أعلى نحوه. ارتجف متقهقرًا والتصق بالحائط وانتظر من جديد دقيقة أو دقيقتين ثم أغلق النافذة.

شعر بالجوع والظمأ. كانت حافظة أوراقه موضوعة عند طرف الفراش من ناحية الرأس. فتحها ومدَّ يده إلى ثمرة التفاح التي كان يأخذها معه كل مرة عند ذهابه إلى العمل وكان لا يتناولها في أغلب الأوقات سوى في المنزل أو في اليوم التالي.

عندما حلَّ المساء، ارتدى الزي العسكري. كان مقاس الزي أصغر من مقاسه بكثير جدًّا.

عندما طوى سرواله واستلقى على الفراش، سقطت ميدالية مفاتيحه من الجيب. تذكر أنه قد بدَّل أقفال شقته في وقتٍ ما ووضع المفاتيح على الكومودينو.

نظر إلى الأوسمة الموجودة في الصندوق. صليب فضي على شريط ملون بالألوان الأسود والأحمر والذهبي. وعلى شريط آخر ملون بالألوان الأسود والأحمر والذهبي، كانت هناك ميدالية بها نسر، كانت هناك حروف كلمة **معركة** مكتوبة بخطٍّ كبير أسود اللون. دسها في جيب زيه العسكري.

جلس على حافة الفراش حتى حلَّ الليل من جديد. سمع صوت السيدة العجوز تعبث في الشقة، صوت موسيقى وخشخشة الإسطوانة الموسيقية من جديد ثم ساد الهدوء.

فتح باب غرفته بحذر ودخل إلى الدهليز. شعر فجأة أنه مضطر إلى التبول بشكلٍ عاجل وحاول أن يتذكر أين دورة المياه.

رأى أن باب غرفة نوم السيدة العجوز كان مواربًا فقط وذهب إلى دورة المياه. أصدرت ألواح الأرض الخشبية صوت صرير وبدا له أن صوت هذا الصرير كان يزداد ارتفاعًا كلما ازداد حرصه عند تسلله عبر الدهليز. وعندما كاد أن يبلغ باب دورة المياه، تحول صرير الخشب القديم إلى صوت أنين كأن الألواح الخشبية كانت تتأوه أسفل قدميه. وتمهَّل بضع

مرات لكي يتوقف صوت الصرير والأنين وظل واقفًا وأرهف السمع لكنه لم يسمع شيئًا خلف الباب الموارب. بدت نائمة بعمق. انبعث من غرفة المعيشة صوت دقات الساعة القائمة على الأرض فحسب.

وقف أمام حوض الغسيل واختنق. وكان قبل ذلك قد رفع غطاء المرحاض لوهلة وتركه على الفور من جديد؛ فأحدث صوتًا مدويًا على البورسلين.

غسل وجهه الذي بدا شاحبًا للغاية في المرآة أعلى سترة زيه العسكري الخضراء. لماذا لم ينظف أي شخص المرحاض اللعين؟ لماذا جاءت إذًا جمعية «تضامن الشعوب»؟ غسل وجهه. التصقت شعرة طويلة رمادية اللون بين أصابع يده. حاول أن يمسحها على حافة حوض الغسيل. لكنه لم يتخلص منها ببساطة ووضع يده في خيط الماء الدافق.

وضع يده على زجاج المرآة ورأى كيف تحركت راحتا يده ببطء ثم أطفأ النور بيده الأخرى. كان زر النور بجوار المرآة. ظل واقفًا لبرهة في دورة المياه ثم مضى إلى الدهليز وعبر الدهليز إلى غرفة نومها.

عندما توجه إلى فراشها، سمعها تصدر صوت شخير. جلس على الكرسي المجاور للكومودينو.

كان فمها مفتوحًا وكانت شفتاها هزيلتين وكادتا أن تختفيا في الفتحة المعتمة لفمها الذي انبعث منه الشخير. كان هناك على الكومودينو كوب زجاجي به أسنانها. وكان الدرج مفتوحًا ورأى هو الشرائط البلاستيكية البيضاء لحبوب الأدوية. «جدتي» همس بها ولمس وجهها. انحنى نحو الأمام وشعر كيف تصلبت عضلات ذراعه أسفل أكمام سترة زيه العسكري. هل كانت قد فتحت عينيها لوهلة وابتسمت بعد ذلك عندما رأته؟ كان قد أخذ فرشاة تنظيف المرحاض ونظف صحن المرحاض بعد

أن وقف في دورة المياه عند المرآة. كان قد تحرك بالفرشاة على الصحن البيضاوي المصنوع من البورسلين مرارًا وتكرارًا وضغط على الفرشاة بإحكام في ماء فتحة المرحاض وسكب مواد التنظيف في الصحن المصنوع من البورسلين. كان قد قام بأعمال التنظيف ومضى عبر جميع غرف الشقة. أغلق جميع الأبواب. كانت جدته مستلقية أسفل غطاء الفراش ولم يكن يتضح منها سوى جبينها وشعرها. أبيض للغاية.

سمع صوت خطواته في بئر السلم. قبل أن يفتح باب المنزل، مسح على زيه العسكري ليجعله مستويًا وشعر بوجود الأوسمة في الجيب الجانبي لسترة زيه العسكري ووضعها على قماش زيه العسكري على الرغم من أنه لم يكن يدري في أي موضع من الزي يجب عليه أن يثبتها بالضبط. وبعد ذلك فتح الباب ووقف أمام المنزل. حلَّ المساء من جديد وما زال موجودًا وانصرف هو، في اتجاه الجسر، في اتجاه الطيور الكبيرة، في اتجاه الشارع الذي كان قد مضى فيه في وقتٍ من الأوقات.

الأقمار الساكنة

مضى بعض الوقت على ذلك كله بالفعل. ولا علاقة بين ظهور هذا من جديد وبأنني تذكرت هذه الليالي الطويلة -التي كانت في حقيقة الأمر قصيرة لأن حينها كان الصيف قد حلَّ- وهذه الأيام المضيئة الطويلة وهذه الليلة تحديدًا وبين أن كل الظروف الدينية والسياسية المحيطة بالأمر -أو أيًّا كانت التسمية التي يود الناس أن يطلقوها أيضًا- قد صارت حاضرة فجأة من جديد. ما هو الحاضر حقًّا؟ لا شيء. أصبحنا في تلك الأثناء في غير ذلك المكان من جديد. وأنا أعرف عما أتحدث؛ فأنا على دراية جيدة بأمور الحضور؛ لأنني أدير مطعمًا لبيع الوجبات السريعة في منزل صغير مسطح به مظلة، كان بداخله في الماضي محطة وقود.

كنت أسكن آنذاك في أحد المباني الشاهقة ذات الطوابق المتعددة والمجاورة لمنتزه المدينة، بالأعلى في الطابق الرابع عشر، وعندما كنت أطل من إحدى النوافذ في بئر السلم، حيثما كنت أدخن سيجارة أحيانًا في المساء وألقي نظرة على المدينة، كنت أستطيع أن أرى مطعمي الصغير لبيع الوجبات السريعة على الرغم من أنه كان يقع على بعد مسافة تزيد عن كيلومترين. وكنت قد طليت الجدران الخارجية لمحطة الوقود باللون الأحمر وكانت هذه فكرة رفيقي «ماريو» عندما افتتحنا سويًّا مطعم بيع الوجبات السريعة.

«من هو «ماريو»؟ احكِ لي عن «ماريو»».

««ماريو» صديق قديم، نحن نعرف بعضنا بعضًا منذ التحاقنا بالجيش».

«متى التحقت بالجيش؟».

«مضت عدة سنوات على هذا الأمر بالفعل. كنا نطهو الطعام، على متن سفينة».

«على متن سفينة؟».

«أجل، على متن سفينة. كنا في سلاح البحرية. بالأعلى عند الشاطئ. وكان «ماريو» ما زال طباخًا سيئًا أكثر مني».

«لا أصدقك في هذا الأمر».

«إنها الحقيقة، كنا نطهو الطعام ونحمره مثل المجانين».

«لكنّ يديك يدا طباخ، وما تطهوه من وجبة همبرجر مميزة وسلطة البطاطس...».

«أجل إنها طيبة المذاق. أنت محق في هذا. إنها طيبة المذاق حقًّا. وسلطة البطاطس هي وصفة من جدتي».

«وصديقك القديم «ماريو»، أين هو الآن؟».

«أراد أن يعود إلى الشاطئ، كانت لديه فكرة من قبيل إنشاء مطعم عائم لبيع الوجيات السريعة...».

«مطعم عائم لبيع الوجبات السريعة؟».

«أجل، شيء ما من هذا القبيل على الطراز السياحي. كانت لديه دائمًا أفكار مجنونة هكذا، «ماريو» هذا».

وقفنا إلى النافذة في بئر السلم وأخذنا ندخن ونلقي نظرة على المدينة.

كنا نلتقي كل مساء تقريبًا عند النافذة في بئر السلم؛ لأنها كانت تدخن سرًّا.

كانت تسكن في الطابق ذاته، سويًّا مع «حامد»، صديقها.

كان «حامد» يأتي أحيانًا في الظهيرة إلى مطعمي لبيع الوجبات السريعة ويشتري شطيرة شريحة لحم محمرة ويحتسي أحد المشروبات الغازية أو قدحًا من الشاي. كان يعمل في مقهى إنترنت ضخم، على بعد مسافة بضعة شوارع من حي العرب. على الرغم من أن كلمة «حي» مبالغ بها بعض الشيء. فقد كان في حقيقة الأمر مجرد شارع عريض جدًّا وطويل جدًّا، كان يؤدي إلى الطرف الشرقي للمدينة. وقد اصطفت على جانبي هذا الشارع أكشاك بيع «الدونر» ومتاجر بيع الهواتف المحمولة وأماكن بيع وشراء بعض البضائع ومحلات بيع الخردة إلى جوار بعضها وكان هناك أيضًا عدد كبير من مقاهي الإنترنت. وفي بقعة ما هناك كان يقع أيضًا مقهى الإنترنت الذي كان «حامد» يعمل فيه. لم يسبق لي أبدًا أن زرته في مكان عمله ولم يكن المكان أيضًا ركنًا أشعر فيه بالراحة على نحوٍ خاص. أغلب الظن أن مقهى الإنترنت الكبير كان مملوكًا لابن عم «حامد» لكن هذا الأمر لم يكن يثير اهتمامي حقًّا. وكنت لا أعرف لوقتٍ طويل أيضًا ما هو مسقط رأس «حامد». الكويت؟ أم العراق؟ أم أنه لبنان؟ لكن هذا الأمر أيضًا لم يكن بمثل تلك الأهمية على الرغم من أنني كثيرًا ما كنت أجلس مع «ماريو» مساءً إلى طاولة الخرائط في سفينتنا ونتطلع إلى البلدان والبحار ونشرب من قارورته التي كان محفورًا عليها شعار «الاستخبارات السوفيتية» والتي سبق وأن ابتاعها من ضابط روسي عجوز. كان هذا قد حدث في نهاية التسعينيات. وكان الرجل العجوز، قبطاننا -والذي كان في حقيقة الأمر مجرد رئيس طهاة السفينة- يحكي لنا في بعض الأحيان عن حرب الخليج الأولى عندما كان «يبحر بالسفينة» قبالة سواحل «بلاد المشرق» في البحر الأبيض المتوسط، حسبما أسماها. في تلك الأثناء، مرَّ وقت طويل على كل هذا، على حرب الخليج الأولى والثانية وكل شيء عمومًا. لكنني قلت هذا بالفعل.

جاء «حامد» إلى مطعمي لبيع الوجبات السريعة للمرة الأولى عندما كنت أتفحص السجادة قبيل الانتهاء من العمل. كانت السجادة تغطي الأرض من نضد بيع الوجبات وحتى الباب وكنت في كل يوم أتذكر صديقي القديم «ماريو»؛ لأنه هو من فكَّر في أن يضع سجادة في مطعمي لبيع الوجبات السريعة والذي كان في البداية مطعمـنا. وكان قد قال: «في سبيل الشعور بالراحة؛ هكذا سوف يشعر الناس على الفور بالراحة، هكذا سوف يشعرون على الفور كأنهم في المنزل، أو أفضل من ذلك أيضًا، كأنهم على سجادة المهرجانات الحمراء! وهذا يتناسب بصورة جيدة جدًّا مع الطلاء».

إلا أن وجود أرض مغطاة بسجادة في مطعم لبيع الوجبات السريعة لا يجلب سوى الغضب. كانت هناك طاولتا وقوف بلاستيكيتان أمام نضد بيع الوجبات وعندما كان الناس يتناولون هناك وجبات الهامبرجر أو السجق المحمر الخاصة بهم، كان الكاتشب أو المايونيز أو المستردة تنسكب دائمًا على الأرض، أي على السجادة.

وفي الشتاء، كان الناس يجلبون معهم الطين الممزوج بالثلج والوحل إلى مطعمي لبيع الوجبات السريعة وعلى الرغم من أنه أصبح من الشائع شيئًا فشيئًا أن يجمع ملاك الكلاب أكوام فضلات كلابهم في أكياس صغيرة وأن يلقوا الأكياس بعد ذلك في صناديق القمامة العامة، فقد كانت هناك كمية كبيرة من الفضلات في الشوارع وكل هذه القاذورات، الممتزجة بالثلج أو من دونه، والممتزجة بالوحل أو دونه، تلتصق بعد ذلك في أحذية الناس فأصبحت السجادة ذات اللون الأحمر الداكن تزداد اتساخًا دائمًا ويزداد لونها قتامة دائمًا.

كنت قد استبدلتها عدة مرات بالفعل وفي نهاية الشهر كانت تأتي شركة ومعها ماكينة تنظيف السجاد. وعلى الأرجح أنني تمسكت طويلًا هكذا

بالوجود السخيف للسجاد؛ فقط لأنها كانت ذكرى تذكرني بصديقي القديم «ماريو».

«السيراميك أفضل» قالها «حامد» فاعتراني الشعور بالفزع. كنت قد كشطت السجادة بسكين صنع الهامبرجر؛ لأن السجادة كانت قد أصبحت خشنة من جديد في بعض الأجزاء. استدرت وحاولت أن أخفي سكين صنع الهامبرجر وراء ظهري لكنه لم يرَه على ما يبدو وقال مرة أخرى: «السيراميك أفضل».

دسست سكين صنع الهامبرجر في حزامي وراء ظهري واستدرت إلى الزبون -الذي جاء متأخرًا- ونظرنا سويًّا إلى السجادة وقلتُ: «أجل، السيراميك ربما يكون أفضل».

ولم يرد بخاطري إلا عندئذ أنني كنت أعرفه من المنزل الشاهق ذي الطوابق المتعددة وأنني كنت قد قابلته هناك عدة مرات في الردهة أو في المصعد وسألته: «الطابق الرابع عشر؟» وكان يومئ برأسه ويقول: «الطابق الرابع عشر» وعرّفني بنفسه بعد ذلك وعرَّفته بنفسي وتصافحنا.

قال: «كنت أراك في بعض الأحيان، عندما كنت تأتي إلى هنا... مبكرًا... مبكرًا جدًّا».

قلت: «أجل. مبكرًا جدًّا. في الليل تقريبًا».

قال: «كنت لبعض الوقت في موقع البناء. ولذلك كنت أخرج مبكرًا جدًّا أيضًا من المنزل».

قلت: «أفضل كثيرًا السير على الأقدام في الصيف. أترك السيارة هنا. تكون نزهة جميلة في المدينة».

«مطعمك جيد. جيد جدًّا» استدار وأومأ برأسه باستحسان. «كنت أظن

أننا جيران وأنا...».

قلت: «حسنًا. تقريبًا».

«جيران» قالها مرة أخرى. لم أدرك إلا بعد ذلك أن كوننا *جيرانًا* يعد أمرًا مهمًّا بالنسبة له وأن تبادل الزيارات والأشياء من هذا القبيل يعد تقليدًا أي عادة قديمة هناك حيث مسقط رأسه.

«وأرى أنك تدخل إلى هنا، كل صباح...».

«كل صباح». طرقت بإصبع السبابة ثلاث مرات على النضد لكي أتحقق على الأرجح أن هذا كله سيظل هكذا أي الاستيقاظ مبكرًا ومطعمي لبيع الوجبات السريعة وما إلى ذلك.

«ولأنني أفكر...».

«تفضل. هل تريد أن تتناول شيئًا أو أن تحتسي قهوة؟ أنت ضيفي».

وددت في البداية أن أقدم له كأس بيرة لكنني كنت قد رأيتُ مسبحته الصغيرة التي كان يمسك بها بين إصبعي إبهام وسبابة يده اليمنى. كان يحرِّك حبات المسبحة بين أصابعه ببطءٍ تام بينما كان يتحدث.

«هل لديك شاي أيضًا؟».

قلت: «بالطبع. شاي «إيرل جراي»».

علَّقت لافتة «مغلق» على الباب. كانت الساعة قد جاوزت الثامنة بقليل واحتسينا قدحًا من الشاي سويًّا. كنت مضطرًّا أن أذهب إلى الخلف حيث غرفة التخزين لكي أحضر علبة جديدة من أكياس الشاي؛ فأغلب الزبائن، الذين كانوا يجلسون عندي، كانوا يحتسون قهوة أو بيرة أو مشروبات غازية وأنا أيضًا لم أكن من النوع الذي يفضل احتساء الشاي

الأسود. أراد «حامد» أن يعرف كيف يدار مطعم لبيع الوجبات السريعة كهذا المطعم ومن أين آتي باللحم والخضروات والأعشاب وإن كان لديَّ أيضًا طعام دون لحم خنزير.

«بالطبع. لديَّ كمية كبيرة من لحوم الأبقار هنا. حسنًا، إن وجبات الهامبرجر المميزة بها النصف والنصف».

«النصف والنصف؟».

«أجل، مزيج من لحم الخنزير واللحم البقري».

قال: «نحن مسلمون» وأضاف: «وأنت تعرف...».

قلت: «أجل، أجل. أعرف. لا مشكلة. لديَّ... لا، انتظر، إن وجبة «تورينجن» الأصلية يوجد بها أيضًا لحم خنزير بالطبع».

قال: ««تورينجن»، هل تقصد السجق المحمر الشهير؟».

«هل تعرفونها أيضًا لديكم؟ أقصد هناك في بلادك؟».

وبعد ذلك حكيت له كل مكونات سجق «تورينجن» المحمر وكيف يعدونها وكيف أشويها جيدًا على فحم الخشب.

«أليس لديك أي طعام يخلو من لحم الخنزير؟».

قلت: «بلى، بلى. شرائح لحم محمرة. شرائح لحم بقري محمرة طيبة المذاق».

وقفنا أمام نضد بيع الوجبات على سجادة «ماريو» القذرة واحتسينا شاينا. أشرت إلى اللوحة الكبيرة التي كانت تضم عروض الطعام والمعلقة أعلى الخزينة. «انظر شطيرة شرائح اللحم المحمر التي أتميز بها، شطيرة الحادي عشر من سبتمبر».

«شطيرة شرائح لحم محمر الحادي عشر من سبتمبر؟» نظر إليَّ ومال برأسه وخلع نظارته. كان حليق الذقن تمامًا وكان يرتدي نظارة مستديرة ولم يكن يبدو مثل أحد الملالي الذين كثر الحديث عنهم آنذاك. نظر أمامه نحو لوحة المأكولات والأسعار وارتدى نظارته المستديرة وخلعها مرة أخرى ثم نظر إليَّ وابتسم.

قلت: «دعابة صغيرة. شطائر شرائح لحم محمر «نيويورك»، كما ترى». أشرت إلى اللوحة. كان ثمنها 3,90. فقد كنت أكره هذه الأسعار التي تنتهي برقم تسعة وتسعين.

كانت الأسعار الأحب لديَّ تلك التي تنتهي برقم خمسين، أي 3,50 على سبيل المثال أو الأسعار الخالية من الكسور مثل مارك واحد -أو يورو واحد الآن بالطبع- لكنني كنت أتذكر كثيرًا كشكًا لبيع السجق المحمر في طفولتي، كان يقع بجوار أحد دور السينما. كان ثمن السجق هناك ماركًا واحدًا. لكن كان على الناس أن يتكيفوا مع الزمن. وكان سعر 3,50 يحقق لي ربحًا قليلًا جدًّا أما قهوتي، التي كان ثمنها يورو واحدًا، فكانت أمرًا كلاسيكيًّا. كانت مواقع البناء ما زالت موجودة بدرجة كافية وستكون موجودة دائمًا وفي كل صباح وكل ظهيرة كان عمال البناء يأتون.

«شطيرة شرائح لحم محمر الحادي عشر من سبتمبر» ما زال يبتسم وقد هزَّ رأسه.

«لا بدّ أن تجرب شطيرتي الشهيرة، شطيرة شرائح لحم محمر الحادي... «نيويورك»». ذهبت إلى الخلف حيث الشواية. كانت لديَّ هناك شريحة لحم طازجة حقًّا موضوعة على رقاقة من الألومنيوم والتي كانت من المفترض في حقيقة الأمر أن تصبح وجبة عشائي. كانت لديَّ شواية تعمل بفحم الخشب وشواية كهربائية. كان مطعمي لبيع الوجبات السريعة صغيرًا جدًّا في الحقيقة. انتبهت إلى هذا الأمر من جديد عندما كنت أعد

لــ«حامد» شطيرة شرائح اللحم المحمر الشهيرة. في ما مضى، كان المطعم في الحقيقة محطة وقود صغيرة جدًّا وذلك وقتما كان سعر قطع السجق المشوية ماركًا واحدًا. ولم تكن أيضًا شطيرة شرائح اللحم المحمر عندي، والتي كان سعرها 3.50، مشهورة حقًّا؛ فكان أغلب الناس يأتون من أجل وجبة الهمبرجر المميزة عندي أو من أجل سلطة البطاطس. انحنى «حامد» على نضد بيع الوجبات. قال: «معذرةً. لكن...».

قلت: «ألم نكن نتعامل بنوعٍ من الألفة؟ وما سبب اعتذارك؟».

قطعت ثمار طماطم وخيار؛ لأنها من محتويات شطيرة شرائح اللحم المحمر عندي، حتى وإن كانت شطيرة شرائح اللحم المحمر الشهيرة حقًّا في نيويورك تخلو من الخيار والطماطم. كان صديقي القديم «ماريو» قد حكى لي عن شطيرة اللحم المحمر تلك. فقد قضى بعض الوقت في «نيويورك» في نهاية التسعينيات أو أنه قد زعم هذا على الأقل.

نظر باضطراب بعض الشيء إلى الشواية وإلى لوح تجهيز الطعام حيث كنت أقطع شريحة اللحم وثمار الطماطم والخيار إلى شرائح رفيعة رقيقة وقال: «أود فقط أن أسأل ألا يمكن أن لحم الخنزير وشرائح اللحم المحمر... لا يجوز أن يلمسا بعضهما بعضًا».

«لا» قلتها وأشرت إلى السكين الموضوع على الشواية وأضفت: «لكل شيء مكانه المحدد هنا. الهامبرجر موضوع هنا وسجق «تورينجن» موضوع هنا... وفي أغلب الأحيان أجهز شرائح اللحم المحمر هنا على الشواية الكهربائية». لم يكن هذا أمرًا مضبوطًا؛ فقد كنت أستخدم الشواية الكهربائية فقط عندما كانت الشواية، التي تعمل بفحم الخشب، لا تروق لي أو عندما أكون مضطرًّا لأن أجهز بعض الطلبات لكن ماذا في الأمر لو أن شطيرة شرائح اللحم المحمر لديَّ احتوت على قليل من دهن الخنزير...

«لا، لا، لا ينبغي أن ترى الأمر هكذا. إن «حامد» يدقق جدًّا في هذا الأمر. نحن ندقق جدًّا في هذا الأمر. نحن نود أن تكون طاهرين».

«وأنتِ هل تعتقدين أن الرب لا يحب سجق «تورينجن» الذي أعده؟» وقفنا إلى النافذة وأخذنا ندخن. كنت قد فتحت، كالمعتاد، النافذة الصغيرة في بئر السلم بالمفتاح ذي الحواف الأربعة الذي كنت أحمله في ميدالية المفاتيح. كانت كل النوافذ تُغلَق بإحكام لكي لا يكون بوسع أي شخص أن يقفز منها وكانت أجهزة إنذار الحريق موجودة في كل مكان في الطوابق لكن ليس في بئر السلم؛ فقد كان بئر السلم مبنيًّا من الإسمنت وكذلك الجدران ودرجات السلالم وكان الفراغ والسكون يسودان هناك دائمًا تقريبًا؛ فهناك كان يوجد مصعدان لكن في المساء كان المدخنون يأتون - والذين لم يعد يجوز لهم التدخين في الشقق- لأن الزوجة أو الزوج قد منعا هذا أو لأنهم كان لديهم أطفال. صوت النقر على الولاعات وطقطقة الأبواب والسعال والأحاديث بصوتٍ منخفض كانت تتحرك في بعض الأحيان في بئر السلم المضيء بأنوار النيون، شأنها في ذلك شأن دخان السجائر.

لبعض الوقت، كنت بعد الانتهاء من العمل -أي عندما كنت أعود من مطعمي لبيع الوجبات السريعة- أركض صاعدًا الخمسة عشر طابقًا؛ لأنني كنت أظن أنه يجب أن أفعل شيئًا للحفاظ على لياقتي البدنية؛ فقد كنت أظل واقفًا اليوم بأكمله ولأن الطبيب المعالج لظهري كان قد قال لي إن صعود السلالم ربما يكون أمرًا جيدًا وأنه يمكن أن يجعل فقرات ظهري القطنية مرنة وخفيفة الحركة.

دخنتْ وأزاحت غطاء رأسها قليلًا نحو الخلف؛ فاسترسل بعض من خصلات شعر على جبينها. أغلقت عينيها ونفثت الدخان وأبقت رأسها في الهواء وأرجعت رأسها إلى الوراء وحرَّكت الرياح خصلات شعرها. وقفنا

إلى النافذة المفتوحة بينما أخذ الليل يخيم بالخارج شيئًا فشيئًا ومع ذلك ظل هناك بعض الضوء. أصبح لون السماء ورديًّا وأحمر وبعد ذلك بدا الأمر كأن السماء ستصبح مضيئة مرة أخرى وقبيل أن يخيم الليل، بلونٍ وردي فاتح وأحمر فاتح، وشعرنا بالاندهاش من المدة التي ظل فيها ضوء النهار موجودًا في هذه الليالي.

أزاحت غطاء رأسها مرة أخرى نحو جبينها ومسحت بكلتا يديها على غطاء رأسها وللحظة بدا الأمر كأنها سوف تغطي وجنتيها بهذا القماش.

كانت لديها آثار حبوب الشباب والتي كانت تلفت الأنظار كثيرًا؛ لأن بشرتها كانت بيضاء تقريبًا، ربما يكون القول إنها كانت مثل الطباشير، وربما يمكنـني القول إنها كانت مثل فيليه الدجاج الأبيض. وأزاحت غطاء رأسها فوق هذه الآثار الحمراء الصغيرة والندبات الموجودة على وجنتيها الشاحبتين. كانت تصغر «حامد» ببضع سنوات، كانت في مقتبل العشرينيات أو على أقصى تقدير في منتصفها، وكانت طويلة جدًّا ونحيفة جدًّا.

قالت: «الله عظيم، الله رحيم». وانحنت نحو الأمام وأطفأت سيجارتها في المطفأة الصغيرة التي كنت قد صنعتُها من شريحة من رقائق الألومنيوم. فعندما كنا نلتقي في بئر السلم، كنت أحمل معي دائمًا لفة من رقائق الألـومنيوم. ووضعتُ عقب سيجارتي بجوار عقب سيجارتها وكرمشت المطفأة لتصبح كرة فضية، أردت أن أقذفها من النافذة. مدَّت يدها نحو ذراعي.

«لا، تخيل لو أصبت شخصًا ما بها».

«لكن هنا بالأسفل توجد مظلة أمام المدخل».

هزَّت رأسها وسحبت ذراعي والمطفأة المكرمشة بعيدًا عن النافذة «ولو

هبَّت رياح، يمكن أن تتحرك هذه إلى كل مكان...».

«لكنها مجرد كرة من رقائق الألومنيوم» قلتها ودسست الكرة في الجيب الجانبي لقميصي ذي القلنسوة وانزلقت يدها فوق ذراعي. كان القميص ذو القلنسوة أحمر اللون، أحمر قانيًا، مثل مطعمي لبيع الوجبات السريعة وكنت قد طبعت اسم مطعمي عليه. وضعت القلنسوة على رأسي وقلتُ: «الآن أغطي أنا أيضًا رأسي لكي يصبح الرب راضيًا».

«لماذا تقول هذا؟ الرب رحيم، الرب عظيم» نظرت إليَّ بجدية بالغة. بدت في الحقيقة غاضبة قليلًا. كنت كثيرًا ما أقول هذه الدعابات عندما كنا ندخن في بئر السلم. كان «حامد» يذهب في المساء إلى أصدقائه في «بلاد العرب الصغيرة»، هكذا كنا نسمي الحي، الذي كان فيه مقهى الإنترنت، الذي كان «حامد» يعمل فيه. لكنها لم تكن تستطيع أيضًا أن تدخن في الشقة عندما لا يكون «حامد» فيها. وذلك على الرغم من أن بعض أصدقاء «حامد» كانوا يدخنون عندما كانوا يزورون منزلنا الشاهق متعدد الطوابق لكن هذا كان أمرًا مختلفًا.

قلت: «أجل، كان على الأرجح رحيمًا جدًّا. ولا يمانع أن تدخني». مددت لها علبة سجائري من جديد. أخرجت سيجارة لنفسها وأشعلتُ أنا أيضًا سيجارة لنفسي مرة أخرى. سوف أصنع مطفأة سجائر جديدة من رقائق الألومنيوم، على الفور. جلسنا على أعلى درجة من درجات السلم، كانت خطواتنا مدوية في بئر السلم، وكانت هناك أصوات في بضعة طوابق بالأسفل، كأن شخصًا ما يرد على صوت خطواتنا، صوت طقطقة أبواب، مدخنون بالليل، لم يكونوا يريدون أن ينزلوا إلى أسفل أمام المنزل، على الرغم من أن ضوء اليوم كان لا يزال موجودًا في هذه الليالي الطويلة القصيرة.

قالت: «لا توجد أي إشارة في القرآن إلى السجائر». وأومأت برأسها

ودخنت وأمسكت سيجارتها بين إصبعي الإبهام والسبابة بإحكام تام لدرجة أن فلتر السيجارة قد انضغط ليصبح مسطحًا تمامًا عندما وضعت السيجارة -التي انتهت من تدخينها- بعد بضع دقائق في مطفأة السيجارة الجديدة المصنوعة من رقائق الألومنيوم والتي كنت قد وضعتها بيننا على الأرض الإسمنتية والتي انبعث الدخان فيها من عقب سيجارتي أيضًا وكاد وهج النيران أن يصبح في الفلتر تقريبًا. كرمشت مطفأة السجائر الفضية مرة أخرى قبل أن تتمكن من أن تضغط على سيجارتها -التي لا توجد أي إشارة في القرآن إليها- لتطفئها. فتصاعد خيط دخان صغير جدًّا ورفيع جدًّا من الغطاء الفضي للكرة الفضية. دسست المطفأة المكرمشة بجوار الأخرى في الجيب الجانبي لقميصي ذي القلنسوة. شعرت أن رقاقة الألومنيوم الخشنة كانت دافئة في يدي وضغطت عليها بإحكام أشد. نهضتْ واقفةً ونهضتُ أنا أيضًا واقفًا.

قلت: «يجب أن أخرج في وقتٍ مبكر. بلغي «حامد» تحياتي». وقفنا ونحن ندير ظهورنا إلى الباب المؤدي إلى طابقنا ونظرنا إلى درجات السلم المؤدية إلى الطوابق السفلية. وفي وقتٍ لاحق من هذه الليلة ذهبت للتنزه في جولة أخرى في منتزه المدينة واحتسيت بيرة؛ لأنني لم أكن أستطيع أن أنام، وأخذت أعد طوابق منزلنا الشاهق وحاولتُ أن أجد النافذة التي كنا نقف عندها قبل قليل.

«أنا... أنا سأذهب إذًا. بلغي «حامد» تحياتي». ألم أقل هذا للتو بالفعل؟

وددت أن أمد لها يدي لأصافحها ورفعت يدي قليلًا بالفعل لكنني عدلت عن ذلك.

عندما توجهت لاحتساء الشاي في شقة «حامد» للمرة الأولى، مددت لها يدي لأصافحها لكنها تقهقرت بضع خطوات وأخفضت رأسها قليلًا وقالت: «معذرةً، لكن الله يأبى أن...».

قلت: «معذرةً لكنني نسيت أن الله يأبى أن...» ألم تضع يدها منذ قليل على ذراعي؟ تقهقرتُ خطوة ومن خلفي كان الباب المؤدي من بئر السلم إلى الطابق الخامس عشر. بعد ذلك، أقبلتُ نحوها مرة أخرى ورفعت يدي بارتفاع صدري ورفعتها ثانيةً أعلى قليلًا وكادت راحة يدي أن تلمس وجهها قبل أن أخفض ذراعي مرة أخرى.

قالت: «لا» واحمَّر وجهها قليلًا وعندئذ أيضًا أصبحت آثار حبوب الشباب لديها واضحة وكادت أن تضيء في وجهها. وكان غطاء الرأس قد انزلق بعمق على جبينها.

«لا»، قالتها مرة أخرى. كانت تسكن مع «حامد» في الطابق الذي كنت أسكن فيه، على بعد عدة شقق فحسب. وكان مسقط رأسها هنا في المدينة وكانت لا تعتنق أي دين وتصافح الجميع وذلك حتى التقت بـ«حامد». لا أعرف على وجه الدقة أين التقيا وكيف تعارفا. كلا، كنت أعرف هذا؛ فقد سبق وأن حكى لي «حامد» عن هذا الأمر لكن ما عساي أن أفكر مليًّا في قصتها. ربما كان صديقي القديم «ماريو» -الذي كان قد عاد من جديد إلى الشاطئ ليفتتح هناك مطعمًا عائمًا- سيقول: «ماذا تريد إذًا من هذه؟».

وربما كنت سأقول: «لا شيء يا «ماريو»، كيف يصل تفكيرك إلى هذا الحد إذًا؟».

وعندما جاء «حامد» للمرة الأولى إلى مطعمي لبيع الوجبات السريعة وأعددت له شطيرة شرائح لحم محمر الحادي عشر من سبتمبر، ربما لم يرد بخاطري أيضًا أنني قد أزوره بعد وقتٍ قليل في مسجده الذي كان موجودًا في بقعةٍ ما من مدينتنا والذي لم يسبق لي رؤيته قط. ولم أكن قد عرفت أن هناك أصلًا مسجدًا في مدينتنا. وعندما ذهبت إلى هناك بعد ذلك؛ لأنني وددت أن أراها هي في المسجد لأنها كانت تذهب بصحبة

«حامد» إلى المسجد، كل يوم أحد وأحيانًا أيضًا في وسط الأسبوع... لكنني اختلط عليّ أمر الوقت حيث مرَّت بالفعل أسابيع وشهور. وكنت أحتسي مع «حامد» الشاي في شقة «حامد» وأدخن سرًّا مع صديقته في بئر السلم، إلى النافذة، قبل أن أخطو خطوة واحدة بقدمي في المسجد ولكنني قلت بالفعل حقًّا إن الحاضر لا يعد شيئًا.

«في مثل ذلك الوقت ترين أضواء الأقمار».

«لا يجوز لك أن تلمسني ولا يجوز لي أن ألمسك. الله...».

«أعرف، أعرف، أريد فقط...».

«أي أقمار وأي أضواء تقصد؟ القمر الموجود في السماء؟».

كانت قد جلست على درجات السلم.

قلت: «هو أيضًا. لكنني أعني المنازل، التي... سيستغرق الأمر بضع دقائق أخرى. عندما يصبح الظلام دامسًا».

«يجب أن أذهب إلى «حامد»» قالتها وأدارت رأسها نحوي حيث كانت قد أسندته على كلتا يديها؛ فأصبحت يداها موضوعتين على وجنتيها وغطتا آثار حبوب الشباب لديها. «سيأتي «حامد» عما قريب إلى المنزل».

«فلتبقي بضع دقائق أخرى». قلتها من جديد وجلستُ بجوارها. «إن ضوء النهار يظل ساطعًا لوقتٍ طويل جدًّا في الصيف».

سألت: «هل صارت الليالي الآن أطول أم أقصر؟» ونظرت إليَّ.

«لا أعرف». دسست يديّ في الجيوب الجانبية لقميصي ذي القلنسوة.

ما من كرات فضية دافئة. إذ كنت قد أحضرت معي مطفأة سجائر زجاجية، كانت موضوعة أمامنا على درجة السلم.

قلت: «لا أعرف. بالنسبة لي يبدأ الليل عندما أنتهي من العمل أي في تمام الساعة الثامنة. سواء أكان ضوء النهار موجودًا أم أن الظلام قد حلَّ».

«أي إن الليالي...» ترددت في الحديث وأردفت: «متساوية دائمًا؟».

قلت: «لا، ليست كذلك». ووضعتُ يدي على كتفها، على مقربة شديدة من عنقها، هناك، حيث برز شيء كأنه ارتفاع طفيف، مُرتفَع ضيق، عضلة أو شيء من هذا القبيل، كانت تؤدي إلى العنق، ارتفاع ضيق طفيف، لم أكن أعرف كيف ينبغي أن أسميه.

وفي وقتٍ لاحق، أخذت أعد في منتزه المدينة –حيثما كنت أتنزه كل ليلة تقريبًا بعد أن كان الظلام يحلُّ أخيرًا– طوابق منزلنا الشاهق وأفكر في عظمة كتفها المدببة. وفي الصباح، عندما وضعت قطعة من لحم الكتف على شواية مطعمي لبيع الوجبات السريعة، لحم كتف بقري أو لحم خنزير، لم يكن هذا بالأمر المهم عندئذ، تخللت براحة يدي اللحم، الذي كان لا يزال شبه مجمد، كانت هناك، عظمة الكتف تلك... ومسحتُ على كتفها البارد. تصاعد البخار من فحم الخشب إلى عيني. كنتُ مُتعبًا وربما كانت بحاجة إلى صديقي القديم «ماريو»، الذي أصبح، على الأرجح، مفلسًا في مكانٍ ما على الشاطئ بمطعمه العائم لبيع الوجبات السريعة. فكرتُ في «حامد»، صديقها، الذي كانت تسميه في أغلب الأوقات «زوجي».

«يجب أن أذهب إلى المنزل. يجب أن أذهب إلى زوجي».

«من أين جئتِ؟».

«ماذا تقصد بهذا؟ من أين... الآن للتو؟ ماذا تقصد بهذا؟» نظرت إليَّ وجذبت غطاء رأسها على وجنتيها كأنها كانت تخجل من آثار حبوب الشباب التي جعلت في وجهها ثنايا حمراء اللون.

«أقصد... من... ما هو مسقط رأسك؟ المدينة هنا؟ أم مكان آخر».

وجلست من جديد بجواري على السلالم وأتت مرة أخرى من الباب الذي ودت للتو أن تختفي خلاله.

«كان «حامد» طيبًا جدًّا معي. إن زوجي طيب جدًّا معي».

أومأتُ برأسي. «حامد شخص مستقيم».

حكت لي عن أسرتها وعن مسقط رأسها، هنا في المدينة.

««حامد» يحبك جدًّا في الحقيقة». قالتها بعد ذلك واستندت برأسها من جديد إلى راحتي يدها وأخفت ندباتها الحمراء بينما جلست على السلالم. وكنت لا أزال ممسكًا في يدي بعلبة السجائر عندما أصبحت موجودًا في شقتي. «هل تريدين واحدة أخرى؟» كانت شريحة الألومنيوم الرقيقة الشفافة المحيطة بالعلبة رطبة ودافئة. ظللت ممسكًا بها لوقتٍ طويل جدًّا بالفعل؛ فأصبحت راحة يدي أيضًا رطبة وألقيت بالعلبة على الأريكة؛ حيثما ظلت موضوعة بجوار صحف الأيام والأسابيع الماضية التي كنت أقرأها هناك كل صباح قبل أن أذهب إلى مطعمي لبيع الوجبات السريعة. كنت دائمًا أقرأ الصحيفة في اليوم التالي لصدورها؛ فكنت أُحضر الصحف في المساء وألقي بها على الأريكة وأقرأها من ثمَّ في الصباح. كنت أستيقظ من النوم دائمًا تقريبًا قبل أن يرن المنبه. لم يكن سوى هاتفي المحمول، أي رنين خاصية المنبه؛ أما منبهي الحبيب القديم -الذي كان آلة بدائية، كانت جدتي قد أهدتني إياه قبل سنوات كثيرة- فقد كان آنذاك مع صديقي القديم «ماريو» على الشاطئ حيثما كان يجرب شيئًا من قبيل إقامة مطعم عائم لبيع الوجبات السريعة. كان «ماريو» يحب منبهي جدًّا، الذي كان يوقظنا من النوم في الفراش في السفينة قبل اختراع خواص المنبه الإلكتروني والهواتف المحمولة. وكنت قد أهديته هذا الشيء

الضخم عندما عاد إلى الشاطئ حيث كنا نطهو الطعام لسلاح البحرية بأكمله.

أحيانًا يتوه الإنسان في الوقت ويحتاج بضع ثوانٍ ليحدد موقعه. كنا على الأرجح في الصيف. أخذت أدخن وأنظر إلى الأقمار المعتمة التي كان لا يزال من الصعب تمييزها؛ لأن آخر أضواء في النوافذ قد خبت، بعيدًا خلف منتزه المدينة.

«إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ...».

قلت: «حسنًا، حسنًا، وما عساي أن أعرف من هذا؟».

قال «حامد»: «إن الله موجود وإنه يمنحنا الخلاص. وما زالت هناك بقية...».

قلت: «أهناك بقية بعد الخلاص؟» قلبت شريحتي لحم محمر واستدرت من جديد نحو «حامد» الذي اتكأ على نضد بيع الوجبات وأخذ يحتسي قدحًا من شاي «إيرل جراي». كان هناك عاملا بناء يقفان إلى طاولة الوقوف الكبيرة الموضوعة أمام المطعم وكانا يدخنان ويحتسيان البيرة التي كنت قد بعتها لهما قبل دقائق قليلة. كما كنت أقلب شرائح اللحم المحمر من أجلهما أيضًا، وقت الانتهاء من العمل، وحلَّ الظلام من جديد شيئًا فشيئًا، أما زال الصيف موجودًا وأصبحت النهارات متداخلة مع الليالي؟

قال «حامد»: «لا، أقصد السورة، هل تفهمني؟ ما زالت هناك بقية للسورة، السورة عن... ما يمكن القول... الانفلاق، عندما يتكسر...».

قلت: «الانفطار، أنت تقصد الانفطار وليس الانفجار. سورة الانفطار. وترتيبها في موضع ما بعد السورة الثمانين».

«أنى لك... أنى لك أن تعرف بأمر السورة؟».

«أجل، أجل، لقد أدهشك هذا الأمر، أليس كذلك؟» استدرت وأخذت أعتني بأمر إحدى قطع سجق «تورينجن» التي كنت أعدها على فحم الخشب من أجل أحد الأشخاص والذي كان قد خرج مرة أخرى ليدخن سيجارة وذلك قبل أن أتمكن من أخذ الحساب منه والذي انصرف بعد ذلك ببساطة على الرغم من أن قطع السجق، التي أعددتها، بدت طيبة المذاق وعلى الرغم من أن سجق «تورينجن»، الذي كنت أعده، كاد أن يصبح بمثابة أسطورة، في الحي، وفي المدينة. «إن صديقك الجديد القادم من بلاد المشرق ليس مناسبًا للعمل» ربما كان صديقي القديم «ماريو» سيقولها والذي كنت أفتقده جدًّا في هذا الوقت وكان على الأرجح محقًّا لكن من ناحية أخرى كان هو نفسه قد جلب عددًا كبيرًا من الشخصيات الغريبة عندما كنا لا نزال ندير المطعم سويًّا وقبل أن يسافر من جديد إلى الساحل لكي يفتتح هناك مطعمًا عائمًا أو شيئًا من هذا القبيل. كان لدى «ماريو» بضعة أصدقاء في حي «بلاد العرب الصغيرة» وبالقرب منه، كانوا يبيعون القماش. وكان صديقي القديم «ماريو» يلتقط بين الحين والآخر شيئًا من البضاعة التي كان أصدقاؤه يبيعونها لكن هذا لم يمثل أي مشكلة أبدًا.

قال حامد: «إنه ما من بشر دون رب. ما من بشر طيبين. أنتم تنكرون يوم القيامة».

قال صديقي القديم «ماريو»: «فلتبتعد عن هذا الأمر أيها العربي، من الأفضل أن ترى أن عشيقتك، التي تعرضت لغسيل م...».

قلت: «اسكت يا «ماريو»».

وضعت شرائح اللحم المحمر، التي أعددتها من أجل عاملي البناء اللذين

كانا واقفين بالخارج وينتظران ويدخنان -كان وقت انتهائهما من العمل- على طبقين من الورق المقوى وقطعت شطائر الخبز الصغيرة بالسكين ووضعت بصلًا مشويًّا على شرائح اللحم المحمر وقطعت شطائر الخبز الصغيرة وحركتها في القِدر الصغير مع مستردة شرائح اللحم المحمر المميزة وقلبت شرائح اللحم المحمر. اقتربت أنا أيضًا من وقت انتهائي من العمل وكاد فحم الخشب أن ينطفئ ولم تعد هناك سوى كومة صغيرة مسطحة من الجمر المتوهج وكان من الممكن بالكاد رؤيتها أسفل الرماد ذي اللونين الأبيض والرمادي وأخذت تسخن اللحم وتشويه الذي كنت قد جئت به في الصباح من تاجر الجملة.

قلت: «يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ». ووضعت كلتا شطيرتي شرائح اللحم المحمرة الصغيرتين –ولا يجب الخلط بينها وبين شطيرة شرائح اللحم البقري المحمر الشهيرة– على طبقين من الورق المقوى. أخذ «حامد» يفكر قليلًا وأومأ برأسه ووضع طبقه المصنوع من الورق المقوى وشاي «إيرل جراي» على نضد بيع الوجبات ونظر إليَّ وحرَّك مسبحته بين إصبع الإبهام والسبابة.

قلت: «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا»، حاولت أن أتذكر النص الدقيق وناولت كلا الطبقين المصنوعين من الورق المقوى لكلا عاملي البناء اللذين كانا يراقباني عبر اللوح الزجاجي وهما جائعان وكانا قد جاءا إلى الداخل.

قلت: «وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا» وقلب كلاهما نظره في ما حوله مرة أخرى ورفعا يديهما قليلًا لوداعي -زبونان مستديمان- وألقيت عليهما التحية ورأيت كيف تحدثا بالخارج بعضهما مع بعض وأخذا يتهامسان ويميلان رأسيهما بعضهما تجاه بعض كأنني ربما أستطيع أن أسمعهما عبر اللوح الزجاجي لكشك مطعمي لبيع الوجبات السريعة واستدارا

لوهلة مرة أخرى باتجاهي. هل كانا يضحكان؟ هل كانا يبتسمان ابتسامة عريضة؟ قبل أن ينعطفا في شارع جانبي.

«وَيَصْلَى سَعِيرًا» قالها حامد بينما كنت أنظف الشواية وأفرغ لوح تجهيز الطعام. ووافقته قائلًا: «فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ...».

هل كان ينبغي عليَّ أن أقول له إنني كنت قد اشتريته، أقصد هذا الكتاب، من متجر في وسط مدينتنا؛ لأنها، لأن زوجته...

هل كان ينبغي عليَّ أن أقول له إنني قرأته؛ لأنني كنت أريد أن أفهمـها؟

«من أين جئتِ؟».

وروت لي حكايتها.

وابتسم «حامد» واحتضنني عندما فككت رباط مريلتي وذهبت باتجاهه عند طاولة الوقوف البلاستيكية التي كان قد وضع مسبحته عليها. قال: «لقد حان الوقت. لقد حان وقت الصلاة. هل لديك...».

سألت: «سجادة؟».

«أجل، شيء من هذا القبيل» كان «حامد» راكعًا بالفعل على السيراميك. فقد كنت قد خلعت في عطلة نهاية الأسبوع السابق السجادة الحمراء الموضوعة بالأرض -والتي سبق وأن أقنعني صديقي القديم «ماريو» بشرائها بكثرة حديثه عنها- وجعلت أرضية المطعم كاملًا مغطاة بالسيراميك. وكان «حامد» قد دبَّر لي شخصًا، عربيًّا أو شيئًا من هذا القبيل، قام بهذا الأمر بشكلٍ غير رسمي. لكن الآن أراد «حامد» أن يصلي وكان السيراميك عندي صلبًا جدًّا وكان يحب السجاجيد.

«سجادة... فلتنتظر...» توجهت إلى مخزن أغراض المطعم بالخلف

ووجدت فعلًا قطعة من لفة السجاد الأحمر الذي كنت قد غطيت به مطعمي لبيع الوجبات السريعة لوقتٍ طويل. لو أن «ماريو» عرف أن ما تبقى من سجادته الحمراء، التي كان شغوفًا جدًّا بها، ستكون مفرش صلاة لشخصٍ عربي... «تناول الطعام على السجادة الحمراء، يا لها من دعاية ممتازة، أتفهمني! تناول الطعام مثل نجوم السينما!».

«نريد أن نفتح مطعمًا لبيع الوجبات السريعة يا «ماريو»».

«أجل، بالطبع. مطعم بيع وجبات سريعة مع سجادة حمراء. حمراء. أتفهمني، كاتشب العينين!».

«أي نوع من الكاتشب يا «ماريو»؟».

«اشتققتها من فكرة الشيء الذي يخطف الأبصار. أتفهمني! بسبب اللون الأحمر. مطعمنا لبيع الوجبات السريعة».

«أجل، مطعم لبيع الوجبات السريعة يا «ماريو»».

«يخطف الأبصار!».

وسجد «حامد» على قصاصة السجادة الحمراء التي كنت قد قطعتها بالسكين الحاد الخاص بقطع شرائح اللحم لأفصلها عن لفة السجاد. وأدى الصلاة هناك على الأرض الجديدة المغطاة بالسيراميك في كشك مطعمي الصغير وغمغم بالكلمات والجمل الغريبة للغته الغريبة. ظل بعض الناس واقفين وينظرون عبر اللوح الزجاجي الكبير ومررت بجوار «حامد» بحذر وعلقت لافتة «مغلق» على الباب.

الانحناء بالجسد... كانت تحفظ كل هذه النصوص الدينية الشعرية عن ظهر قلب، بعضها بلغة «حامد» الغريبة وبعضها بلغتنا، وانحنت. وقفت بالقرب منها وانحنت هي وجلستْ القرفصاء في ردهة منزلنا الشاهق

متعدد الطوابق وهي تولِّي رأسها صوب «مكة» أو هناك حيثما كانت تخمن موقع هذه المدينة. كان قميصها ينزلق؛ فقد كانت ترتدي دائمًا قمصانًا وسراويل أو تنورات فضفاضة للغاية على الرغم من أنها كانت نحيلة جدًّا وذات عظام بارزة. كان قميصها الفضفاض ينزلق بينما كانت تضغط بالجزء العلوي من جسدها على أرضية منزلنا الشاهق متعدد الطوابق. أردت أن أجلس القرفصاء بجوارها وأن أستلقي بجوارها وأن أركع خلفها، أجل، هذا أيضًا.

ربما كان صديقي القديم «ماريو» سيسأل: «ماذا تريد من هذه إذًا؟».

وربما كنت سأقول: «لا أدري، مثلما تكون الحال في بعض الأحيان يا «ماريو»». وأومأ «ماريو» برأسه وطرق برأسه على كتفي «مثلما تكون الحال في بعض الأحيان».

لم يسبق لي أبدًا أن اكترثت كثيرًا بالدين أو بشيء من هذا القبيل. كانت جدتي، التي حصلت منها على المنبه ووصفة إعداد سلطة البطاطس، تذهب معي في عشية عيد الميلاد إلى الكنيسة عندما كنت لا أزال صغيرًا للغاية لكن الأمر لم يتجاوز هذا الحد. وأيضًا في هذه الليالي، هذه الأمسيات، عندما أخذت أقرأ في الكتاب -الذي كنت قد اشتريته بسببها- كان ما فيه بمثابة عوالم بعيدة مثل «السندباد البحري» أو «علي بابا والأربعون حرامي» («السندباد، «علي بابا»؟ لكنها كانت قصص أطفال!».

«اسكت يا «ماريو» أو فلتعد وتساعدني في أمور مطعم الوجبات السريعة».

«في أمورها هي. هكذا تقصد».

«لا، لم أكن لأطلب مساعدتك في هذا الأمر بالتأكيد».

«لم أفهم هذا الأمر قط، كل هذه الحكايات السخيفة المتعلقة بالدين. هي بالنسبة لي مثل قصة *ملك الخواتم*».

«لقد قلت فعلًا «السندباد» و«علي بابا»») حكايات أسطورية خرافية، كنت قد قرأتها في الماضي عندما كنت طفلًا أو عرفتها من دور عرض السينما أو من التليفزيون.

قالت: «لا، لا يجوز لك أن ترى الأمر هكذا، نحن نريد أن نكون طاهرين أمام الرب... إنه يتحدث إلينا كل يوم».

«لا تسيئي فهمي، أنا أراه أمرًا جيدًا فعلًا لكن...».

««حامد» يريد أن تأتي معنا. إلى مسجدنا».

«أتقصدين أن هذا ممكن؟ يسرني أن أفعل هذا ذات مرة. هل ستأتين أنتِ أيضًا معنا؟».

«بالطبع».

«حسنًا... لكن يجب أن أقول لكِ بصدقٍ تام أن...».

«هذا ليس بالأمر المهم». نظرت إليَّ وهزت رأسها وأومأت. كان بها شيء من العناد والتساهل في آنٍ واحد، وكانت آثار حبوب الشباب تتوهج بلونٍ أحمر في وجهها الشاحب. جلسنا على السلالم وأخذنا ندخن. كانت النافذة مفتوحة وقد حلَّ الظلام بالخارج وكانت الريح تُصفَّر في بئر السلم. أما زلنا في أواخر الصيف أم أن الخريف قد حلّ بالفعل؟ في وقتٍ لاحق، عندما تساقطت الثلوج وكنت أظل في مطعمي لبيع الوجبات السريعة حتى جوف الليل وكنت أعمل –إذ كنت قد مددت ساعات عملي وأخذت أقدم النبيذ الساخن– أخذت أفكر كثيرًا بتمعن هل أطلعتها على الأقمار الساكنة؟ تلك المنازل الشاهقة الكبيرة متعددة الطوابق عند

أطراف المدينة، والتي كانت أضواؤها تنطفئ في الليالي شيئًا فشيئًا، شقة تلو شقة ونافذة تلو نافذة، ورأيتنا نقف إلى النافذة وأنا أعد الطوابق عندما أعود إلى المنزل وأدخن سيجارة بالأسفل أمام المنزل الشاهق متعدد الطوابق وقت انتهائي من العمل على الرغم من أن الطقس يكون باردًا وأنني أضرب بقدميَّ الباردتين في الثلج.

«أين الشرق؟».

«لا أعرف بالضبط. هل هناك ربما؟».

«يجب أن أصلي متجهةً صوب الشرق».

«أعرف». لمست وجهها ومسحت بأصابعي بحذر على آثار حبوب الشباب التي جعلت في وجهها ثنايا حمراء اللون.

كان «حامد» قد سأل أيضًا: «أين الشرق؟» قبل أن يسجد على القصاصة الحمراء التي كنت قد وضعتها أمامه على السيراميك.

«لا أعرف بالضبط... هناك ربما».

وبعد ذلك، عندما كانا يصليان، خطر ببالي أنهما يصليان في الحقيقة باتجاه الشمال، أو بالأحرى الشمال الغربي، إذ إن الشارع الكبير، الذي كان مطعمي لبيع الوجبات السريعة يقع فيه، كان يؤدي إلى خارج المدينة باتجاه الشمال كما أن الردهة في منزلنا الشاهق متعدد الطوابق، الذي كنا نلتقي فيه، كان يشير إلى اتجاه الشمال الغربي أو بالأحرى إلى اتجاه الغرب أكثر من الشارع. وخلف منتزه المدينة -الذي كنت أحدد اتجاهاتي وفقًا له- كانت توجد الأقمار وترتفع مجموعة المباني الجديدة، أي المنازل الشاهقة متعددة الطوابق الواقعة على أطراف المدينة، والتي كانت الشمس تغرب من خلفها. بلاد المغرب.

مسحتَ على وجهها وكانت ساكنة تمامًا وبعد ذلك وضعتْ رأسها على كتفي. عانقتها وتشبثتُ بها وارتفع الدخان من سجائرنا في المطفأة الزجاجية الموضوعة أمامنا على درجة السلم -وهي المطفأة التي حلت منذ بعض الوقت محل الورقة الفضية- حتى لمس الوهج الفلتر وانطفأ.

وددتُ أن أرى شعرها وأن أمرر أصابع يدي بينه. كان شعرها قصيرًا أشقر يميل لونه إلى الاحمرار ولا يبرز سوى من الجانبين أسفل غطاء رأسها وفي بعض الأحيان كانت تظهر بضعة أطراف منه على جبينها.

وضعت يدي على غطاء رأسها وقالت هي: «لا، لا» وأزاحت يدي بعيدًا واحتضنتها من جديد وتشبثت بها وسمحت هي بذلك وضمت جسدها لي بقوة وألقت بثقلها عليَّ وبجواري على الرغم من أنها كانت نحيلة جدًّا وذات عظام بارزة.

وبعد ذلك أيضًا، بعد ذلك بكثير، ليس في هذا المساء وليس أيضًا في المساء التالي، عندما استلقت عارية بجواري، استلقت في فراشي، كان شعرها لا يزال أسفل غطاء رأسها.

«عند الطهي كنا نحن أيضًا دائمًا ما نرتدي غطاء رأس، وأنت تعرف هذا».

«لكن هذا أمر مختلف تمامًا يا «ماريو»».

«حسنًا، فلتمعن التفكير في هذا الأمر».

«أي أمر إذًا؟».

«في هذا الأمر السخيف المتعلق بغطاء الرأس برمته. أقصد أنه عند الطهي من دونه يكون الوضع غير صحي. فمن يرغب فعلًا أن يوجد شعر في شريحة اللحم المحمر التي يتناولها. لكن، يا للعنة، ما الذي يهم

الرب مرة أخرى في...».

«منذ متى تؤمن بوجود الرب يا «ماريو»؟».

«بالضبط. لكن كيف يكون الأمر عند ممارسة الحب؟ بالأعلى به، بالأعلى من دونه؟».

ألقيت نظرة عبر الباب الموارب نحو مصلى النساء، غطاء رأس بجوار غطاء رأس. عندئذ ركعن وانحنين وأسفل أحد أغطية الرأس شعرها الأشقر الذي يميل لونه إلى الاحمرار.

حاولتُ أن أتعرف عليها وسط حشد المصليات؛ إذ إنها كانت قد اختفت قبل دقائق قليلة في الشقة المجاورة لمصلى الرجال واستدارت مرة أخرى نحوي ونحو «حامد» وابتسمت. ابتسامتها والاحمرار اللطيف في آثار حبوب الشباب لديها، التي كانت واضحة جدًّا، عندما...

كانت الشقق، التي كانوا يسمونها *المسجد*، تقع في الطابق الثالث من مسكن، يكاد يكون مُتصدِّعًا، في الناحية الغربية من الأقمار التي كنا نراها في الليل. لم يسبق لي أن عرفت أن الرجال والنساء يصلون في شقق منفصلة. ولم تظهر هي مرة أخرى حتى بعد الصلاة الكبرى، أي عندما قدموا الطعام لي، عندما قدموا الطعام لضيفهم، وعندما جلستُ معهم على الأرض وعندما تناولتُ الطعام معهم من القماش المشمع البلاستيكي الكبير. وخرجتُ من جديد إلى الخارج نحو بئر السلم لكي أراها. رأيتُ النساء والأطفال عبر الباب الموارب، لقد انتهت الصلاة هنا أيضًا وتم إعداد الطعام. أين كانت؟ لمس أحدهم كتفي. كان «حامد» يقف خلفي. «تعالَ مرة أخرى وتناول الطعام. يا صديقي. أنت ضيفنا اليوم. الرب يرانا والرب يحبنا». وضع ذراعه حولي وعدنا إلى القسم الرجالي من المسجد. تفهمتُ هذا الفصل، هذا التقسيم، وأمعنت التفكير فيه بينما

جلستُ القرفصاء مع العرب على الأرض وتناولت الأرز واللحم، الذي كان مذاقه يشبه مذاق لحم الضأن وكان مطهوًّا لوقتٍ أقصر بكثير، واحتسيت شايًا حلوًا ثقيلًا. لو كانت جلستْ أمامي أو بجواري في أي مكان، أثناء الصلاة، أو أثناء تناول الطعام، ولا سيما أثناء الصلاة، لم أكن سأنتبه إلى الرب ببصري أو بسمعي حتى لو كنت مؤمنًا به. بينما كانوا يصلون وكان واعظهم، أي الإمام، يتحدث ولم أكن أفهم ثمَّة كلمة، كنت قد أتكأت إلى الجدار بالخلف وأخفضت رأسي عندما انحنوا، كنت أخفض رأسي على صدري لأظهر احترامي، بغض النظر عن *ملك الخواتم*. كنتُ قد أحضرت كتابي معي، الذي سبق وأن اشتريته قبل أسابيع؛ لأنني وددت أن أفهم ما الذي كنت تؤمن به. وكنت قد وضعته على ركبتيَّ وبينما كان العرب يؤدون الصلاة، رأيت أن الصفحات كانت ممتلئة ببقع الدهون، الغمغمة والأصوات الغريبة من حولي، أمامي؛ إذ كنت قد قرأت الكتاب على لوح تجهيز الطعام، بأصابع تعلوها الدهون، بينما كنت أضع اللحم على شوايتي فيصدر صوتًا خفيفًا. وواصلت القراءة بعد ذلك في المنزل وواصلت القراءة بعد ذلك في بئر السلم بينما كنت أنتظرها وعندما سمعت صوت خطوات في الردهة، هل كانت خطواتها؟ دسست الكتاب في رباط سروالي، أسفل قميصي ذي القلنسوة. «ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ...».

هل أطلعتها على الأقمار الساكنة خلف منتزه المدينة؟ أخذت أنوارها تخبت، نافذة تلو نافذة، شقة تلو شقة، عندما تقدم الليل حتى لم يعد من الممكن رؤية سوى أشباح المنازل الكبيرة، بعيدًا خلف منتزه المدينة.

قالت: «الرب ساخط. الرب يمقتني». كانت تقف أمام باب شقتي ورأيتُ على الفور أنها كانت ثملة. كان غطاء رأسها قد تزحزح فاسترسل شعرها الأشقر، الذي يميل لونه إلى الاحمرار، على جبينها. لم يسبق لي أن رأيت شعرها هكذا قط ولو لم تكن ثملة لكنت سأزيح خصلاتها الشقراء، التي

يميل لونها إلى الاحمرار، من على جبينها بحذر. كان وجهها أبيض جدًّا، ربما يمكن القول شاحبًا كالطباشير، ربما يمكنـــني القول أبيض مثل فيليه الدجاج وكانت آثار حبوب الشباب لديها متوهجة أكثر من ذي قبل. قالت: «الرب ساخط. الرب يمقتني».

قلت لها: «لا تحكي سخافات» وعندما أقبلتُ نحوها وأردتُ أن أدخلها إلى الداخل، هوت باتجاهي. كانت تفوح منها بقوة رائحة سجائر وحانة ومشروبات كحولية.

دفعت الباب بقدمي لأغلقه وذهبت بها عبر الدهليز إلى غرفة معيشتي.

حاولت أن تنتزع نفسها وبدأت تبكي وأرادت أن تصدم رأسها بالحائط لكنني أمسكت بها من كتفيها وجذبتها نحو الأريكة.

قلت: «كل شيء على ما يرام، اهدئي، اهدئي. كل شيء على ما يرام». وربتُ على كتفيها ومؤخرة رأسها الذي كان يغطيه طرف غطاء رأسها الذي اتخذ شكل مثلث.

كانت هناك في مسقط رأسها. حيثما كانت ربما ستبقى دائمًا لو لم تلتقِ بـــ»حامد». أزحتُ غطاء رأسها لأجعله مضبوطًا وأبعدتُ شعرها عن جبينها وحاولتُ أن أجعلها تستلقي على الأريكة لكنها كانت تريد أن تستقيم في جلستها من جديد واحتضنتني وتحدثتْ بصوتٍ منخفض على صدري في الجزء العلوي من جسدي. قلت: «على ما يرام. كل شيء على ما يرام. يجب أن تنامي. يجب أن تنامي الآن».

شعرتُ كيف أصبح قميصي مبلولًا. تحركتْ من الأريكة. حاولتُ أن أمسك بها بأي طريقة وبعد ذلك استلقت هي على الأرض واستلقيت أنا بجوارها.

ضممتها نحوي. خلعت عنها ملابسها؛ فقد فاحت منها رائحة كريهة وكانت مبلولة. السجاجيد على جدران المسجد، مصلى النساء، مصلى الرجال، المسجد، الذي كان يتكون في الحقيقة من شقتين، في منزل يكاد يكون مُتصدِّعًا. الباب الموارب، الذي نظرت من خلاله، إلى السجاجيد، التي كانت تحمل كتابة بحروف غريبة، وإلى أغطية رؤوس المصليات. وعندما بحثتُ عنها هناك، وعن شعرها الأشقر، الذي يميل لونه إلى الاحمرار والذي تخللته بأصابعي، بحذر لكي لا أوقظها.

كنت قد أتيت بها إلى فراشي. كانت هناك في مسقط رأسها. حيثما كانت ربما ستبقى دائمًا...

وقفت أمام منزلنا الشاهق متعدد الطوابق وأخذت أعد الطوابق وحاولتُ أن أجد نافذتنا وضربت بقدمي في الثلج.

أصبحت عندئذ أعمل لوقتٍ أطول وأقدم النبيذ الساخن وكان عمال البناء يأتون ويذهبون وكان نبيذي الساخن، الذي أعددته بنفسي، سلعة يقبل عليها الزبائن. كان السيراميك عظيمًا وتمنيتُ لو أن صديقي القديم «ماريو» يعمل معي في وجود هذا السيراميك الذي كان «حامد» قد دبَّر أمره لي.

كنتُ أرى في بعض الأحيان أحلامًا مشوشة وفي أحلامي كنت أضل الطريق في ردهات منزلنا الشاهق متعدد الطوابق وأذهب إلى الشقة التي تسكن فيها مع «حامد». كان الباب مفتوحًا، كان مواربًا قليلًا وكنت أمضي إلى الداخل. كنا قد احتسينا الشاي هناك في بعض الأحيان و»حامد» بجواري وكانت هي تجلس من خلفنا على كرسي عند الحائط. كم مرة استدرت نحوها. كانت تبتسم وترفع يدها وتتظاهر كأنها تمسك بسيجارة بين إصبعي الإبهام والسبابة وتضعها على مهل في شفتيها.

لكن الشقة كانت خاوية وأصبحتُ هائمًا على وجهي هناك وأخذت أبحث عنها. بدت غرفة نوم الاثنين مثل غرفة نومي. وبعد ذلك رأيتُ أن كل النوافذ كانت مفتوحة. وفي حلمي، تملكني الخوف. وركضتُ نحو إحدى النوافذ المفتوحة واتكأت بجسدي نحو الخارج.

وفي الأحلام المشوشة كان ينتابني شعور بالغ بالخوف من أن أراها هناك بالأسفل عندما أنظر نحو الخارج. كان مطعمي ذو اللون الأحمر الداكن يقع بعيدًا خلف المنازل ولم يكن ذا شأن. واتكأت بجسدي خارج النافذة، يملؤني الخوف أن أراها هناك بالأسفل. مثلما تستلقي على المظلة، مثلما تستلقي في الثلج. طرق شخص ما على الباب. وعندئذ استيقظت من النوم.

«يجب أن أذهب إلى المنزل. يجب أن أذهب إلى «حامد»».

«فلتبقي. الأقمار».

«ما معنى هذا؟ القمر الموجود في السماء؟».

«أيضًا. أحيانًا يكون أعلاها».

«هل يجب أن ننتظر حتى يحل الظلام؟».

«كاد الظلام أن يحل فعلًا».

«امسكني بقوة».

«أجل».

لا، لم يكن أحد قد طرق على بابي. وقفت أمام شقتها التي كانت في الطابق ذاته، كنا تقريبًا جيرانًا وقرعت الجرس وبعد ذلك أخذت أطرق على الباب بحذر فقط؛ إذ إنني لم أكن أود أن أسمع صوت رنين الجرس

العالي الذي بدا مدويًا في الردهة لكنهما لم يفتحا، لا «حامد» ولا هي. جاء الشتاء وجاء الربيع وأصبحت أعمل لوقتٍ أطول وأعود متأخرًا جدًّا إلى المنزل. كانا قد اختفيا في وقتٍ ما وانتقلا من المسكن وغادرا المنزل الشاهق متعدد الطوابق وأصبحتُ واقفًا بالأسفل في الوحل الممزوج بالثلج وأخذت أعد الطوابق.

كنت قد ذهبت بها إلى «حامد» في صباح تلك الليلة التي وقفتْ فيها أمام بابي وهي ثملة وعندما استلقت عارية في فراشي وكدتُ أن أصاب بالجنون؛ لأنني كنت أرغبها بشدة رغم أنها كانت ثملة بشدة. عندما استلقيت بجوارها.

غسلتُ أغراضها المتسخة وجففتها على المدفأة بينما كانت نائمة في فراشي.

مرَّ بعض الوقت على ذلك كله بالفعل. وصرت أستيقظ مبكرًا كل يوم وأتوجه إلى مطعمي لبيع الوجبات السريعة وأذهب بالسيارة -التي كنت أوقفها هناك- إلى سوق الجملة وأقوم بالتسوق وأشغل الشواية وأقطع اللحم والبصل والخضروات وأجهز ماكينة إعداد القهوة وأراقب السيارات والمتنقلين بين وسائل المواصلات في ضوء الصباح. أيام طويلة، صيف وخريف، في ضوء المساء. أحب أمسيات الشتاء الطويلة المعتمة التي تبدأ مبكرًا، رائحة النبيذ الساخن وسجق «تورينجن» المحمر، آخر زبائن...

«ما زلت تنتظرها، هل أنا محق؟».

«لا، لست محقًّا يا «ماريو»».

«أنت تظن أنها ستأتي في وقتٍ من الأوقات عبر الباب».

«لا، لا أظن ذلك».

«حسنًا، فلتكف عن هذا. قليلًا جدًّا...».

««ماريو»!».

«قليلًا جدًّا جدًّا فقط! ليس كل يوم، لكن بين الحين والآخر... كثيرًا، أليس كذلك؟».

«دعني وشأني يا «ماريو»، ما عساي أن أريد من هذه...».

«حسنًا، حسنًا، حسنًا لكن لا تخدعني الآن. هل تنتظر؟ أنت تنتظر بالفعل».

«حسنًا، تكون الحال هكذا في بعض الأحيان».

«هذا ما أقوله بالفعل. تكون الحال هكذا في بعض الأحيان».

وتفكيري فيها وتفكيري في أمسياتنا في بئر السلم، في ضوء النهار، الذي كان يبقى طويلًا جدًّا، في انطفاء الأضواء في الأقمار، في نظرتي عبر الباب الموارب لمصلى النساء في المسجد، وفي تلك الليلة بعينها، لا علاقة له بأن كل ما هو ديني –أو أيًّا كانت التسمية التي يود الناس أن يطلقوها أيضًا– أصبح حاضرًا فجأة من جديد. ما هو الحاضر بالفعل؟ إن الحضور أسطورة ومفهوم خاطئ تمامًا؛ إذ إننا نجد أنفسنا مرارًا وتكرارًا في غير هذا المكان وأنا أعرف عما أتحدث؛ لأنني أدير مطعمًا لبيع الوجبات السريعة في منزل صغير مسطح به مظلة، كان بداخله في الماضي محطة وقود.

أسفل الجليد

قابلته للمرة الأولى في المطار في «فيينا». كان هذا في أحد فصول الشتاء. في مطلع الألفينات.

كنت عائدًا آنذاك من «البلقان» أو الأفضل أن أقول: من بلدان «يوغسلافيا» المنهارة منذ وقتٍ طويل؛ حيث كنت أعمل في شركة السكك الحديدية. وكنا نرمم سويًّا الطرق القديمة لكنني لم أكن أرمم القضبان بنفسي؛ إذ كنت مسؤولًا عن تخطيط الأمر برمته. لكن ليس التخطيط الكبير؛ فقد كان هناك آخرون يفعلون ذلك، وأنا كنت أتولى تنسيق أمور العمال وسير العمل وكنت أقف كثيرًا إلى الطرق ومحطات القطار التي تعرضت للتدمير قبل سنوات.

لفت انتباهي على الفور عندما رأيته للمرة الأولى في المطار في «فيينا»، رجل قصير القامة، ربما كان طوله مترًا وستين سنتيمترًا. كان يرتدي معطفًا مصنوعًا من جلد الغزال باليًا بعض الشيء -له ياقة من الفرو- وقلنسوة كاروهات، كانت تلمع بلونٍ داكن أمام الثلج الذائب؛ فقد أخذ الثلج ينهمر منذ أيام دونما انقطاع. غير أن القلنسوة بدت -بشكلٍ أو آخر- نبيلةً وغالية وذات طراز بريطاني للغاية. وفي ما بعد، أصبحنا نجلس عندئذ بالفعل في كشك الألعاب الصغير هذا وأخذنا ننتظر ونلعب لعبة «البوكر» على ماكينة اللعب؛ لأن رحلة الطيران كانت تتأخر أكثر فأكثر وحكى لي أنه كان قد اشترى هذه القلنسوة في إنجلترا. «أنقى أنواع صوف الغنم، محاكة يدويًّا، أجود بضاعة فحسب» في مدينة «نيو ماركت»، وهي مدينة للخيول فقط حسبما أسماها هو. «آلاف الخيول الإنجليزية الأصيلة» وحكى لي أيضًا عن قلنسوته القديمة (*قلنسوة المهربين*، كلمة

غريبة، هل كان المهربون أي تجار السوق السوداء هم من كانوا يرتدون في الماضي مثل تلك القلنسوات المسطحة ذات الحافة الأمامية؟) التي كان قد ارتداها ما يربو عن ثلاثين عامًا «حينها كنت في السادسة عشرة من عمري، كانت هدية بعد أول انتصار أحققه، حدث هذا في بلدة «جوتا»، عندئذ كان مضمار السباق في أحد الجبال، «تورينجن» والغابات ومُدرَّج قديم ترجع نشأته إلى عهد الإمبراطورية، كان الجواد اسمه «فيلدروزه» وربحنا سباق قطع المسافة مرة ونصف المرة، ما زلت أذكر هذا الأمر كأنه حدث اليوم».

كان قد وقف إلى شباك الاستعلامات أمامي وحاول أن يتفاهم مع شخص سويسري، كان يتحدث بسرعة وإلحاح، بينما سمعتُ أنه يود الذهاب إلى مدينة «درسدن»، في الطائرة ذاتها معي، على الرغم من أنني كنت سأواصل السفر بالطائرة نحو مدينة «لايبزج». لفتت لهجته الساكسونية الرقيقة انتباهي على الفور في وسط البيانات المذاعة عبر مكبرات الصوت وتداخل الأصوات من حولي وبادرته بالحديث وقلت له إن الأمر قد يستغرق بعض الوقت بسبب الثلج والعواصف وإنني قد سمعت شيئًا بهذا الشأن بالفعل وأومأ هو برأسه ونظر في وجهي وقال –تفوه بها بلدغة من بين ثنايا أسنانه الأمامية المعوجَّة قليلًا– «إذًا يمكننا أن ننتظر سويًّا قليلًا، أراك لاحقًا».

كانت واحدة من هذه الرحلات الجوية، التي تهبط فيها الطائرة في منتصف المسافة قبل أن تصل إلى وجهتها الأخيرة، يدخل إليها أشخاص ويخرج منها أشخاص وتُقلِع بعد ذلك من جديد. في الليل، يكون الأمر غريبًا دائمًا بشكلٍ أو آخر؛ إذ كان الناس ينزلون من الطائرة ويختفون في ظلمة حافلات المطار، يكون التعب مخيمًا على الجميع ونتحرك من جديد ونُقلِع بالطائرة من جديد على مهل... وفي أوقاتٍ لاحقة، كثيرًا ما كنت أستقل الطائرة في هذا الخط: «فيينا»–«درسدن»–«لايبزج» وفي أغلب

الأحيان أكون في المطار في وقتٍ مبكر جدًّا وأجلس وحدي في كشك الألعاب وألعب لعبة «البوكر» على ماكينة اللعب وأرسل له رسالة نصية قصيرة، لم يكن يجيب عليها غالبًا إلا بعد أسابيع، إلا أنه كان في بعض المرات يتصل بي على الفور على هاتفي المحمول ويود أن يعرف ما حال لعبتي. «الجاك» والملكة والملك... وعندما كان يأتي وقت ورقة «الآس» والورقة التي تحمل رقم عشرة أيضًا، كان يقفز من أحد كراسي البار العالية هذه الموجودة أمام ماكينات اللعب ويهتف: «كنت أعرف هذا حقًّا».

كان يفرك يديه ويزيح قلنسوته إلى مؤخرة رأسه وينظر إلى ماكينة اللعب بتحدٍّ ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئًا آخر على الإطلاق وكنت أضطر لأن أشاركه الفرحة وأطرق على كتفه.

«في المعتاد» قالها وجلس من جديد على كرسي البار العالي وكاد يبدو خجلانًا من ثورة انفعاله القصيرة «في المعتاد لا أراهن على الإلكترونيات لكن في بعض الأحيان...» تعلثم وارتشف من كوب القهوة البلاستيكي التي كانت متوافرة مجانًا في المنزل -أي في كشك الألعاب- والتي كان طاقم الخدمة في كشك الألعاب قد أحضرها لنا. ارتشف من قهوته ومدَّ لي يده ليصافحني. «في بعض الأحيان... «فرانك»، اسمي «فرانك» بالمناسبة».

وفي وقتٍ لاحق، تعرض كلانا لخسارة فادحة، وحكى لي عن الخيول.

كان فارسًا في سباقات الخيول، قبل بضع سنوات بالفعل، وكان في الحقيقة يود أن يذهب إلى بلدة «سانت موريتس» مرورًا بمدينة «زيوريخ» لكي يشاهد سباقات الخيول هناك لكن رحلة الطيران كانت قد فاتته؛ إذ إن العواصف الثلجية كانت قد شلَّت الحركة في المطارات. حكى لي عن سباقات الخيل الشتوية في البحيرة المجمدة، بحيرة «سانت موريتس» الكبيرة.

«أريد أن أذهب إلى هناك منذ أن حدث التحول في نظام الحكم في ألمانيا. وكنت قد ادخرت المال من أجل هذا العام. والآن لم يتحقق هذا الأمر. إن العرق يتصاعد من أجساد الخيول عندما تركض بسرعة وسط الثلوج وفوق الجليد، لم يسبق لك أن رأيت شيئًا بمثل هذا الجمال، أنا أراه كل عام، عند سمسار مراهنات سباق الخيل».

سألت: «سمسار مراهنات سباق الخيل؟».

«في مكتب المراهنات. عند مضمار سباقنا الذي نقلوا إليه كل سباقات الخيول. تكون مغطاة بالبخار كأنها قاطرات صغيرة، أقصد الخيول. وكيف تركض، هذه الأجساد الداكنة الطويلة في هذا اللون الأبيض... ومن حولها الجبال، جبال «الألب»». حرَّك يديه وكوب القهوة فيما أمامه في الهواء كأنه يرسم خطوط الجبال في الأفق. «وكان هناك جواد أبيض في أحد السباقات وحققت معه نجاحات كبرى، أقصد عند سمسار مراهنات سباق الخيل. ويبدو –أتفهمني– هذا الجواد الأبيض، يبدو رائع الجمال، كنت دومًا أحب الجياد البيضاء، أن أعتلي هذا الظهر الأبيض... على الرغم من أن هناك ناسًا، لا يحبون الجياد البيضاء ويقولون: لا أراهن أبدًا على جواد أبيض. لقد عرفت ذات مرة جوادًا أبيض، امتطيته عدة مرات، كان اسمه «كرومات» لأنه كان مكسوًّا بالكروم، كان حصانًا رائع الجمال...». كلما كان يقول كلمة «حصان»، كان يتلعثم لوهلة «رائع الجمال...» ويتردد. كان قد قضى حياته بأكملها مع الجياد؛ حسبما عرفت في ما بعد، «... وهذا الجواد الأبيض، وسط كل الأجساد الأخرى ذات اللون البني والأسود...» وبصوتٍ منخفض للغاية، كاد أن يكون حنونًا، نطق بهذه الكلمة «الأجساد»، ونظر إلى أوراق اللعبة، التي كانت تومض أمامه على الشاشة، «وهناك، في «سانت موريتس»، كان يبدو كأن الفارس في السباق يُحلِّق طائرًا. أتفهم، دون حصان، في الهواء، وسط حشد الآخرين، يُحلِّق...» أومأ برأسه بعض المرات وحسبما سبق وأن حكى لي، استطعت

أن أتخيل الأمر جيدًا. سمعت بالكاد الألحان الهادئة للماكينات. في الطريق القريب من الجبال الألبانية، حيثما كنا لا نزال نعمل قبل أيام قليلة، تساقط الثلج أيضًا، وكنا نزيل القضبان ونتدثر في معاطف ثقيلة، وعندما حكى لي عن «سانت موريتس»، كدت أن أصدق أنني أسمع دوي صوت السنابك على البحيرة المغطاة بالجليد، ثلوج على الجبال، سباق خيول على بحيرة متجمدة، والغيوم الصغيرة، التي كانت تنطلق من الجياد وهي تنفث لاهثة، والبخار المتصاعد من أجسادها المتصببة عرقًا والممتزج بالثلج الذي كانت سنابك الخيل تحركه على هيئة دوامات.

كان لا يزال ينظر صامتًا إلى الشاشة أمامه كأنه يرى هناك فارسه المُحلِّق طائرًا، ولم يكن من الممكن تمييز الجواد الأبيض في دوامة الثلج إلا عند إلقاء نظرة بدقة...

ضغطت على بضعة أزرار وألقيت بالعملات النقدية في الماكينة بعد ذلك ورأيت من زاويتي عيني كيف تناول سيجارة من العلبة الصفيح بتكلف وأشعلها.

سألته: «أليس ثمّة خطرًا أن يتكسر الجليد أسفل منك؟».

نفث الدخان وأشار بالنفي «يكون الجليد سميكًا للغاية. درجة حرارة عشرة تحت الصفر. بارد حقًّا. وتنطلق الجياد عليه بسرعة محدثةً صوتًا مدويًا ولا تضع وزن أجسادها على موضعٍ ما إلا لكسور من الثانية. لوقتٍ أقل حتى من دقيقة في مسافة ألف مِتر. وهناك أنواع مخصوصة من الجليد أسفل السنابك؛ بحيث لا تنزلق على الإطلاق. لا يمكن أن يحدث شيء سيئ على الإطلاق ولم يحدث أيضًا ثمَّة شيء سيئ أبدًا منذ...» أخذ يلوح بالسيجارة أمام وجهي ذهابًا وإيابًا فصار الرماد يتساقط على الأزرار الكثيرة متعددة الألوان الموجودة أسفل الشاشة «قرابة مئة عام، كانت قد مرت في تلك الأثناء بالتأكيد، ربما يمكنني أن أقول هذا. لا، في

الحقيقة هذا أمر مستحيل. لا يمكن أن يتكسر الجليد من أسفل أحد».

وددت أن أسأله من أين عرف هذا الأمر حق المعرفة هكذا إن لم يكن قد زار «سانت موريتس» قط؛ ولكنه كان نفسه قد امتطى الخيول، باعتباره فارسًا في سباقات الخيول، وكان قد روى لي هذا الأمر قبل قليل. والفرسان جميعًا يكونون قصيري القامة بعض الشيء، مثله، كان هذا هو تقريبًا كل شيء، كنت أعرفه عن الفرسان وعن سباقات الخيول على الرغم من أنني ترددت مرات على مضمار سباقات الخيول في مدينة «لايبزج».

ورويت له كيف أن أبي كان يذهب معي، عندما كنت طفلًا، إلى السباقات في «لايبزج» في الأوقات المحددة لها، وبعد ذلك حكيت عن «البلقان» أو الأفضل أن أقول: عن البلدان المدمرة في «يوغسلافيا» القديمة؛ حيثما كنا نرمم من جديد الطرق الخربة، وأومأ هو برأسه وقال: «أجل، لقد تداعى العالم، في كل مكان» وبعد ذلك أخذنا نلعب في صمت بضع جولات في ماكينة لعب «البوكر» وبعد ذلك ذهبت سريعًا إلى شباك الاستعلامات، إلا أن رحلة الطيران لم تكن قد تهيأت بعد منذ وقتٍ طويل؛ إذ إن كثافة الثلج المنهمر قد ازدادت بالخارج على الأرجح.

كان كشك الألعاب يختبئ نوعًا ما بين المقاهي ومطاعم بيع الوجبات الخفيفة، القهوة ذات الرغاوي وكيك الشوكولاتة، التي لم يعد يجلس فيها سوى بضعة أشخاص، باب دوار خلف المدخل، بالكاد يوجد ضوء، ليس هناك سوى الوميض متعدد الألوان للماكينة، وهنا أيضًا لم يكن يجلس سوى أشخاص قليلون ويلقون بالعملات النقدية في الماكينات في وميض الضوء. وكنت أحتاج إلى شيء ما بعد أن عبرت الباب الدوار، كان هناك رجل يقف بجوار الباب الدوار ويرتدي بذلة سوداء وأومأ لي برأسه حتى وجدت ركننا من جديد، حيثما كان هو لا يزال جالسًا ويحدق في الشاشة، دون أن يحرك ساكنًا تمامًا وهو مسترخٍ؛ بدا أقصر قامة، قزم

في كهف مضيء، بينما كان يبدو لا يزال متمتعًا بالحيوية قبل وقتٍ قليل، وكاد أن يكون مبتهجًا بعد أن بادرته بالحديث منذ قليل عند شبابيك الاستعلامات.

جلسنا لمدة ساعة بالفعل تقريبًا وبدا لي في غضون ذلك كأننا نعرف بعضنا بعضًا منذ زمن طويل، ألفة أكشاك الألعاب، ألفة الانتظار وليالي الشتاء، «البلقان»-»فيينا»- «درسدن»-»لايبزج» والجليد على البحيرة الكبيرة. قال: «بضع سنوات فحسب، أتفهمني؟ أقصد أنه ربما كان يجب عليَّ أن أكون هناك، أي في العالم، قبل بضع سنوات فحسب. ربما عشر سنوات أو أكثر قليلًا، الأفضل في مثل عمرك، عندئذ ربما كنت سأستطيع أن أمتطي الخيول، في «سانت موريتس»، في بحيرة ما، هذا كان حلمي دائمًا».

كنت أقدِّر سنه بأنه ربما يكون في نهاية الأربعينيات أو مستهل الخمسينيات لكنه كان يبدو أكثر شبابًا بكثير في بعض الأحيان، عندما كان يحكي عن الخيول –وكانت أسماؤها مثل تعاويذ سحرية– ولم يكن أيضًا أكثر طولًا بكثير من طفل.

«اليوم، ما هي الفرص التي ربما تتاح لي اليوم... ليس فقط «سانت موريتس»، «ميدان لونج شامب لسباق الخيول»، يا له من مضمار سباق. ليس بإمكانك على الإطلاق أن تتخيل مثل هذا الأمر، أجود خيول في العالم، أو «أسكوت»، مضمار خيول «رويال أسكوت»، كل شيء يتحلى بالوقار، عندئذ تستشعر التراث. الملكة، والخيول الباهرة للملكة. وهذه المُدرَّجات الضخمة، ما من سبيل للمقارنة مع مدن «لايبزج» أو «درسدن» أو مروج «باسندورف» في مدينة «هاله»، وكل شيء ذو تنظيم رائع. والأموال، أي قيمة الجائزة ورسوم البدء الموجودة هناك، ما من سبيل للمقارنة، ما من سبيل للمقارنة، وعشرات الآلاف بجوار المضمار وفي المُدرَّجات يُهلِّلون

لك... بضع سنوات فحسب، أتفهمني؟» ارتشف من قهوته وبعد ذلك خلع قلنسوته وتخلل بيده شعره الرمادي. رأيتُ أن جبهته كانت مغطاة بالعرق. وضع قلنسوته على الشاشة (بعد ذلك شرح لي أنه لا يحب كلمة *قلنسوة المهربين*؛ فالمهربون كانوا رؤساء عمال، كان يفضل تسمية *قلنسوة رياضية*؛ إذ كان قد قضى طوال عمره كاملًا في رياضة الفروسية) وأخذ يزيح القلنسوة الرياضية الكاروهات على البطاقات البريدية البراقة ذهابًا وإيابًا وهو غارق في أفكاره.

سألت: «في أي موضع من النمسا بالتحديد تقع بلدة «سانت موريتس»؟».

«لا» قالها وابتسم فاستطعت أن أرى أسنانه الأمامية المعوجة «إنها تقع بالأعلى في «سويسرا». لكنني لم أصل سوى إلى «فيينا». فزوجتي كانت تود دائمًا أن تذهب إلى «فيينا»، المنشآت الإمبراطورية والملكية، المقاهي، كيك الشوكولاتة، حديقة «براتر» العامة... بطريقة أو أخرى لم يتأتَّ هذا الأمر أبدًا. والآن أنا عالق هنا. ما من سبيل لـ«سانت موريتس» مرة أخرى».

ارتدى قلنسوته وضغط على بضعة أزرار وبدَّل ثلاثة كروت، لم تجلب له شيئًا، لقد فشل كلانا في غضون ذلك.

لا أدري لماذا لم نذهب إلى مكان التفتيش ولم ننتظر عند البوابة، صحيح أنهم كانوا قد قالوا على الأقل بعد ساعتين، إلا أنه من المؤكد أن أغلب المسافرين كانوا بالأعلى فعلًا وكانوا ينتظرون وينظرون عبر الواجهة الزجاجية للبوابة نحو العاصفة الثلجية، ورود مكسوة بالجليد على الزجاج، لكننا كنا نجلس في كشك اللعب الصغير ذي الإضاءة الخافتة هذا. وهنا لم تكن تلمع سوى الماكينات وكانت تُشغِّل بين الحين والآخر ألحانها الموسيقية. كانت حديقة «براتر» العامة مُغلقة في هذا الوقت من العام.

«لكن الآن» قالها؛ لأنه كان معه أربعة كروت تحمل رقم ثلاثة ولوهلة عاد حماسه السابق «لكن الآن الحظ سيحالفني مرة أخرى بالتأكيد!» جلب رقم أربعة ثلاثين ماركًا، وكان «فرانك» قد ألقى في الماكينة عددًا كبيرًا من العملات المعدنية لكن الآن بدا أن الأمر أصبح مجديًا أخيرًا. لكن بعد ذلك ظهر في الماكينة سؤال: هل تود المضاعفة، أي على الأقل أن تستغل الفرص. كارت أحمر أم كارت أسود، نسبة خمسين إلى خمسين، ليست بالنسبة السيئة. ضغط «فرانك» على اللون الأحمر. وضاعف المكسب إلى ستين ماركًا. «ربما يمكنني القول إن الأحمر سيمنحني مكسبًا مرة أخرى». مئة وعشرين. أصبح هادئًا تمامًا عندئذ، على الرغم من أنه كان قبل قليل، أي عندما حقق مكسبه الأول، قد شعر بفرحة عارمة. «لكن زوجتي لم تود أبدًا أن تذهب معي إلى «سانت موريتس». أي إلى مضمار السباق. إلى البحيرة المتجمدة. أنت وخيولك -كانت تقول هذا دائمًا- يكفي أن يكون هذا عملك أنت... ألا يمكننا أن نقضي إجازة مثل الأشخاص الطبيعيين؟» أخذ يُقلِّد زوجته ويهز رأسه أثناء ذلك وما تمالكت نفسي أن ضحكت.

قال بعد ذلك: «كانت على الأرجح محقة لكن عالم الخيول... هو أكبر من كونه عملًا». حدَّق في الشاشة وأخذ يمعن التفكير، مرتين باللون الأحمر، لون أحمر من جديد؟ أم لون أسود؟ ثمَّ مدَّ يده فجأة في الجيب الجانبي لمعطفه وأخرج منه هاتفًا محمولًا كبيرًا ونظر لبعض الوقت في الشاشة كأن شخصًا ما كان يسدي له النصح عبر الرسائل النصية القصيرة وبعد ذلك أغلق الهاتف ودسه في معطفه. ربما كان يريد ألا يتعرض للإزعاج.

سألت: «وعندما كنت أنت نفسك تقوم بذلك، أي على متن الخيول، هل كنت تراهن أيضًا؟».

قال: «من حين لآخر، من وقت لآخر، بالطبع. معلومات، أتفهمني؟ كنت

دائمًا قريبًا من المعلومات. كنا نمتطي الخيول أيضًا أثناء التمرين، فكنت أعرف بالفعل كيف كان حالهم. حللت ذات مرة في «برلين» –حدث هذا في سباق خيول «الديربي»- في المركز الثاني وفي بلدية «هوبيجارتن» – حدث هذا في وقتٍ قليل، قليل حقًّا، تم التقاط الصورة النهائية للسباق، الصورة التي تحدد من عبر خط النهاية أولًا من المتسابقين، وصلنا في الوقت نفسه لخط النهاية. لم تفصل بيننا مسافة شبر. ولا حتى رأس قصير، لا، مجرد قيد أنملة. ما زلت أظن اليوم أنني كنت الأحق بالفوز. لا يهم تمامًا ما الذي رآه هؤلاء في الصور. كنت قد راهنت علينا بقدر كبير من المال. ذهبت به زوجتي إلى شباك المراهنات وهي تطلق السباب، أي ذهبت بـ«موندشتاين».

««موندشتاين»؟».

«أجل، هكذا كان اسم الجواد. ما زلت أظن اليوم أن هؤلاء لم يكونوا يريدون ببساطة أنني...».

سألته: «كم مرة حققت فوزًا في مسيرتك المهنية؟» وتذكرت كيف كان والدي يأخذني معه إلى مضمار السباق عندما كنت طفلًا. لم يكن على دراية كبيرة بماهية السباقات؛ كان مفتونًا بالأشخاص المتسكعين هناك، مقامرون، ومهووسون بالخيول، ومجموعة كبيرة من أفراد الشعب كأنهم في مكان لإقامة أحد الاحتفالات الشعبية، وبعد ذلك فرسان السباقات الصغار، الذين كان يريهم لي كثيرًا وكيف كانوا يقفون إلى السياج قبل السباق وهم يرتدون ملابسهم الرياضية متعددة الألوان وكان بعضهم يدخن السجائر وربما كان الشاب «فرانكي» موجودًا هناك آنذاك.

«كان هناك من هم أفضل مني. كان هناك من هم أسوأ مني. فزت ذات مرة في «وراسو»، في سباق «فيلكا فرشفسك» الشهير. مع فرس اسمه *تا*وتروبفن. كان هذا أفضل موسم لي. قبل خمسة عشر عامًا تقريبًا. وبعد

ذلك توقفت واضطررت للاستسلام. فقد سقط حصاني في حفرة وكان يحدث في بعض الأحيان... كانت المرة الأخيرة التي أمتطي فيها فرسًا. *فيلدروزه*. ما زلت أذكر هذا الأمر كأنه حدث اليوم. كانت أنثى حصان جميلة. اضطررنا لأن نطلق عليها رصاصة الرحمة لنخلصها مما ألم بها».

ضغط على أحد الأزرار واختار كارتًا، إما أحمر أو أسود، نسبة خمسين إلى خمسين، ألم يكن اسم الفرس الذي فاز به أول سباق له قبل سنوات كثيرة *فيلدروزه*؟ سقط الكارت وضاعف هو مكسبه إلى مئة وستين. أومأ برأسه ورمقني بنظرة كأنه يريد أن يقول: «أمر بسيط تمامًا، أليس كذلك؟» وقلت: «تعالَ، فلتستلم النقود وتفرغ علب الكروت» لكنه أراد أن يضاعف مكسبه مرة أخرى. حدَّق في الشاشة. أحمر أم أسود؟

«عندما ينقطع وتر قوى هكذا» قالها بينما ظل يمعن التفكير وأضاف: «تشعر بهذا قبل أن تسقط. أتعرف هكذا كان الأمر، بالنسبة للفرس، وتحاول أن تكون في حالٍ جيدة لكي لا تنهار».

«هل سبق أن انكسر شيء ما في جسدك؟» هكذا سألته لأنه لم يظهر عليه أنه ينوي الضغط على أحد الأزرار. أحمر أم أسود. مئة وستون. هل كانت العملة المستخدمة هي اليورو أم المارك؟ لكننا كنا بالطبع في «فيينا»، ألم تكن العملة المتداولة هنا حتى مطلع الألفينات هي الشلن النمساوي؟

«هل سبق أن انكسر شيء ما في جسدي؟» ضحك الرجل قصير القامة ورفع يده عن الأزرار. «لقد توقفت في وقتٍ من الأوقات عن الحساب. عظام الترقوة وذراعاي وكتفاي وساقاي وأضلاعي، كل شيء، كل شيء مرَّ بهذا. ما عدا عنقي».

عاود الضحك لكن بصوتٍ منخفض تمامًا هذه المرة. كانت ضحكة من هذه الضحكات المريرة التي أصبحت أراها وأسمعها كثيرًا بعد ذلك لديه.

«كنت محظوظًا في هذا أكثر من بعض زملائي. وإلا كان جسدي قد انكسر بالكامل أو تعرض لكسور مضاعفة. وفي صور الأشعات... إن هياكلنا العظمية تبدو مثل أشجار».

واختار هو من جديد اللون الأحمر ورأيتُ كيف ارتعشت يداه. أمر سهل فحسب، أو أنني كنت أتذكر هذا على الأقل. ثلاثمئة وعشرون. لم يبتهج مرة أخرى وظل جالسًا على كرسيه في هدوء كأن هذا كله لم يكن أمرًا ذا شأن بالنسبة له. قلت: «تعالَ، فلتفرغ علب الكروت وتستلم النقود».

قال: «كان يوجد هناك طقس قديم عندما كان أحد الخيول يموت في مضمار السباق، أي عندما كانوا يضطرون لإطلاق الرصاص عليه. كنا نمضي و... لكنني أظن أن اليوم لم يعد أحد يفعل هذا».

لكنه لم يحكِ لي أي طقس بالضبط كان هذا الطقس؛ لأن مبلغ الثلاثمئة وعشرين قد ضاع. إذ كان قد جرَّب اللون الأسود لكن علبة الكروت اللعينة أعطته كارتًا أحمر اللون. أم أن العكس كان هو الصحيح؟

«حسنًا» قالها ورفع كلتا يديه. «المال يأتي ويذهب» لكننا عندما ذهبنا بعد ذلك باتجاه البوابة، كانت الممرات خاوية ولم نلقَ سوى بعض من عمال النظافة المنهكين والذين كانوا يمرون بنا وهم يدفعون عرباتهم ولكنه قال إنه ربما كان سيصبح «مالًا جيدًا» بالنسبة له ومسح في أسف على الثنايا المغطاة بالفرو في معطفه القديم المصنوع من جلد الغزال.

«لكن في حقيقة الأمر هذا جيد تمامًا» قالها بعد ذلك بقليل بينما واصلنا السير عبر الصالات الزجاجية والممرات الخاوية في المطار، «فهناك» قالها

وأشار بإصبع الإبهام أعلى كتفه كأن كشك الألعاب، حيثما كنا قد جلسنا سويًّا لوقتٍ طويل جدًّا «الماكينات والكمبيوتر وكل شيء ما زلت أذكره لكن هذا كان نهاية أحجار القمر». ابتسم.

وظللنا بعد ذلك جالسين إلى البار بالأعلى بجوار البوابات لبعض الوقت. ما زال القليل من الثلج يتساقط، ورأينا عبر البوابة الزجاجية كيف كانوا يقومون في ضوء الكشافات بإخلاء مدارج إقلاع وهبوط الطائرات ويزيلون الجليد عن الطائرات. وعندما وددتُ أن أقدم له كأسًا من نبيذ «الكونياك» مع قهوته، رفض قائلًا: «شكرًا، لم أعد أتناوله منذ عشر سنوات». كان قد وضع قلنسوته بجوار قدح قهوته على النضد وأخذ ينقر على قماشها الكاروهات.

«إن قالوا يا «فرانكي» إن عليك أن تذهب إلى المزاد الكبير في مدينة «نيو ماركت» وتجلب لنا فرسًا جيدًا؛ فيجب عليَّ أن أكون واضحًا عندئذ. لقد تغلبنا في ما سبق على خوفنا بتلك الطريقة».

تناول كأس نبيذ «الكونياك» الخاص بي وأمسك به أمام وجهه وأخذ ينظر عبر السائل ذي اللون الكهرماني ثم وضع الكأس من جديد على النضد.

وددتُ أن أسأله من الذي أرسله إلى مدينة «نيو ماركت»، إلى المزاد الكبير، لكنني عدلت عن هذا؛ فما أهمية هذا أيضًا. كان بوسعه أن يسافر بالطائرة إلى مدينة الخيول وهذا ما كان –حسبما بدا لي– الأمر الأهم بالنسبة له. *تاوتروبفن وفيلدروزه* وما من لون أحمر أو أسود.

عندما خرج من الطائرة في مدينة «درسدن»، لوَّح لي بيده مرة أخرى وسار عبر المهبط ومال بجسده قليلًا نحو الجانب على الأرض الملساء، كاد أن يبدو الأمر كأنه يعرج. ما زال القليل من الثلج يتساقط ورأيته يختفي

في الظلام. كنت أجلس في داخل الطائرة خلف اللوح الزجاجي وكان معي رقم هاتفه، رجل قصير القامة، كان يرتدي قبعة كاروهات ومعطفًا باليًا.

***

عندما نزلت من القطار في بلدية «سانت موريتس»، كان الليل قد حلَّ بالفعل. وضعت حقيبة سفري في الثلج ولففت الشال حول عنقي ووضعت على رأسي قبعة «تشابكا» التي كان ناظر المحطة في مدينة صربية صغيرة قد أهداني إياها، وهي المدينة التي ضممناها من جديد بشبكة الطرق. كان يسكن منذ سنوات في محطة القطار على الرغم من أن القطارات لم تعد تسير هناك، وكانت جداول مواعيد السفر القديمة متكومة على المنضدة الموجودة في مكتبه، الذي كان يستطيع أن يرى عبر لوحه الزجاجي خطوط السكك الحديدية المتهاوية. حلَّ الشتاء فجأة هناك وأوقفنا نحن ما كنا نؤديه من أعمال وواصلنا وضع الخطط وأخذنا ندبر أمر الأموال وننتظر فصل الربيع.

عندما بدأ القطار رحلته، رأيت البحيرة. كانت تقع -متجمدة ويكسوها الثلج- أسفل محطة القطار في الوادي المحاط بالجبال التي كانت تصطدم بسماء الليل بفظاظة أم أنها كانت السحب؟ وقد بدت البحيرة تتلألأ من أسفلها، قمر ضخم أبيض اللون ذو سطح مستوٍ.

ثم تبينت وجود الخيام والدعامات ومدرج من الأنابيب الفولاذية وحواجز أمنية بالأسفل عند البحيرة. كل هذا كان بعيد جدًّا ويمكن رؤيته بالكاد، ظلال قاتمة على الأرض البيضاء.

استدارت وتناولت حقيبتي ومضيت باتجاه مبنى محطة القطار، الذي كان الجبل يرتفع من خلفه، أضواء المنازل والفنادق عند المنحدرات. أخرجت هاتفي من جيب معطفي وشاهدت وصف الطريق نحو الفندق،

الذي كنت قد حمَّلته من الإنترنت. عندما قابلت «فرانك» في المطار في «فيينا» آنذاك، كانت أجهزة هواتفنا المحمولة ما زالت مزودة بأجهزة إيريال يمكن خلعها وأزرار ضخمة لكنها لم تكن مزودة بخاصية الدخول على شبكة الإنترنت. توجهت صوب ضوء صالة محطة القطار وخلعت قفازي.

كان الفندق، الذي كنت قد حجزت أنا و«فرانك» غرفتينا فيه، يقع على بعد بضع مئات أمتار فقط من محطة القطار. وكنا قد خططنا الرحلة في صيف العام الماضي؛ فقد زارني حينها في مدينة «بلجراد»؛ لأنه كان قد أتى إلى هناك بحصان مخصي، كان قد باعه إلى أحد الفرسان الصربيين كبار السن. وكان قد قال: «يجب هذه المرة أن ينجح الأمر. «سانت موريتس». لقد ادخرت بعض المال».

وكان هذا أمرًا جيدًا؛ لأن تكلفة الإقامة في الفندق كانت باهظة للغاية على الرغم من أننا كنا قد حجزنا الغرف فيه قبل ذلك بشهور.

صعدت الجبل في أحد الممرات، كانت المصابيح تضيء يمينًا ويسارًا، وكان الثلج قد أزيح من الطريق لكن الثلج كان قد تساقط قليلًا وعندئذ أيضًا تفتتت بضع ندفات ثلج على معطفي وبعد وقت قليل بالفعل أخذت ندفات الثلج تدور في ضوء المصابيح الأصفر وكلما زاد ارتفاع المسافة، التي كنت أمضيها في هذا الممر، ازدادت كثافة الغطاء الثلجي أمامي. ظللت واقفًا لوقتٍ قليل وقلبَّت بصري في ما حولي، نوافذ المنازل والفنادق المضيئة بجواري على المنحدرات، لكن لم يكن من الممكن رؤية أي شخص. واصلت السير باتجاه الفندق ونظرت إلى شاشة هاتفي المحمول.

كنا قد التقينا عدة مرات في السنوات الماضية، كان كثير السفر، مثلي.

كان يعمل تارة هنا وتارة هناك سائس خيل أو عاملًا يقوم بعلف

الخيول، مدن «درسدن» و«لايبزج» و«هاله»، وكان قد عمل لمدة عام في إسطبل لخيول السباق في مدينة «دورتموند» «لكن منطقة «حوض الرور» لم تكن تعني شيئًا بالنسبة لي». كان يبيع ويشتري أحد الخيول بين الحين والآخر. وكان لا يتحدث إلا في ما ندر عن مدينة «نيو ماركت» مدينة الخيول التي كان قد جلب معه منها قلنسوته الرياضية الأنيقة.

كان قد سألني في الهاتف: «أما زلت في المدينة البيضاء؟» وأضاف بعد ذلك –على الرغم من أن الأمر كان واضحًا تمامًا لي– «هذا أنا «فرانك»، «فرانكي»».

قلت له بعد ذلك: «نريد أن نذهب أخيرًا إلى البحيرة البيضاء الباردة»، في «بلجراد»، المدينة البيضاء، التي كنت أعمل في الطرق فيها منذ شهور وهي الطرق التي كانت قد تعرضت للتدمير هناك في نهاية التسعينيات. كان يتحدث الروسية والبولندية قليلًا، فالكتلة الشرقية هي مسقط رأس الكثير من فرسان السباقات، بعد مرحلة التحول السياسي في ألمانيا، «نبيذ أبيض، نعم، نعم، نعم، أبيض (قالها بالروسية) نبيذ «شنابس»، هكذا كانوا يسمون مشروبنا الكحولي طيب المذاق، لكن بالنسبة لي كانت هذه هي نهايتي مع احتساء الخمور آنذاك».

عندما هبط في مدينة «بلجراد» من سيارة نقل الخيول، لفت نظري أنه كان يسير منحنيًا انحناءة خفيفة كأنه يعاني من آلام ما. لكنه كان في الطريق لمدة تزيد عن خمس عشرة ساعة بصحبة الفرسٍ، وعندما التقيته بالفعل للمرة الأولى، في المطار في «فيينا»، كان يعرج قليلًا «إن هياكلنا العظمية تبدو مثل أشجار».

أمسك بجانبه الأيسر، أسفل صدره بقليل، وهزَّ بعد ذلك الجزء الأعلى من جسده يمينًا ويسارًا وألقى عليَّ التحية بحماسٍ غامر كطريقته المعهودة.

«كلا، السيد «كراوزه» لم يسجل إجراءات الوصول بعد (جملة بالإنجليزية)».

لم أفهم لماذا تحدثت معي بالإنجليزية وسألتها مرة أخرى -بالألمانية طبعًا- هل ترك لي رسالة، ومن جديد قالت السيدة العجوز الموجودة خلف مكتب الاستقبال: «كلا، السيد «كراوزه» لم يترك رسالة». وقلت: «يمكنك أن تتحدثي بالألمانية» وقالت: «أنا لا أتحدث سوى اللهجة السويسرية الألمانية (بلكنة مكسورة) ولا أفهم سوى القليل من حديثك باللغة الألمانية».

كانت مجموعة فنادق ضخمة سامقة على الجبل كأنها قصر تلقي بظلالها على فندقنا وكنت قد رأيتها بالفعل من محطة القطار.

قلت (بالإنجليزية): «سأذهب إلى البار» وأخذتُ مفتاح غرفتي وذهبت إلى النضد، الذي كان يسد طريق غرفة الاستقبال نحو الحائط، وشعرتُ أن السيدة الموجودة عند الاستقبال كانت تستخف بي بشدة بلغتها الإنجليزية الغريبة.

لكن المشهد بأكمله كان يناسب «فرانكي» بطريقة أو أخرى وانتظرت مليًّا أن يظهر فجأة من أي مكان، الرجل القادم من مدينة «نيو ماركت». لكنه لم يعد هناك، في مدينة الخيول، منذ وقتٍ طويل بالفعل.

سألته: «ما نوع الفرس الذي أتيت به إلى هنا؟» وأشرت إلى سيارة النقل الخاصة به. كنا قد التقينا بالقرب من حلبة سباق الخيل القديمة وكانت إسطبلات الخيول تقع أسفل طريق علوي مؤدٍّ إلى مركز المدينة. وكان مركز المدينة البيضاء يقع بالأعلى على أحد الجبال وكانت حلبة سباق الخيل، أي مضمار سباق الخيل، تقع بالأسفل في السهل.

«لم يعد جيدًا بما فيه الكفاية من أجل عالمنا لكن من أجل هذا!».

«كيف تظن هذا يا «فرانكي»؟».

«كان بالفعل في الجانب الآخر. إصابة في وتر الفرس. اعتنيت به ودللته من جديد. إنه مال قليل فقط، الذي يدفعونه لي هنا، لكن لا بأس».

«وهل ظل طوال الوقت في الخلف هنا بالداخل؟» أشرت إلى سيارته لنقل الخيول.

«كلا، لقد أخرجته في النمسا لقليل من الوقت واقتادته عبر أحد المروج الخضراء. شيء من قبيل المرعى الجبلي. وهناك ربما كاد أن يهرب مني. الحصان الصغير». اقترب أكثر من سيارة النقل ومسح على معدنها كأنه شعر ظهر الحصان. صوت صهيل منبعث من الداخل. «هل ترى يا فتاي الشاب، نحن هنا الآن. أتعرف، نحن هنا الآن».

جلست إلى البار واحتسيت نبيذًا أحمر لكن «فرانكي» لم يأتِ. ألقيت نظرة مرة أخرى على الرسالة النصية القصيرة التي كان قد أرسلها لي في الصباح. «لا تقلق لو تأخر الوقت، فالاتصالات في «زيورخ» ضعيفة. وسوف نلتقي على كل حال عند تناول وجبة الإفطار أو في السباق، أنا في طريقي إلى المطار. تحياتي، «فرانكي»».

وددت أن أتصل به هاتفيًّا لكنني عدلت عن ذلك وأخذت أطالع في هاتفي المحمول متى تسافر آخر قطارات من «زيورخ» إلى «سانت موريتس». كان هناك عدد كبير من خطوط القطارات وبعض القطارات لم تكن تصل إلى المدينة الصغيرة القابعة في الجبال إلا في الصباح.

سألتني السيدة العجوز التي تبعتني من غرفة الاستقبال إلى البار وأصبحت عندئذ تقف خلف النضد: «أتريد أن تحتسي مشروبًا آخر؟ (قالتها بالإنجليزية)».

قلت: «أجل، بكل سرور» وصبَّت لي كأسًا أخرى من النبيذ الأحمر. أغلقتِ الزجاجة بالفلين ووضعتِ الزجاجة أسفل النضد، كان نبيذًا أحمر طيب المذاق للغاية، وكان ثمنه مبلغًا ضخمًا من المال وعندما أتى «فرانك» استطاع أن يشعر بالسعادة أنه لم يعد يحتسي النبيذ.

كان «فرانك» قد حكى لي كثيرًا عن احتساء فرسان السباقات للنبيذ. «الوضع اليوم مختلف. وبالطبع لم نكن جميعًا نحتسي النبيذ، لا. كان أبشع شيء هو الجوع اللعين. كنا نفقد الوزن سريعًا، كنا مضطرين لأن نفقد الوزن سريعًا دونما انقطاع. كنت أستطيع أن أمتطي الخيل ووزني ثلاثة وخمسين كيلوجرامًا. وفي بعض الأحيان حتى اثنين وخمسين كيلوجرامًا، لكنني كنت أفقد أعصابي أيضًا في وقتٍ من الأوقات».

كنا قد التقينا بعد السباق المنعقد في مدينة «لايبزج» في حانة «ألتن فاجه» وهي حانة تقع في الداخل. كان مضمار السباق -الذي كانت الخيول قد ركضت بسرعة فيه- يدور من حولنا في قوس منحنٍ كبير. كان يتحدث بصوتٍ منخفض كأنه لم يكن يريد أن يسمعه الآخرون. أن يسمعوا بأمر أعصابه. كان هناك مدربون وفرسان سباقات ومقامرون وعاملون في مضمار السباق يجلسون إلى المناضد في حانة «ألتن فاجه» وكان أغلبهم قد ألقوا التحية عليه عندما دخلنا إلى الحانة. كان قد خلع قلنسوته الكاروهات -التي ابتاعها من مدينة «نيو ماركت»- ووضعها أمامنا على المنضدة. لكنه لم يعاود الحديث بعد ذلك عن أعصابه. لكن عن ابنته. كنا نجلس أثناء السباقات في المدرج -على الجانب الآخر من مضمار السباق- بارتفاع المرآة الموضوعة عند الهدف مباشرةً. كثيرًا ما كان يتفحص مجموعة الزبائن من حولنا ومن أسفلنا، أثناء السباقات أيضًا، كأنه كان يبحث عن شخصٍ ما.

كان قد انفصل منذ سنوات عن زوجته بالطلاق ولم يكن يرَ ابنته إلا نادرًا.

قال في حانة «ألتن فاجه»: «لم تأتِ من جديد مع أنني أرسلت لها تذكرة للجلوس في المدرج». كان قد وضع يده على قلنسوته الرياضية الكاروهات وأخذ يدفع القلنسوة على المنضدة ذهابًا وإيابًا.

قالت السيدة العجوز: «إنها قبعة عسكرية جيدة للرأس (قالتها بالإنجليزية)» ومسحت على الفرو الأسود اللامع في قبعة «تشابكا» الخاصة بي التي كانت موضوعة بجوار كأس نبيذي على النضد.

قلت: «أجل، إنه فراء المينك. هدية» وأومأت برأسها وتقدمتْ بعد ذلك مرة أخرى نحو غرفة الاستقبال. على الأرجح أنها كانت قد سمعت بالفعل أن هناك ضيفًا متأخرًا سوف يصعد الجبل قبل أن أفطن أنا بالأساس إلى أن شخصًا ما دخل إلى الفندق. نهضت واقفًا. لكنه لم يكن سوى شخص بدين طويل القامة بعض الشيء وكانت معه حقيبة سفر ذات عجلات ولم يكن «فرانكي».

قال «فرانكي»: «الأعصاب، عندما تكون ذات مرة مناسبة لك... وما معنى ذات مرة، ما عسى المرء أن يفعل عندئذ؟».

«إن هياكلكم العظمية تبدو مثل أشجار» قلتها وأخذت أراقب كيف أخرج «فرانكي» بصحبة بعض الفتية العاملين في الإسطبل الحصان المخصي من سيارة النقل. كان الفرس يرفس بساقيه الخلفيتين بقوة وقد أوضح لي «فرانكي» في ما بعد أن هذا لا يحدث في الحقيقة إلا عند شحن الخيول. «عندما يكونون مضطرين إلى الدخول هنا، أجل، بالطبع، فمن ذا الذي يود بالفعل أن يدخل في مثل عبوات التخزين الصفيح هذه. لكننا كنا نريد أن نخرجه، إلى وطنه الجديد».

لكن الوطن الجديد بدا لم يعجب الحصان المخصي، الذي كان «فرانكي» قد أتى به إلى «بلجراد» حيث حلبة سباق الخيل؛ فقد استعصى بقوة

عندما أصبح بالفعل واقفًا على اللوح السميك المفرود ولم تصبح أمامه سوى خطوات قليلة. كان مالك الحصان الجديد يقف بجواري، شخص كان يرتدي بذلة رمادية ومعطفًا جلديًّا وكان يدخن سيجارة تلو الأخرى ويعلق على كل شيء باللغة الصربية.

كان الحصان يرتجف وهو واقف على اللوح السميك -الذي كان يصل بين السيارة والأرض- ولكنه أصبح هادئًا تمامًا عندما تقدم «فرانك» مقتربًا منه. ترك صبية الإسطبل اللجام، الذي كان يمتد إلى رأس الحصان، وتراخت قبضتهم ومضى «فرانك» مقتربًا جدًّا من الجسد الضخم ومن العنق الطويل المبلل بالعرق ووضع يده على شعر ظهر هذا الحصان المبلل بالعرق وتحدث إليه ليبعثه على الهدوء.

كان النبيذ الأحمر قد جعلني منهكًا وكنت قد ذهبت إلى غرفتي. استطعت أن أرى البحيرة من النافذة. كانت الجبال معتمة وكانت القمم متثلمة ولم يكن هناك قمر في السماء وكان كل شيء يتلون باللونين الأسود والأبيض.

وفي الليل -كان الصباح قد انبلج بالفعل- ذهبت مع «فرانكي» إلى البحيرة الكبيرة. وقال عندما كنا نضرب بأقدامنا في الجليد: «عندما كانت ابنتي لا تزال صغيرة، كنت أقرأ لها دائمًا الحكاية الأسطورية «رأس الحصان». هل تعرفها؟».

قلت: «لا أستطيع أن أذكرها». وبجوارنا كانت الخيول فوق الجليد تطلق أصواتًا مدوية وكان الثلج، الذي جعلته الخيول يتحرك مثل الدوامة، تغطينا كالضباب. «وا أسفاه أيتها الريح الصغيرة، وا أسفاه» قالها وسمعت صوت ضحكه منبعث من الضباب.

«ماذا؟».

«أوه يا «فالادا» يا من تعلق ميتًا هناك...».

«هل هذا جزء من الحكاية الأسطورية يا «فرانكي»؟».

«أجل» من جديد، أخذت الخيول تصدر أصواتًا مدوية وهي تمر بنا، هل دارت السباقات بالفعل؟ وغطتنا بسحب من الثلج. شعرت كيف اهتز الجليد بقوة. «لقد قطعوا رأس الحصان «فالادا» وثبتوه بمسمار على أحد الأبواب وعندئذ تحدث الرأس بكل النبوءات الممكنة عن ابنة الملك التعيسة».

«يبدو وقع هذا الأمر غريبًا يا «فرانكي». يبدو وقع هذا الأمر حزينًا». لكنني سمعت صوت ضحكه ينبعث من الضباب من جديد. «أوه يا ابنة الملك يا من تذهبين هناك» بدا أنه أصبح شارد الذهن للغاية، لم يعد من الممكن رؤية أي خيول على البحيرة، إلى أين ذهبت الخيول التي كانت قد مرت بنا للتو وهي تركض بسرعة؟

هتفتُ: «أين أنت يا فرانكي»؟»، شعرت بشيء ما أسفل مني. كان الجليد يهتز أسفل قدميّ مباشرةً، ليس على النحو الذي كانت الأصوات المدوية تنبعث به والاهتزازات تحدث به عندما كانت الخيول تمر بنا قبل لحظات وهي تركض بسرعة، وعندما نظرت نحو أسفل، كان الثلج كله قد اختفى وأصبح الجليد مثل الزجاج، ورأيتُ أسفل الزجاج الأجساد الطويلة، كانت تهبط ببطءٍ تام...

فتحت عينيّ وهمس أحدهم في غرفتي قائلًا: «وا أسفاه أيتها الريح الصغيرة، وا أسفاه» وشعرتُ بالخوف أن أرى رأسًا معلقًا على الباب لكنني عندما فتحت النور، كان كل شيء خاويًا.

احتسيت جرعة ماء وذهبت إلى النافذة. أشرق الصباح بالفعل خلف الجبال وكانت ظلال الجبال تخيم معتمة على ثلج البحيرة، وبدت ظلال القمم المخددة كأنها تشير إلى مضمار السباق، إلى الخيام متعددة الألوان،

إلى الحواجز الموضوعة، إلى مدرج من أنابيب فولاذية... في ما بعد، عندما دارت السباقات بالفعل، وقفت أمام المدرج، إلى الحاجز الموضوع، الذي كان طريق السباق المغطى بالثلوج يمتد من خلفه أعلى الجليد، وسمعت صوت المعلق على السباق يقول: «***فويربليك*** في مواجهة ***ميرفيند*** والآن أصبحا في أعقاب بعضهما، ***فويربليك*** و***ميرفيند***» كان الناس يقفون بجواري ويتكئون على السور وينتفضون حماسًا ويصفقون لكلا الفرسين اللذين كانا قد ابتعدا بمسافة كبيرة عن بقية الخيول، ويشعلون حماسهما عندما كانا يركضان بسرعة باتجاه الهدف وهما يقتربان بعضهما من بعض بشدة. لكن لوهلة بدا الأمر كأنهما انعطفا في خط النهاية أمام المدرج وكأن حصانًا واحدًا فقط سيركض بسرعة هناك عند مقدمة المضمار؛ إذ كان ميرفيند حصانًا ذا شعر أبيض، كان واحدًا من الخيول التي تكاد تكون بيضاء اللون تمامًا وكان من الصعب رؤيته في الثلج المتحرك مثل الدوامة. وبدا كأن الفارس، الذي كان يمتطي ميرفيند، كان يحلِّق مثلما سبق وأن حكى لي «فرانك» آنذاك في «فيينا». قلت: «لقد أنجزنا الأمر يا «فرانكي»، «سانت موريتس»» ولم أكن متأكدًا هل سمعني في الضوضاء وذهبنا بعد ذلك إلى إحدى الخيام لكي نشعر بالدفء ونتناول ربما طعامًا دافئًا. لم أكن أكترث هل فاز عندئذ ميرفيند أم *فويربليك* في السباق ولم أكن قد شاركت أيضًا في مراهنة السباق. شارك في السباق التالي حصان اسمه *أبندشتيرن* وقد راهنت عليه ببضعة فرانكات.

«ما اسم هذا الحصان الذي أحضرته أنت إلى «بلجراد» في الصيف الماضي؟».

قال «فرانك»: «*أبندفريدن*» وقاد الحصان إلى الحظيرة. كانت الإسطبلات متهاوية بعض الشيء شأنها في ذلك شأن حلبة سباق الخيل القديمة بأكملها.

قلت: «لكنه لن يجد سلامه في المساء هنا على الأرجح».

قال «فرانك»: «إنه حصان سباق، ما عساه أن يفعل غير ذلك...».

قلت: «يحال إلى التقاعد» لكن «فرانك» لم يرد على ذلك وأغلق باب الحظيرة وخرج إلى الفناء الواقع بين مباني الإسطبلات المُتصدِّعة، التي كان الطريق العلوي الخرساني الكبير يسير أعلاها وبامتدادها، وجلس على مقعد ما إلى أحد الجدران. رجل عجوز قصير القامة. ألقيت نظرة مرة أخرى على الفرس *أبندفريدن* الذي كان يقف عندئذ إلى حوض العلف ويلتهم الطعام –بينما كانت ساقاه الخلفيتان مربوطتين برباطٍ أزرق– والذي كان قد سلك الطريق كاملًا من ألمانيا إلى المدينة البيضاء لكي يركض هنا في سباقات خيال من الدرجة الثالثة، ثم خرجت إلى «فرانك».

«في وقتٍ من الأوقات» قلتها وجلست بجواره وأضفت: «سوف يُجرِّفون هذا كله هنا ويشيدون مركزًا للتسوق أو طرقًا علوية جديدة».

قال «فرانك»: «ربما، لكن سباقات الخيول ستنعقد دائمًا، في مكانٍ ما».

قلت: «طالما أنك تجلب لهم الخيول» وأغلقت عينيّ وشعرت على وجهي بالشمس، التي سقطت أشعتها على الطريق العلوي، وسندت رأسي على سور مبنى الإسطبل القديم المُتصدِّع. سمعت من مكانٍ ما صوت رنين معدني واضح لمطرقة ما –كانوا على الأرجح يركبون حدوة لأحد الخيول– وتذكرتُ كيف جلست مع «فرانك» قبل بضع سنوات –لا بدَّ أن هذا حدث بعد لقائنا الأول في «فيينا»– على مقعد أمام مبنى أحد الإسطبلات والذي كان متهاويًا ومُتصدِّعًا مثل الإسطبلات في حلبة سباق خيل المدينة البيضاء، مدينة «لايبزج» أو مدينة «هاله»، حكى لي عن عمله سائسًا للخيل، وكان عدد الخيول يقل عامًا تلو عام، ذكرى داخل ذكرى، وهناك، أي على المقعد المواجه للحائط المائل الذي كان الطلاء متفتتًا منه. وبينما

واصلت المطرقة ضرباتها على الحديد، فهمت أحلامه بمدينة «نيوماركت» مدينة الخيول و»ميدان لونج شامب لسباق الخيول» وببحيرة متجمدة في جبال سويسرا، كانت الخيول تركض عليها بسرعة.

«على الأرجح أن زمانه قد ولَّى» قالها «فرانك» وأخرج من العلبة الصفيح، التي كان قد حملها معه في «فيينا» آنذاك، إحدى السجائر التي لفها بنفسه «على الأرجح أنه نضج. لكن كان ينبغي أن يكون هذا كافيًا للسباقات هنا. لقد اعتنيت به ودللته، الوتر. ما عساي أن أفعل، مال قليل، إن الأوقات عصيبة».

قلت: «*أبندفريدن*، اسم جميل».

«كان لدينا ذات مرة فرس اسمه فريدنسبرينجر، كان هذا في مطلع التسعينيات».

قلت: «مضى وقت طويل على هذا». وأومأ هو برأسه وأسند رأسه إلى الجدار، الذي كان دافئًا بصورة مقبولة بفعل الشمس، التي أصبحت غارقة خلف الطريق العلوي، وأخذت أفكر في الطرق المُعطَّلة التي أصبحنا نرممها بالفعل منذ سنوات. وحكى لي من جديد، بأعين مغلقة، ورأسه مستندًا إلى الحائط، عن *تاوتروبفن* و*فيلدروزه* و*موندشتاين* والصورة الملتقطة له عند عبور خط النهاية في سباق الخيول الأعظم المقام في ألمانيا، عندما كان لا يزال فارسًا شابًّا وهو الأمر الذي لن يتذكره أحد لو سألته عنه.

أخذت أتأمل الفرسان وكيف اختفوا بعد السباق في إحدى الخيام وكيف ظهروا من جديد بعد ذلك قبل أن يبدأ السباق التالي وكانوا قد أزاحوا نظاراتهم الواقية إلى جباههم وقد تصاعد البخار من نَفَسِهم وتصاعد البخار من نَفَس الخيول. كانت السماء أعلى البحيرة صافية وزرقاء،

وكان الثلج قد توقف عن الانهمار في الصباح.

أخذنا نتسكع بين الخيام والأكشاك، كان هناك نضد كبير من الجليد، وكان من الممكن هناك احتساء نبيذ «الشمبانيا» أو النبيذ الساخن. تناولنا بعض الطعام واحتسينا بعض المشروبات وكان الدخول إلى بعض الخيام مقتصرًا على الأغنياء فقط ممن كانت كروت «شخص مهم جدًّا» تتدلى وتتحرك أعلى معاطفهم الفرو. «انظر إلى الأميرة النوبية هناك يا «فرانكي»»، لكن عينيه لم تكن تهتم سوى بالخيول على البحيرة الكبيرة البيضاء.

في السباق السابع، سقط فرس على الأرض، ورأينا كيف حاول الفارس أن يحرك جسده حركة دائرية في الثلج، وددتُ أن أهتف: «انتبه يا «فرانكي»» لكنه نهض واقفًا على قدميه من جديد عند الحاجز، على الجانب الآخر من المشاهدين، ونهض الفرس أيضًا من جديد ومضى متمهلًا متراخيًا خلف حشد الخيول الأخرى باتجاه الهدف، *أبندفريدن وأبندشتيرن*، ورفع قدمه اليسرى الخلفية قليلًا؛ فلم تعد تلمس الأرض، كأن هناك شيئًا ما قد تعرض للتلف. قال «فرانكي»: «ربما يكون الوتر»، وعندما أخذنا نتابع السباقات في حلبة سباق الخيول في المدينة البيضاء، كان «فرانكي» قد مضى فجأة.

«فلتنتظر يا «فرانكي»، إلى أين تود أن تذهب؟».

كان «فرانكي» قد بدأ يعرج من جديد وضغط بيده على جانبه الأيسر.

قال: «لا» وأخذ يعرج باتجاه المَخرْج «لعله كان من الأجدر بي ألا أجلبه معي».

قلت عندما أصبحت خلفه مباشرةً: «من كان يستطيع إذًا أن يعرف هذا، يا «فالادا» يا من تعلق ميتًا هناك...».

«ماذا؟» استدار. عادت الخيول بجواره من أرض السباق وقد غطاها العرق وكانت تتحرك متبخترة وتصدر صوتًا عاليًا. وقف ملتصقًا بالسور وبدا الأمر لوقتٍ قصير تمامًا –وفي ضوء المساء أعلى حلبة سباق الخيل– كأنه سيركض بجوارهم، سيركض معهم. إلى ساحة خلع السروج عن الخيول.

طويت غطائي أذني في قبعة «تشابكا» نحو أسفل. كان الجو قد أصبح باردًا في المساء. عدت إلى الفندق، وارتجف سطح البحيرة أسفل قدميّ وأخذ الجليد يحدث صوت احتكاك، واستطعت أن أشعر كيف أخذ يتكسر ببطء، ببطءٍ شديد.

***

عندما هبطت الطائرة بي في مدينة «لايبزج» في اليوم التالي، استقللت سيارة أجرة وذهبتُ إليه.

كنت قد اتصلت به هاتفيًّا عدة مرات من بلدة «سانت موريتس» لكنه لم يجب على اتصالاتي.

أقبلتْ نحوي سيدة عجوز عندما كنت أبحث عن الجرس، ««ف. كراوزه»» ومضيتُ إلى الداخل مرورًا بها. انتظرتُ حتى انصرفت السيدة واسترقت السمع في بئر السلم، الذي ساده السكون، ثم صعدتُ السلالم.

كان باب شقته مفتوحًا قليلًا وظللت أتعجب –في وقتٍ لاحق– لماذا لم يلقِ أحد نظرة إلى الداخل، عبر هذا الباب المفتوح الذي ظل مفتوحًا قرابة ثلاثة أيام بالتأكيد.

انتظرتُ لبعض الوقت أمام شقته. ولكنني اتصلت به بعد ذلك هاتفيًّا قبل أن أدفع الباب لأفتحه وسمعت صوت أزيز هاتفه في الشقة، أمامي.

كان مستلقيًا خلف الباب. كان جسده ملتويًا بصورة غريبة، وبدا «فرانك» –وهو متكور على الأرض– أقصر قامةً بكثير مما كان عليه بالفعل. كان يرتدي قلنسوته على رأسه وكانت قد انزلقت قليلًا وبدا شعره ناصع البياض أعلى وجهه أصفر اللون.

تذكرت الحلم الذي رأيته والذي كان قد جعلني أهب مفزوعًا من نومي في غرفة الفندق. كان عندئذ يطفو في الماء بين الخيول، وهو قصير القامة وعاري الجسد ومتكور في الماء، أسفل الجليد.

وقفتُ لبعض الوقت على عتبة الباب وأخذت أنظر إليه بينما كان مستلقيًا هناك هكذا. كان قد انتزع معطفه المصنوع من جلد الغزال –الذي سبق وأن ارتداه آنذاك في المطار في «فيينا»– من مشجب خزانة الملابس الموضوعة في الدهليز، وكان المعطف البالي موضوعًا أمامه على الأرض وكان هو قد وضع رأسه على الياقة المغطاة بالفرو. كان هناك بعض الدم أسفل فمه المفتوح. داكن ويكاد يكون أسود اللون على ألواح الأرض الخشبية للدهليز. كانت إحدى عينيه تحدِّق نحوي. ثقب في المعدة، هكذا حكوا لي في ما بعد.

لا بدّ أنه قد حاول أن يصل إلى الباب وكان قد بلغ مقبض الباب بأطراف أصابعه لكنه لم تعد لديه قوة لكي يصرخ مستغيثًا. كانت حقيبة سفره موضوعة على كومودينو صغير.

قلت: ««فرانك»» وجلست بجواره وأغلقت عينيَّ «أوه يا «فالادا» يا من تعلق ميتًا هناك...».

وبعد ذلك جاؤوا، هكذا كان الأمر في الأزمان القديمة، الطقس، الذي كاد أن يدخل طي النسيان والذي ربما لم يكن موجودًا قط؛ فعندما كان فرس ما يموت، كانوا يحتاجون لبعض الوقت، سيرًا على الأقدام عبر المضمار

بأكمله، ويتجمعون حول الفرس على شكل دائرة، أقصد فرسان السباق.

كانوا يميلون بالجزء العلوي من أجسادهم وينحنون ويجذبون طاقياتهم ويضمونها إلى صدورهم ويلبثون هكذا لثوانٍ.

الجزء الثالث

كان مصوري الفوتوغرافي ينتظرني في بلدة «فولفن». كان يقف أمام مبنى محطة القطار شبه المتهدم، وقد أدار ظهره لي، وأخذ يلتقط صورًا. كان من الممكن سماع صوت نقر الكاميرا الخاصة به بوضوح على رصيف المحطة الخاوي. التفت المصور الفوتوغرافي نحوي ومن جديد انبعث صوت النقر من فتحة الضوء في الكاميرا بسرعة متعاقبة ورفعتُ يدي أمام وجهي لأحميه.

لقد ظهر في بلدية «فولفن» أشخاص مستذئبون ومضينا عبر مبنى محطة القطار باتجاه المدينة. مررنا بآلات البناء والسقالات لكن بدا أن العمال قد انتهوا من أداء العمل بالفعل. تصاعد الدخان من مجموعات الحدائق المقسمة إلى حصص معينة وفاحت رائحة أوراق أشجار متساقطة محترقة.

حكى رجل عجوز، كان يجلس على أحد مقاعد المنتزه، عن استخراج المعادن في السهل الكبير حول المدينة، فوهات بركان ضخمة حيثما كانت الجرافات تنخر في الفحم البني كأنها حيات بيضاء.

كنت قد مررتُ ببحيرات كثيرة في طريقي إلى المدينة ربما أنهم كانوا يستريحون هناك، في القاع.

لقد ظهر في بلدية «فولفن» أشخاص مستذئبون لكننا عندما أتينا إلى شمال «فولفن»، انتظرنا دون جدوى سمسارنا. كان من المفترض أن يرينا منزلًا في شارع *شتراسه* دير *شيميه أربايتر* وهو المنزل الذي كان رجل ما قد عذب زوجته فيه طوال أيام حتى قفز من النافذة كأنه رجل مستذئب واختفى في إحدى الغابات القريبة.

سرنا عدة مرات في شارع *شتراسه* دير *شيميه أربايتر*، إلا أن أغلب المباني السكنية الجاهزة كانت خاوية. أخذ مصوري الفوتوغرافي يلتقط صورة تلو الأخرى للمباني السكنية الجاهزة المتصدعة وقد جعل الإسمنت الواجهات غير ملساء.

في هيئة التحرير، كانت لديهم نظرية أن ظهور المستذئبين له علاقة بعض الشيء بالترب التي ما زالت تتعرض للتلوث؛ فمداخن المصانع كانت قد لفظت لهب النيران طوال عقود. تحدث آخرون عن عمال السخرة الذين كانوا قد ماتوا هنا ولم يجدوا سبيلًا للراحة فأخذوا يكدرون صفو السكان. حكى لنا طفل، كان يقف وحيدًا أمام جدار المنزل ويلعب بإحدى الكرات –والتي أخذ يلقي بها مرارًا وتكرارًا في الحائط- شيئًا عن حد كريستالي لكننا لم نفهم وعندما صرنا نسأل الطفل أكثر وأكثر، ركض هاربًا. وبعد ذلك بوقتٍ قليل، مرت بجوارنا سيارة قديمة من طراز «فولكس فاجن» ببطء وأخذ بضعة شباب يتفحصوننا عبر الألواح الزجاجية بشكلٍ عدواني وعندما رفع مصوري الفوتوغرافي الكاميرا

الخاصة به، وضعت يدي على ذراعه.

سرنا إلى غابة «فولفن» –وهي غابة صغيرة تقع عند أطراف المدينة– وعبرنا نهر «فونه» الصغير المليء بالمستنقعات الذي كان يمر متعرجًا عبر السهل.

ضللنا الطريق في الغابة المختلطة، التي كانت قد بدت لنا صغيرة جدًّا عندما اقتربنا منها. وكنا نظن في بعض الأحيان أننا نسمع أصواتًا بين الشجيرات والأشجار. واكتشفنا في أحد المنخفضات كيسًا بلاستيكيًّا به عظام ومخلفات لحوم. كان الذباب يحلق حول الكيس ويغطي عدسة الكاميرا وخرجنا من الأدغال وأخذنا نبحث عن طريق العودة إلى المدينة. لقد ظهر في بلدية «فولفن» أشخاص مستذئبون.

مسافة بعيدة

ضحك الرجل.

سألوه مرارًا وتكرارًا في وقتٍ لاحق كيف استطاع أن يعرف هذا الأمر. لكن الرجل كان قد ضحك. وكان قد رأى الأمر بوضوح تام. كان مساءً صافيًا، وكان هو قد عبر الحدود بالقطار رقم 261 في هذا الوقت القصير وقبل أن يحل الظلام فجأة.

كان قد تولى في وقتٍ متأخر من العصر قيادة قطار البضائع الموحدة في «ميم». وكان قد قضى عطلة لبضعة أيام وقام برحلاته الأخيرة إلى «دال». قطارات البضائع الموحدة ذات عربات ممتلئة من المصنع الزجاجي.

كان يحبذ أن يبدأ السفر من «ميم». فعندما كان طفلًا، كان كثيرًا ما يقف هنا في الطريق أو على الجسور، التي كانت القضبان تمر أسفلها، وكان يراقب القاطرات البخارية القديمة، التي كانت لا تزال في مرحلة التشغيل آنذاك بين الحين والآخر، وكان ينتظر حتى يحل المساء وتضيء الأضواء الكشافة محطة قطارات نقل البضائع، ويرى الرافعات الكبيرة، التي كانت تتحرك ذهابًا وإيابًا على القضبان وتُزوِّد القطارات بالحاويات. تخللت أصوات ضجيج محطة قطارات نقل البضائع الليالي، صوت الصرير والطقطقة هذا، صوت ارتطام معدن بمعدن آخر. كانت جدته تسكن بالقرب من محطة القطار وكانت القضبان ومنشآت السكك الحديدية تقع خلف المنازل مباشرةً، كانت قطارات البضائع تسير كأنها تعبر شُعَب الجبال، بنية اللون وذات العربات المفتوحة من الأعلى والممتلئة بالبضائع السائلة، والتي كانت هناك شبكات مفرودة أعلاها. عربات رمادية اللون لنقل البضائع السائلة ومقوسة ومكتوب عليها بأحرفٍ

كبيرة «مصانع لوينا». كان قد سمع عن مصانع «لوينا» أثناء دراسته في المدرسة، مصنع كأنه مدينة، ألسنة لهب أعلى المداخن والليالي كأنها في وضح النهار.

عندما قاد القطار رقم 261 وبه عربات قطار البضائع الموحدة عبر ضواحي المدينة «ميم»، رأى منزل جدته بالأعلى على المنحدر. كانت تقف إلى النافذة في الطابق الثاني وتلوِّح له بيدها. «هل تأذنين لي أن أذهب إلى الجسر يا جدتي؟».

«لكن فلتعد قبل أن يحل الظلام».

لم يكن قطار البضائع الموحدة طويلًا إلى حد كبير. حاول هو أن يتذكر التواريخ ولكنه كان قد وقَّع على كل شيء قبل ساعة ونصف الساعة، ما عدد محاور العجلات التي كان يسافر بها؟ كان قد نام نومًا هانئًا وكانت زوجته قد اصطحبته في الضحى إلى القطار المتجه إلى المدينة «ميم». وكانت قد توقفت عن فعل هذا لوقتٍ طويل بالفعل لكنه كان يومًا خريفيًّا جميلًا، طقس لطيف في شهر أكتوبر. وكانا قد تجولا بخطواتٍ متمهلة في داخل المدينة وتناولا الأيس كريم وجلسا على مقعد بالقرب من النافورة في شمس الخريف. كان المساء أيضًا صافيًا. زاد شيئًا فشيئًا من سرعة السيارة فوصلت إلى مئة كيلومتر في الساعة ونظر نظرة خاطفة إلى الساعة. وصل في الدقيقة المضبوطة وفقًا لجدول مواعيد السفر؛ إذ كان قد مضى كثيرًا في هذا الطريق وعما قريب سيعبرون الحدود القديمة بالفعل. لم يعد من الممكن رؤية أي شيء لكن من الغريب أنه كان هناك شعور بها بشكلٍ أو آخر، أي بالحدود، بالمسافة البعيدة، بالاختلاف. على الرغم أن معظم الرحلات كانت تؤدي به منذ سنوات إلى الجانب الآخر من الحدود. بدت أرصفة محطات القطار بشكل مختلف، بدا الناس المتواجدون هناك بمظهر مختلف... على الرغم من أن الحدود لم تعد

حدودًا منذ خمسة وعشرين عامًا. «هلا أحضرتِ لي يا جدتي شيئًا من الجانب الآخر هناك؟».

«ما الذي تريد أن تحصل عليه إذًا؟».

«قاطرة صغيرة يا جدتي».

كان في كل مرة، قبل أن ينطلق إلى بداية وردية عمله، يمسح على أدوات مقعد السائق وعلى الرافعات وعلى عجلة القيادة وعلى المؤشرات بمنديل تنظيف النظارة أو بمنديل مبلل مخصص للحفاظ على النظافة الشخصية. انزلقت يده بالمنديل بحذرٍ تام على البلاستيك وعلى الزجاج وضمَّ بالمنديل ثنايا عجلة القيادة الدوَّارة ورؤوس المفاتيح الصغيرة. في أغلب الأوقات، كان مقعد السائق نظيفًا في أغلب الأوقات لكن كان يبدو له –بعد أن يقيم طقوسه بالاستعانة بمناديل تنظيف النظارة أو المناديل المبللة– أنه سبق له وأن قاد هذه القاطرة كثيرًا وأن هذه كانت قاطرته وأن هذا ما زال مقعد السائق الخاص به وأن هذا ما زال مكانه. كان الزملاء، الذين يرونه بصحبة مناديله، يسخرون منه كثيرًا لكنه كان سائق قاطرات جيدًا، سائق قاطرات ماهرًا للغاية، هكذا كان الزملاء يقولون، دائمًا مواعيده مضبوطة، دائمًا مستعد لأن يتولى ورديات عمل إضافية ولم يصب بأي مرض منذ أن تلقى التدريب المهني.

كانت الشمس قد غربت في حمرة الأفق لكن كان لا يزال هناك ضوء كافٍ لأن يتمكن من رؤية المناظر الطبيعية والطريق أمامه. كانوا قد وصلوا قبل قليل عبر محطة القطار الحدودية السابقة. لم تكن هناك منطقة يقلل فيها القطار من سرعته لكنه استطاع مع ذلك أن يرى أن الرصيف أمام مبنى محطة القطار القديم كان خاويًا كعادته.

كانت الأرض منبسطة، ساروا باتجاه الشمال الغربي، في منحنى ممتد

طويلًا قبل مسافة قليلة من إحدى الحدائق المقسمة إلى حصص والممتدة على يمين القضبان وعلى يسارها. كان يستطيع أن يرى الجبال بعيدة جدًّا عندما تكون الرؤية واضحة. لا بدَّ أنها كانت سلسلة جبال «هارتس» غير المرتفعة. كان قد سار كثيرًا جدًّا في هذا الطريق لدرجة أنه لم يتحقق هذه المرة هل استطاع أن يرى مع بداية الغسق التضاريس البارزة للجبل التي كانت تبدو في الأفق مثل سلسلة هضاب.

مدَّ يده إلى الإبريق المحتفظ بالحرارة وتحكم في المؤشرات. ربما يقلل السرعة قليلًا، بعد كيلومترات قليلة، في أطراف المدينة «باء». كان يحب السفر ليلًا. وكانت هذه هي ميزة نقل البضائع. إذ كانوا يسافرون كثيرًا في المساء وفي الليل. وكان قد قاد قطارات ركاب أيضًا باعتباره سائق قاطرات لكنه كان يحب العربات الخاوية من البشر، محور تلو الآخر، ولمئات الأمتار والبضائع في العربات، أطنان من البضائع، أطنان من الفولاذ، وهو وحيد تمامًا في مقعد السائق.

لسعت القهوة بشرته لكنه لم يشعر بهذا. كان أمرًا تافهًا لثانية فحسب، وربما أقل من ثانية، رأى الرجل يضحك على الرغم من أنه ابتعد بالتأكيد لمسافة مئة متر، المنحنى الممتد طويلًا، الذي اجتازه بسرعة تقل عن مئة وعشرة كيلومترات في الساعة، من أين جاء هذا الرجل؟ وقف الرجل مستقيمًا بشدة وأخذ ينظر إليه، ليس بجوار الطريق، أو ربما هكذا، لا، هناك كانت الحدائق المقسمة إلى حصص في حمرة ضوء الغسق. لم يستطع أن يتذكر أنه كبح سرعة القطار ولم يكن يتنفس، ما من شهيق وما من زفير، صوت صرير، صوت ضوضاء الفرامل، الذي كان يسمعه وبعد ذلك لا يسمعه من جديد، وبعد ذلك مات الرجل الضاحك.

شعر بهذا وشعر بكل شيء. كانوا ما زالوا يتحركون. يد موضوعة على زر الفرامل الكهربائية ويد على عجلة القيادة. رأى أنه وضع عجلة القيادة

على وضع الإيقاف. لا، كان قد شغَّل فرامل عربات القطار بالطبع أولًا والتي توقف تشغيل الفرامل الكهربائية بصورة آلية. كانت كل الفرامل تعمل. وضع الإيقاف، فرامل عربات القطار، الفرامل الكهربائية، الفرامل الإضافية.

أرسل بصره أعلى الحدائق المقسمة إلى حصص وأدرك أن أغلبها كانت خربة. حدائق مُهمَلة. نهض واقفًا وهو ما زال يضع يديه على عجلة القيادة الدوَّارة والزر. كان الإبريق المحتفظ بالحرارة موضوعًا على الأرض وكان البخار يتصاعد من القهوة. أصبح لون يده الموضوعة على عجلة القيادة أحمر. جلس من جديد في سكون.

***

رنَّ جرس هاتفه المحمول. «لا، لا، أنا في حالٍ جيدة». غروب الشمس أم شروق الشمس. زوجته على الهاتف. حلَّ المساء من جديد لكن هناك كان الغرب.

«أجل، بالطبع، أنا في حالٍ جيدة، الزملاء يعتنون بأمري، لا تقلقي». أنهى المكالمة. «سأتصل بكِ غدًا مرة أخرى. لا تقلقي».

كان قد غادر المدينة لكي لا يضطر إلى الحديث مع الرجل المسؤول عن سائقي القاطرات عندما يحدث شيء من هذا القبيل. رعاية، طبيب. وما زال يجلس في غرفة الفندق.

أصبحت القهوة، التي كان قد طلب أن يحضروها إليه في الغرفة، باردة. وضع يده اليسرى على اليمنى. كان هاتفه المحمول بجوار قدح القهوة.

كان قد فتح الباب ووقف لبعض الوقت في الباب المفتوح. يا له من غروب جميل. أشجار فاكهة صغيرة ومنثنية. «انتحار على قضبان السكك

الحديدية» هذا ما سبق وأن قاله في هاتف العمل وأعلن عن المكان. أشجار فاكهة صغيرة متكسرة في الغسق. قبيل المدينة «باء»، في مكانٍ ما خلف الحدود القديمة. ربما أنه واصل قيادة عربات قطار البضائع الموحدة في القطار رقم 261 من هناك إلى الشمال الغربي وبعد ذلك إلى الغرب نحو محطة القطار النهائية. كان يعرف أن عليه الخروج. أخذ كشاف اليد. كان عليه أن يمد كلتا يديه إليه. أصبح عندئذ داخل الإحصائية. كان من النادر للغاية أن يقف شخص ما أمام قطار بضائع. كان يعرف زملاء كثيرين يعملون في نقل الركاب، الـ... رعاية، طبيب، إحصائية، انتحار على قضبان السكك الحديدية. كان الرجل قد ضحك، ضحك له مباشرةً. نظر إلى الغيوم الحمراء، إلى الغرب، إلى الشرق. رنَّ جرس هاتفه المحمول. مدَّ يه بحذر إلى قدح القهوة.

***

كان قد سافر بالسيارة إلى المدينة «ميم» أولًا قبل أن يواصل السفر باتجاه المدينة «باء». لم يسبق له قط أن عبر الحدود القديمة بالسيارة. «لا، كل شيء على ما يرام. كل شيء سيكون على ما يرام. أجل، أنتِ تعرفين بالطبع أن الشركة تعتني بي، أن السكك الحديدية تعتني بي».

نادرًا ما كان يقطع طرقًا طويلة بالسيارة. كان قد استخرج رخصة القيادة قبل ما يزيد على عشرين عامًا، أثناء تلقيه للتدريب المهني. كان يذهب إلى وردية العمل بالترام أو القطار في أغلب الأوقات. وكان لا يستقل السيارة في المدينة إلا أحيانًا فقط من أجل ألا يبتعد تمامًا عما تعلمه في التدريب. «إن سائق القاطرات يسافر بالقطار طبعًا»، هكذا كانت زوجته تقول كثيرًا على سبيل الدعابة. إلا أن الأمر لم يكن هكذا. فقد كان يعرف الكثير من الزملاء ممن يأتون بالسيارة.

كان يحب محطة القطار الكبيرة في مدينته. إذ كان قد بدأ تدريبه المهني

هنا قبل أكثر من عشرين عامًا. كان يستطيع أن يستريح في القطارات وأن يسترخي وأن يجد الراحة والطاقة وربما قليلًا من النوم قبل وردية العمل.

توقف عند منزل جدته. ظهيرة أحد الأيام في شهر نوفمبر.

وقف إلى السور المنخفض الذي كان المنحنى ينحدر بشدة من خلفه نحو القضبان. جلس في مقعد السائق في قطاره رقم 261 ورفع بصره إلى المنزل. كانت القضبان متشعبة وكانت تحويلات القطارات مجهزة والطريق خاويًا. مضى ببطء وشعر خلف قاطرته بعربات نقل البضائع السائلة، كم عدد محاور العجلات؟ لكن بذلك بدأت الحقائق لا تصبح حاضرة في ذهنه على الفور في شرودٍ مفاجئ... «لكن فلتعد قبل أن يحل الظلام».

«لكنكِ تستطعين رؤيتي يا جدتي لو نظرتِ من النافذة. يمكنك حقًّا أن تطلي ببصرك حتى الجسر. هل ستلوحين لي بيدك؟».

مضى لمسافة بامتداد الشارع وظهره إلى منزل جدته. كان هناك سور يفصل بين ممر المشاة وخطوط السكك الحديدية. كل بضعة أمتار كانت هناك فسيفساء من الثقوب تتخلل الجدار فكان من الممكن رؤية القطارات، التي كانت تمر، من خلالها. عندما كان يذهب إلى جدته في طفولته، كان يعرف أنه قد أوشك على الوصول إليها عندما كان يظهر هذا «الجدار ذو الثقوب» -حسبما كان يسميه- بجوار القطار.

وقف أمام الجدار وأخذ ينظر عبر أحد الثقوب. عندما كان طفلًا، كان يضطر عندئذ أن يقف على أطراف أصابع قدميه. نوافذ قطار ركاب. قريبة جدًّا وكأنها مرآة. صلصلة محاور العجلات على القضبان. استدار وذهب إلى منزل جدته.

بصق نحو أسفل حتى أصبح فمه جافًّا. كان يبصق مرارًا وتكرارًا من الجسر نحو أسفل. في بعض الأحيان، عندما كانت الأمطار تتساقط أو عندما كان في الشتاء وكان الصقيع يقبع على خطوط التوصيل، كانت ومضات صغيرة كالبرق تتوهج في المناطق المتصلة بمجمع التيار الكهربائي في القاطرات. وكانت قاطرات الديزل الحمراء تسحب قطارات البضائع أسفل الجسر على القضبان دون أن ينبعث برق.

استدار ونظر من جديد إلى منزل جدته. كان الشتاء لا يزال بعيدًا، لا، ما من أحد يقف إلى النافذة ويلوح بيده وربما لن يلوح هو أيضًا بيده.

صوت صرير أسفل الجسر، صوت طقطقة أسفل الجسر. «هلا أحضرتِ لي يا جدتي شيئًا من الجانب الآخر هناك؟».

***

كان قد احتاج بعض الوقت لكي يهتدي إلى جزء من الطريق.

أرض منبسطة، لم يرَ عندئذ سلسلة جبال «هارتس» غير المرتفعة التي كان يظن أنه كان يراها من مقعد السائق في القطار.

كان قد ضلَّ الطريق عدة مرات وكان قد مضى أولًا عبر طرق فرعية وبعد ذلك عبر طرق زراعية موحلة. وكان قد بحث عن الطريق عن طريق هاتفه المحمول وعن طريق إحدى الخرائط.

أصبحت الحدائق المقسمة إلى حصص أمامه مباشرة. لا بدَّ أنه كان في مكانٍ ما بين المدينة «هاء» والمدينة «باء». لم يكن يتضح تمامًا من قضبان السكك الحديدية رؤية أين كان على وجه التحديد، إذ كان يسير بسرعة تتراوح بين مئة كيلومتر ومئة وعشرين كيلومترًا في الساعة. كان يعرف حقًّا... كم كان طول الطريق الذي استخدم فيه فرامل السكك

الحديدية وذلك انطلاقًا من نظرية أنهم كانوا قد تحدثوا عن *شيء من هذا القبيل*، كم من السنوات مرت على هذا الأمر. تواصل بصري.

كان عمود الإشارة -الذي كان يبتعد بمسافة بضعة كيلومترات باتجاه المدينة «باء»- قد دلَّه على الطريق.

صار عندئذ بجوار القضبان حيثما سبق وأن وقف الرجل الضاحك. كانت مجموعة الحدائق المقسمة إلى حصص متداعية وخاوية حقًّا. كانت أسوار الحدائق مائلة نحو الأرض وبدت كأنها غارقة في التربة. أوراق أشجار متساقطة، حشائش مترعرعة وقد ضغط عليها المطر نحو أسفل. لا، لم يحدث شيء هنا بعد. خطا أعلى العتبات. كان هنا؛ لأن الرجل كان قد رآه. ظن أنه سمع شيئًا ما وقفز من القضبان. اصطدمت ساق بالحصى الصغيرة. تحركت الأحجار الصغيرة عندما اتكأ عليها واصطدمت ساقه الأخرى بأرض مبلولة فانزلق بعيدًا. انزلق وأطبقت يداه على القضبان. أصبح هنا؛ لأنه كان قد رأى وجه الرجل. نظر إلى الساعة التي كانت قد انزلقت باتجاه ظهر يده. انتصب واقفًا وتعثَّر وسقط على أحد أسوار الحديقة. واستلقى خارج المنحدر الصغير وأصبح ظهره ومؤخرة رأسه عالقين بالسور الخشبي عندما مرَّ القطار رقم أربعة عشر -عشرين القادم من المدينة «ميم» محدثًا صوت خشخشة وجذبت الريح سترته.

كان الطريق قد أصبح خاويًا من وقتٍ طويل بالفعل ومنذ أسابيع.

وبعد ذلك رأى أن يده لم تنغرس في الوحل بل في فاكهة متعفنة وفي ثمار تفاح وكمثرى مهروسة؛ أي في طعام مهروس رمادي اللون تتخلله خطوط دقيقة لونها بني يميل إلى الاحمرار.

«يجب أن تساعدني».

«كيف يمكنني أن أساعدك إذًا؟».

«أنا أحتاج إلى معلومات».

«الرجل الضاحك؟ لا يجوز لي ولا يمكنني أن أقول لك أي شيء عن هذا الأمر».

«أريد أن أعرف ما اسمه».

«لماذا؟».

«وجهه... آه، فلتنسَ هذا الأمر».

نظر إلى القطار وهو يمضي وأخرج المناديل المبللة المخصصة للحفاظ على النظافة الشخصية من الجيب الداخلي لسترته ونظَّف يده وحاول ألا ينظر أثناء ذلك إلى الكتلة اللزجة. سالت الدموع من عينيه ورأى بصورة غائمة سطوع الأضواء الخلفية للقطار في المنحنى الممتد طويلًا. انتصب واقفًا وصعد من جديد على المنحدر. ما من شيء تتسنى رؤيته على القضبان. ماذا كان يترقب أيضًا؟ لكنهم في بعض الأحيان كانوا ينسون شيئًا ما. وفي بعض الأحيان كان الناس يعثرون بعد سنين على قطعة عظم أو على ساعة.

ضلَّ الطريق في الحدائق المُهمَلة بينما أخذ الظلام يحلُّ شيئًا فشيئًا. كانت السماء مُلبَّدة بالغيوم وما من شيء سوى حقول محيطة بالحدائق وخط رفيع من الشفق يعلو الأفق.

وأخذ ينظر مرارًا وتكرارًا إلى شاشة هاتفه المحمول حيثما كان اسم الرجل مكتوبًا. إذ كان قد ألحَّ على زميله لوقتٍ طويل جدًّا حتى أرسل له الاسم في رسالة نصية قصيرة. وأصبح يعرف الاسم.

كان قد عثر على المكان، لا بدَّ وأنه كان هنا بالضبط، كان الرجل قد وقف هنا بالضبط. أشجار الفاكهة الصغيرة المنثنية خلف السور. صرخات

الغربان في الخريف أعلى الحدائق. يداه على الزر وعجلة القيادة. أصيبت إحدى يديه بلسعة. أطنان من الفولاذ وبضائع في عربات نقل البضائع السائلة من خلفه. شعاع ضوء من كشاف يده على محاور العجلات. والرجل بين المحاور.

***

وقف في ملعب الأطفال الذي كان خاويًا مع بدايات برودة الخريف واتكأ إلى ألعاب تسلق الأطفال وأخذ يراقب المنزل. لم يسبق له قط أن زار هذه المدينة الموجودة بعيدًا في غرب البلاد، بالقرب من حد آخر. هل كانت «هولندا» موجودة في الجانب الآخر؟ لم يعد متأكدًا. كان قد مرَّ كثيرًا من هنا.

كان المنزل واحدًا من هذه المنازل الجميلة التي تم تشييدها في عصر التوسع الصناعي الكبير في القرن التاسع عشر. منزل مكون من أربعة طوابق وذو واجهة مزينة بزخارف من الجبس ونوافذ عالية وأعمدة حجرية يسارًا ويمينًا بجوار باب المدخل. بيد أن لون الطلاء وطوب السقف أصبحا رماديين بفعل مرور الزمن، لكن مرور الزمن هذا أضفى وقارًا على المنزل ولم يصبح كأنه متداعٍ مثل منزل جدته في المدينة «ميم»؛ إذ كانت الأمطار تتساقط هناك فتدخل إلى الطوابق العليا وكاد طلاء الحائط الخلفي المؤدي إلى الفناء أن يتساقط تمامًا.

كان قد نظر إلى الجرس. كان الاسم مكتوبًا على لوحة الباب. كان يسكن في الطابق الثاني.

كانت هناك ستائر بيضاء مُعلَّقة في النوافذ وقد خلَّفت جزءًا مثلث الشكل خاويًا في منتصف النافذة لكنه لم يستطع أن يرى شيئًا في داخل الشقة.

رأى في وقتٍ لاحق، في المساء، ضوءًا في الشقة وكان يجلس في تلك الأثناء على مقعد في طرف ملعب الأطفال. كان هناك طفل يقف إلى النافذة. ذو شعر قصير داكن اللون وعمره ربما عشرة أعوام وربما كان أصغر سنًّا. لم يستطع أن يميز هل كان صبيًّا أم فتاة. أغلق الطفل الستائر وظل واقفًا للحظة في النافذة بينما كانت الستائر المغلقة من خلفه وأخذ ينظر إليه.

عندما صعد السلالم في اليوم التالي، بعد الساعة الرابعة عصرًا بقليل، كان لا يزال يرى هذا الوجه أمامه. كان قد حجز غرفة في فندق بالقرب من محطة القطار على الرغم من أنه كان قد ذهب إلى هذه المدينة بسيارة زوجته.

كان قد اشترى خريطة للمدينة؛ لأنه سبق وأن أغلق هاتفه المحمول.

«تعالَ، سنذهب سويًّا، أنت سوف تسلك الطريق ذاته».

تهجَّى ببطء اسم الصبي الذي كان يقف على قطعة صغيرة من الورق المقوى، كانت قد أزيحت خلف نافذة صغيرة من البلاستيك الشفاف. كانت أسماء الأطفال مكتوبة على جميع الحقائب المدرسية. «يمكننا بالطبع أن نلعب سويًّا».

لكن الصبي ركض سريعًا ببساطة على الرغم من أنه كان يسكن في المنزل المجاور في مجموعة المباني السكنية الجديدة. كان شعره قصيرًا داكن اللون وكانت حقيبته المدرسية تهتز على ظهره يمينًا ويسارًا وترتطم بمؤخرة رأسه؛ إذ إنه كان قد فتح حزام الحقيبة فتحة كبيرة أكثر من اللازم.

قرع جرس باب الشقة. كان قد اشترى باقة صغيرة من الورود ورجا بائع الزهور أن يُثبِّت رباطًا أسود في الباقة.

قرع الجرس مرة أخرى. كان قد انتظر أمام المنزل حتى جاء شخص ما. لم يرغب في أن يوضح شيئًا في جهاز الاتصال الداخلي «الإنتركم» لكن الأمر كان قد استغرق بعض الوقت حتى جاء أحد أفراد خدمة توصيل الطرود وقرع الجرس في موضعٍ ما؛ إذ إنه كان قد سار خلف الرجل، الذي كان يحمل الطرد، وقال «شكرًا» وأصدر صوت شخشخة بميدالية مفاتيحه.

انفتح الباب. نظرت إليه السيدة. لم تقل شيئًا. سمع صوت فرد خدمة توصيل الطرود في المنزل. نظرت إليه وهي تضع كلتا يديها على خشب الباب داكن اللون. رفع باقة الورود إلى أعلى.

***

جلس على حافة المقعد الجلدي البني واحتسى القهوة وقلَّب بصره في ما حوله. وقفت وهي تدير ظهرها إلى الخزانة وتشبك ذراعيها أمام صدرها، وكانت قد وضعت الزهور على الطاولة المنخفضة المقابلة للأريكة.

بعض من الصور في الخزانة المثبتة إلى الحائط وزجاجات كريستالية مصقولة ثقيلة الوزن ومتعددة الألوان وبجوارها رف كتب. مال برأسه وحاول أن يتعرَّف على بضعة عناوين مكتوبة في ظهر الكتب.

«أي إنك كنت زميل... زوجي في المدرسة».

«أجل، زميلها في المدرسة». وضع قدح القهوة على الطاولة المنخفضة المقابلة للأريكة بجوار الزهور.

كان قد التمس منها قدحًا من القهوة. «لعلكِ لديكِ قهوة من أجلي. لم أنعم بنوم هانئ». بعد ذلك رأى أن هذا لم يكن بالأمر اللائق بشكلٍ أو بآخر لكنهما كانا قد وقفا صامتين في الدهليز بعد أن دعته إلى الدخول

بعد بعض الوقت. وكان قد فكّر طوال الطريق من الفندق إلى المنزل في قدح قهوة ساخنة ومرَّة ببضعة أكشاك لبيع الوجبات السريعة. لكنه كان يعلم أنه لا يحق له أن يظل واقفًا. وكانت هي قد أومأت برأسها وذهبت على الفور إلى المطبخ.

وفي الحقيقة، لم يكن هو قد نام نومًا سيئًا؛ فقد صار ينام نومًا عميقًا للغاية منذ تلك الليلة. ودَّ أن يفيق من أحلامه التي كان يراها، منذ تلك الليلة، لكنه لم يفلح في هذا. جلس في مقعد السائق في قطاره رقم 261. ألقى بالإبريق المحتفظ بالحرارة وبه القهوة نحو الزجاج أمامه؛ إذ إن وجه الرجل كان خلف الزجاج مباشرةً. كان رأسه يقبع فوق جسدٍ صغيرٍ جدًّا وعندما انكسر اللوح الزجاجي، كان وجهه ورأسه متميِّعين في مهروس من الفاكهة المتعفنة.

«لقد لعبنا سويًّا كثيرًا».

«في مدينته مسقط رأسه؟ لم يحكَ أبدًا الكثير عن هذا الأمر». توجهتْ نحو الأريكة وجلستْ. تناول قِدر القهوة بكلتا يديه وارتشف رشفات صغيرة وأخذ يراقبها من فوق القدح. سيدة جميلة، في مستهل الأربعينيات على أقصى تقدير، ذات شعر أشقر داكن. كانت بعض مواضع شعرها تبرق بلونٍ فاتح للغاية في ضوء العصر، الذي نفذ إلى الغرفة عبر النافذة، كأن شعرها كان أبيض اللون في هذه المواضع. كان شعر زوجها يكاد يكون أسود اللون. إن نشأتها ترجع إلى هنا؛ هذا ما سمعه من الطريقة التي كانت تتحدث بها.

«من أين عرفت أنه...؟ لم يسبق له أن حكى عنك».

«لقد حكى لي صديق مشترك هذا الأمر». كان يعرف أنها لن تسأل عن هذا الصديق المشترك. وضع قدح القهوة الخاوي بحذر على القرص

الزجاجي للطاولة المنخفضة المقابلة للأريكة، بجوار باقة الورود، بجوار يدها التي كانت قد وضعتها في وقتٍ ما على الزهور. كانت صورة وجه الممثل «جون واين» مطبوعة على قِدر القهوة، صورة من فيلم ما باللونين الأبيض والأسود. لم يفطن إلى هذا الوجه إلا عندئذ.

قالت زوجته: «إنه... إنه كان يحب أفلام «الويسترن»».

«آه، أجل». تناول القدح مرة أخرى ولفه بكلتا يديه في الهواء.

استطاع أن يقرأ عبارة «لا تقل إنه صباح جيد وإلا أطلقت الرصاص عليك»[4] المكتوبة بالإنجليزية.

«يجب عليَّ إذًا أن أمضي. يؤسفني أنني أتيت. أقصد...» صمت.

ماذا كان يريد هنا؟ نظر إلى النافذة. لقد خلَّفت الستائر جزءًا مثلث الشكل خاويًا في النافذة. كان سقف الغرفة عاليًا وبه رسومات مصنوعة من الجبس. رأى عبر هذا المثلث أن العصر قد حلَّ ورأى غربانًا على أسطح المنازل ورأى ملعب الأطفال الخاوي، الذي سبق وأن وقف فيه بالأمس، ورأى المساء خلف المنازل ورأى المدينة الغريبة. لم يعد أي شيء صحيحًا. ودَّ أن يسأل عن الطفل لكنه عدل عن ذلك. نهض واقفًا.

«فلتنتظر... من فضلك. كنت أرجو لو أنك استطعت أن تحكي لي شيئًا ما...».

«لم أعد أرى زوجكِ منذ سنوات. كنا أطفالًا».

وقفت أمامه وأخذت من يديه القدح، الذي كان يحمل صورة وجه «جون واين»، ووضعته من جديد على الطاولة.

4- عبارة شهيرة قالها الممثل «جون واين» في أحد أفلامه. (م)

«من فضلك اجلس. كيف... كيف كان في طفولته؟» شعر بنفَسِها وشمَّ رائحة سجائر.

وحكى عن صديقه في المدرسة الذي لم يكن صديقه أثناء الدراسة في المدرسة على الإطلاق؛ إذ كان يدرس في فصلٍ دراسي آخر في الصف ذاته، هكذا كانوا يسمونه آنذاك. أراد أن يسألها عن طفلهما لكنه حكى عن طفلٍ آخر، كان يعرفه بالكاد. «كنا لعدة مرات سويًّا في «أنجلن»».

««أنجلن»؟» ابتسمت.

«كانت بحيرة كبيرة على أطراف المدينة. كان هناك قطار سكة حديدية صغير يسير حول البحيرة. أحد قطارات السكة الحديدية الرائدة[5]. سافرنا به كثيرًا».

«من قطارات السكة الحديدية الرائدة؟».

«أجل، كان يقوده الرواد. قطار سكة حديدية صغير يسير بالبخار. رواد... آنذاك، الحدود. لقد حكى لكِ هذا الأمر بالتأكيد».

قالت بصوتٍ منخفض: «أجل، قطار سكة حديدية».

قال: «آسف. أنا... لم أمعن التفكير في هذا الأمر».

«لا، لا بأس. قطار سكة حديدية من أجل الأطفال». ابتسمت وأردفت: «كان دائمًا مثل طفل كبير حتى...».

نهضت واقفة وذهبت إلى النافذة وولته ظهرها. «كان يراودني الأمل أن تستطيع أن تقول لي لماذا لم يعُد فجأة».

5- نوع من القطارات كان موجودًا في بلدان الكتلة الشرقية وفي ألمانيا الشرقية (سابقًا) بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان يقوده أطفال وشباب يُطلَق عليهم اسم الرواد. (م)

نظرت إلى المزهرية ذات اللون الأخضر الفاتح التي كانت الزهور فيها. وكان الرباط الأسود موضوعًا بجوار المزهرية. منذ متى صار جالسًا هنا بالفعل؟ لا، لم يكن لونها أخضر فاتحًا بل بالأحرى أزرق. رمش بعينه. سالت الدموع من عينيه. العربات المفتوحة لقطار السكة الحديدية الرائد، رأسه في اتجاه الريح المعاكسة، ضحكات التلاميذ الآخرين. كان الصبي، الذي سبق وأن فرَّ راكضًا عندما بادره بالحديث، جالسًا في العربة أمامه، الإشارة الصوتية النفاذة والعالية لصافرة البخار... امتزج بخار ماء أبيض اللون مع الدخان الثقيل داكن اللون المنبعث من نار الفحم...

سأل: «هل اختفى؟».

«كان يبقى دائمًا لوقتٍ طويل في قبوه... لكن الأمر لم يكن كذلك».

وقفت إلى النافذة واستطاع هو أن يرى كيف كان اللوح الزجاجي أمام وجهها مكسوًّا بالضباب. «لقد... مضى ببساطة. لم يعد يذهب إلى العمل. هل يمكن أن تقول لي أين كان. لأسبوعين».

«لا».

«امرأة أخرى؟ لم أشعر بالخوف من هذا أبدًا. وبعد ذلك لم يذهب بالطبع إلى السكة الحديدية. بعيدًا جدًّا هكذا».

«هل كان يشعر باليأس؟».

«لا. لا، كنا في حالٍ جيدة. ولماذا هناك، لماذا بعيدًا جدًّا هكذا؟».

«أشعر بالأسف».

«لا، لا، كان الأمر جيدًا بالفعل. لا أفهم الأمر ببساطة. وكان مسرورًا جدًّا عندما مضى».

«كان يضحك».

استدارت نحوه وبدا له لوهلة أنها ربما كانت تعرف كل شيء، ربما كانت ترى كل شيء، الليلة، قطاره رقم 261، هو نفسه في مقعد السائق في قطار 261، طفلان لم يسبق لهما أن تحدثا مع بعضهما سوى بضع مرات. «تعالَ، سنذهب سويًّا، أنت سوف تسلك الطريق نفسه».

***

رأى في الفندق حلمًا بالقبو. كان قد أخذ أحد حبوب الأدوية التي وصفها له الطبيب للعلاج من *اضطرابات النوم*. كان الطبيب قد تحدث معه عن نوم بلا أحلام. وهو لم يكن يحلم أيضًا حقًّا ولكنه كان هناك فقط من جديد.

وقف في القبو، قرص به قطار سكة حديدية، ليس قطار سكة حديدية كهربائي وإنما قطار يعمل بالزنبرك على قضبان بلاستيكية. كان لديه قطار يشبهه عندما كان طفلًا. ومن حول القطار كانت هناك منازل خشبية صغيرة. إنها مدينة من مدن أفلام «الويسترن» بمعنى الكلمة؛ حانة من الحانات المنتشرة في الغرب الأمريكي في القرن التاسع عشر وبنك وفي مسافة أبعد كان هناك حصن به حواجز من قضبان وبوابة. كانت درف البوابة الخشبية الصغيرة مفتوحة وبين قوائم البوابة الخشبية كان هناك رجل يقف شاهرًا بندقيته. وعندئذ رأى أنه كانت هناك لعب مطاطية على هيئة رعاة بقر صغار يقفون على اللوح الخشبي بأكمله –الذي كان مُثبَّتًا على حاملين بسيطين– وبين المنازل وإلى قطار السكة الحديدية. كان يمتلك وهو طفل شخصيات الألعاب هذه بالضبط وكان يلعب معها. كان الجميع تقريبًا لديهم هذه الألعاب المطاطية على هيئة رعاة البقر والهنود الحمر.

شنَّ الهنود الحمر هجومًا. أخذوا يتحركون عبر ما يشبه المناظر الطبيعية التي تضم تلالًا مصنوعة من قطع الورق الملصوقة، تلال خضراء امتدت خلف الحصن. لا بدَّ أن صديقه في المدرسة، الذي لم يكن صديقه أثناء الدراسة في المدرسة على الإطلاق، قد قضى وقتًا كبيرًا هنا بالأسفل. «كان يبقى دائمًا لوقتٍ طويل في قبوه... لكن الأمر لم يكن كذلك». مدَّ يده نحو إحدى شخصيات الألعاب؛ إذ كان من الممكن رفعها لأعلى لأنها لم تكن مُثبَّتة مثلما كان يظن في البداية.

رأى كيف أخذ القطار، الذي كان قد ملأ زنبركه، يسير في المدينة وسار بمحاذاة الحصن وكان به ست عربات وثمانية محاور عجلات لنقل الركاب وبالخلف أربعة محاور عجلات لنقل البضائع. كان يسير دائمًا على شكل دائرة وكان المفتاح يدور في جانب القاطرة. وجلس هو بعمق في هذا المقعد الوثير وسمع صوت محرك اللعبة، التي تسير بالزنبرك، بعد أن أصبح واهنًا وسمع الصوت –الشبيه بصوت محرك الساعة– يزداد بطئًا وانخفاضًا حتى توقفت القاطرة...

كان ضوء مصباح السقف يصبح في بعض الأحيان أضعف ويرتعش ويزداد ضوؤه ورأى أن الأرفف الموجودة على الحوائط لم تكن تضم علبًا كرتونية وإنما ملفات... وودَّ أن ينهض واقفًا ويلقي نظرة على الملفات. ماذا جمع الرجل فيها هناك؟

مجموعة –يبدو أنها لم تخضع لنظامٍ محدد– من صفحات الجرائد والصفحات، التي تحمل كتابة على وجهها وظهرها، والصفحات المفردة والأغلفة والإعلانات المبوبة والأخبار السياسية والمحلية والرياضة. حملت بعضها خطوطًا ودوائر. أخذ يقرأ ويقلب الصفحات. كان ما قرأه مزيجًا غريبًا. جنون العالم وانهيار دولة ما، وفي صفحة أخرى، يبدو أنها مقطوعة بآلة قطع، كانت هناك محاكمة لرجلٍ –سبق وأن اختلس مالًا–

وفائز بجائزة يانصيب ذات أرباح مضاعفة وبعد ذلك علامة دائرية بقلم أزرق وبصورة مفاجئة على قسم الأخبار المحلية في الجريدة، افتتاح سوقٍ كبيرة أمام بوابات هذه المدينة، التي كان جالسًا فيها عندئذ، كان جالسًا هنا في القبو. كانت صفحات الجرائد ترجع للسنوات الماضية، كانت إحدى الصفحات، التي تحمل كتابة على وجهها وظهرها، ترجع إلى أقل من أربعة أسابيع. أي إنه كان جالسًا هنا قبل أربعة أسابيع وقرأ الجريدة وانتقى هذه الصفحة -التي تحمل كتابة على وجهها وظهرها- وكان قد ألقى نظرة على المنظر الطبيعي الصغير الخاص به والذي كان يضاهي المناظر الطبيعية في أفلام «الويسترن». *صافرات إنذار منخفضة جدًّا، على المدينة أن ترفع كفاءة نظام الإنذار*. كان قد رسم خطًّا صغيرًا بالقلم الأزرق، بجوار هذا المقال، والذي كان أقرب لأن يكون خبرًا مقتضبًا في قسم الأخبار المحلية. ما معنى هذا كله؟ عندما أعاد الملف إلى مكانه، سقط منه كارت شخصي يحمل بعض البيانات. *تأجير مكاتب*. وبجوارها رقم هاتف. رأى أن أدوات العمل الموجودة بجواره على المنضدة كانت مثقابًا ودباسة. صوت طرقعة، فرقعة، ضغط على المثقاب براحة يده، ضغط على الدباسة براحة يده، بوم، بوم، بوم، انبعث صوت مدوٍّ في الغرفة، تثبيت بالمشابك، تدبيس، ثقب، بوم، بوم، بوم. مراقبو خطوط السكك الحديدية كبار السن الذين كانوا يضربون بمطارق على العجلات الحديدية.

«مرحبًا» هتف بها في سكون القبو. انطفأ النور. وعندما هتف من جديد قائلًا «مرحبًا، فلتأتِ إلى هنا» -لأنه رأى كيف فرَّ الرجل الضاحك من أمامه بعيدًا- أخذ الرجل يركض أسرع وأخذ الطفل يركض أسرع، بمحاذاة القضبان الضيقة لقطار السكك الحديدية الرائد. تصاعد البخار من القطار في الليل، صوت دقات المحرك، تصاعد البخار من المدخنة الصغيرة، عربات مفتوحة خلف القاطرة، رجل كان جالسًا وسط الأطفال

بينما بدا جسده ضخمًا، ولم يصل طول أجساد الأطفال حتى لكتفه، الرنين الحاد لصافرة البخار، لا، كان هذا صوت الفرامل، صوت ضوضاء الفرامل الذي نفذ إليه بعمق، حركة تزداد بطئًا، حركة لا تود أن تنتهي...

***

كانت الثلوج الأولى قد تساقطت. وكان هو قد اتصل هاتفيًّا بزوجته. بكت.

«فلتأتِ إلى المنزل، أرجوك».

«أجل، أجل، عما قريب».

كان هناك خط حافلات يذهب إلى المنطقة التجارية الغربية. ظن في بادئ الأمر أنه ربما كان عليه أن ينزل من الحافلة في موضع ما قبل ذلك؛ إذ بدا أن المدينة قد انتهت هنا، حقول وأراضٍ بور مغطاة بالثلوج، بعض الحدائق مقسمة إلى حصص لكن بعد ذلك ظهرت من جديد أسواق كبرى ومتاجر لبيع أدوات البناء ومبانٍ إدارية مسطحة وساحات لشحن البضائع كانت فيها سيارات نقل تقف أمام أرصفة شحن طويلة.

كان النهر بعيدًا بعض الشيء لكنه استطاع أن يرى رافعات الشحن في الميناء الداخلي. كانت هناك محطات لقطارات نقل البضائع، كان يعرف هذا. كان الشارع الكبير، الذي سارت الحافلة فيه، يمتد من حول المنطقة التجارية الغربية وكانت الشوارع والطرق الأصغر تؤدي إلى الداخل وتفضي إلى الفناءات الداخلية للمباني الإدارية وتنتهي إلى صالات ضخمة، كانت لافتات «للإيجار» مُعلَّقة عليها، عند مباني شحن ومخازن وأسواق كبرى وأسواق لبيع المواد الغذائية وأسواق لبيع مواد البناء وبعد ذلك مجمعات مبانٍ كانت تشبه حاويات سكنية متكومة فوق بعضها.

ضلَّ الطريق في الوحل الممزوج بالثلج. كانت السماء صافية وظهرت الشمس وكان الثلج قد تساقط طوال الليلة السابقة. لم يعد الطفل، الذي ربما أصبح في ما بعد ذلك الرجل الواقف على قضبان السكك الحديدية، موجودًا في وقتٍ من الأوقات. انتقال الوالدين من مسكن لآخر، مدرسة جديدة، لم يستطع أن يتذكر، لم يسبق لهما أن تحدثا سويًّا سوى مرات قليلة.

انتشرت في كل مكان في أرضية الغرفة آثار متسخة للوحل الممزوج بالثلج. منضدة. كرسي أمامها. لا شيء خلاف ذلك. جلس. أصابته الشمس بزغللة في عينه واتكأ بمرفقي يديه على قرص المنضدة ووضع رأسه على راحتي يديه المفتوحتين. ربما يأتي المستأجر عما قريب مرة أخرى. شعر أن الغيوم تتحرك أمام الشمس ورفع رأسه. ألقى نظرة أعلى المنطقة التجارية الغربية ورأى الحافلة التي كان قد جاء بها. ما من ناس في الطريق، إلى أين ذهب المستأجر قبل قليل؟ لم يقل شيئًا عندما رجاه الرجل أن يتركه وحده لبضع دقائق؛ إذ كان عليه أن يتدبَّر قرار الاستئجار...

«استأجر أحد أصدقائي إحدى غرف المكتب هنا قبل أربعة أسابيع، ربما أنه أخذها منه...».

جلس على كرسي زميله في الدراسة الذي لم يكن صديقه أثناء الدراسة في المدرسة. ماذا كان يفعل هنا في هذه الغرفة؟ بين الحوائط البيضاء والحائط الزجاجي. عندما أراد أن ينهض واقفًا، رأى أن هناك شخبطة ما على حافة لوح المنضدة. يمكن ملاحظتها بصعوبة، قلم رصاص، كان مطموسًا بعض الشيء بالفعل. ظن أنه رأى اسمه.

***

وقف في ضوء الشمس المائلة للغروب، ألم يكن هذا وقت الظهيرة؟ واستدار نحو مبنى مصنوع من حاويات مكتبية. أخذت الظلال تتنقل أمامه على الأسفلت، وتحركت صفحات جرائد كبيرة مكرمشة أعلى الأرض. سمع صوت صافرات إنذار في مكانٍ ما بعيد وامتزجت بصوت الضوضاء هذا، الذي كان يدوي بين الحين والآخر، إشارة صوتية لإحدى القاطرات، إشارة صوتية لقطاره رقم 261 والتي أخذ صوتها يزداد ارتفاعًا وحدةً كأنه منبعث من إشارة صافرة قاطرة بخارية.

وقف الصبي خلف الجدار ذي الثقوب وقد وضع رأسه في إحدى الفتحات بصورة مباشرةً. انتظر بالفعل لبعض الوقت ولكنه سمعها بعد ذلك. أخذت تضرب بمحاذاة الطريق بصوتٍ كالفحيح وتطلق بخارًا أبيض اللون. ضغط برأسه أكثر عبر الفتحة. أصابته الشمس المائلة للغروب بزغللة في عينه عندما رأى العجلات اللامعة وأذرع التوصيل الدوَّارة.

عودة بحاري الأرجو

كانت نشأتهم ترجع إلى إحدى ممالك الظلال التي كانت قد نشأت على مدار عقود في الفناءات الخلفية لحي الفحم وتنقلت هناك. مصانع صغيرة بها مداخن مستديرة تحوَّلت إلى اللون الأسود بفعل السخام وكانت الحمامات تجلس عليها عندما كان الدخان لا يتصاعد من المداخن. ورش وتجار فحم ومنازل متداعية، ترعرعت على أسطحها غابات صغيرة من أشجار «البتولا». مصانع خاوية ومتداعية، بوابات مؤدية إلى الشارع وإلى الضوء الذي كان خافتًا هناك بالخارج أيضًا. خيَّمت الظلال على هذه الفناءات الخلفية -التي سبق وأن قابلتهم فيها قبل سنوات كثيرة- وعندما عدت إليهم الآن، أشرقت الشمس ولم يعد هناك شيء منسجمًا مع الآخر.

كنت قد نزلت في محطة القطار الرئيسة ووضعت حقيبة سفري في خزانة حفظ الحقائب على الرغم من أنني كنت أود الذهاب إلى والدتي في المساء وكانت هي قد غيَّرت بياضات فراشي القديم بالفعل «لقد أعددت لك فراشك». كنت قد حادثتها هاتفيًّا وأنا في القطار لكنني أغلقت الهاتف الآن ودسست في الجيب الداخلي لمعطفي قطعة ورق بها الأرقام وذهبت إلى الجانب الشرقي، إلى المخرج الجانبي الشرقي لمحطة القطار الكبرى.

لم يعد أحد يحصل على مفاتيح، لم يعد أحد مضطرًّا لأن يسحب مفاتيح من الباب المعدني، بل أصبحت هناك قصاصة ورق صغيرة تصدر صوت أزيز من فتحةٍ ما، جدار يمتلئ بالخزانات الفولاذية التي توضع بها حقائب السفر.

كانت صالة محطة القطار تعج بصوت «كلاك كلاك» الصادر من

حقائب السفر ذات العجلات ومن خلفي كان المسافرون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع يتحركون ويسرعون إلى القطارات...

هل سبق وأن غادروا حي الفحم في يوم من الأيام؟ كانوا يزورون أخيهم غير الشقيق من آن لآخر، الذي كانوا يسمونه «ثُمْن أخ»؛ إذ إنه لم يكن يشبههم مطلقًا والذي كان يسكن في بقعةٍ ما بالقرب من مدينة «كولونيا». كنت قد رأيته عدة مرات عندما كانَ يزور إخوته الذكور المختلفين عنه كل اختلاف ووالدته في حي الفحم. رجل صغير السن قصير القامة ونحيف ويرتدي نظارة وكان رأسه يبدو متأرجحًا دائمًا يمينًا ويسارًا أعلى عنقه النحيل. تذكرت أن «هاء» كان قد عمل لبضعة أشهر لدى أخيه المختلف عنه كل الاختلاف والذي كان يدير آنذاك شركة لشحن ونقل الأثاث في مدينة «كولونيا». وكان «هاء» قد عمل في هذه المدينة في حمل الأثاث ونقله. كان عامل نقل أثاث جيدًا؛ إذ كان يعرف جميع الحيل ويستخدم أحزمة ربط الأثاث ويعتمد على ساقيه في العمل لكي يحمي ظهره وكان يجيد تعبئة خزانة تلو الأخرى والمزيد والمزيد دومًا من الأثاث بصورة غامضة في مساحة الشحن الصغيرة جدًّا أكثر مما ينبغي والموجودة في الشاحنة. كان أغلب الناس يظنون أن هذا الأمر متعلق بالقوة فحسب.

كانا يتمتعان بالقوة، أي «هاء» وشقيقه الأصغر «كاف» الذي كان يصغره بأقل من عامين ويعمل بنّاءً وكان يتلقى تدريبًا مهنيًّا على أعمال البناء عندما تعرفت عليهما.

كنا نظن آنذاك أن «هاء» سوف يظل في المدينة الكبيرة في الغرب لكن بعد ذلك، أي بعد بضعة أشهر، أصبح هنا من جديد. كان قد قال: «ما عساي أن أفعل في مدينة «كولونيا»؟» وأضاف: «يمكنني أن أحمل الأثاث هنا أيضًا».

هل سبق وأن غادروا حي الفحم في يوم من الأيام؟

كنت قد قابلت «هاء» في محطة القطار ذات مرة قبل أعوام. كنت مضطرًّا لأن أفكر في هذا عندما كنت أقف قبل قليل أمام الباب المعدني الصغير، الذي كانت حقيبة سفري تقبع خلفه، وأنا أتحسس آلية إغلاق الباب. لكن اندست قطعة ورق فحسب من فتحة الباب محدثةً صوتًا، قصاصة ورق، كان مكتوبًا عليها كود رقمي.

لم أستطع أن أتذكر من أين جئت أو إلى أين كنت أريد أن أذهب أم هل كنت أتنزه فحسب –كما كنت أفعل كثيرًا– في محطة القطار وأراقب المسافرين. كان «هاء» يرتدي زيه العسكري ويحمل حقيبة ظهره العسكرية. كان في طريقه لأن يستقل قطاره الذي سينقله إلى ثكنته العسكرية. لم أعد أعرف أين مكان تمركزه. بقي هناك لسنة فقط. وكنت أنا قد حصلت على إعفاء من أداء الخدمة العسكرية.

هتف عندما رآني قائلًا: «أهلًا أيها الرفيق» وضحك بعد ذلك لدرجة أن ضحكاته وصوته أخذا يدويان أسفل الأقواس المستديرة التي تعلو أرصفة محطة القطار. أخذت الحمامات ترفرف «أهلًاااا...فيق». وبعد ذلك بقليل جلسنا في الحانة المجاورة للسلالم المؤدية من أرصفة محطة القطار إلى أسفل نحو صالة قطع التذاكر واحتسينا البيرة وبضع كؤوس من نبيذ «شنابس» البني حتى أقلع قطاره.

سافرنا بعد ذلك بسيارته التي كان قد أوقفها في شارع جانبي. سيارة قديمة منبعجة صغيرة من طراز «رينو 5» وليس بها خدمة شهادة اعتماد المنتج والتي كانت تمتلئ بمعطرات سيارة على هيئة أشجار، كنا نسافر في المساء والليل ونهيم على وجوهنا من هنا إلى هناك ونحن ننزل زجاج النوافذ إلى أسفل «هيا بنا نذهب إلى «ميم»، هيا بنا نذهب إلى المنزل». وعندما كدنا أن نقترب بعد ذلك من «ميم» –الذي كان يسكن

أيضًا في حي الفحم– اضطررنا لأن نرجع مرة أخرى؛ لأن «هاء» كان قد نسي في الحانة حقيبة ظهره العسكرية التي كانت تضم كل أدواته وأوراقه. لم تكن حقيبة الظهر في مكانها وعثرنا عليها أخيرًا أسفل مقعد في أحد أرصفة محطة القطار الكثيرة. كانت الحقيبة خاوية لكن «هاء» لوَّح بيده نافيًا وضحك قائلًا: «هيا بنا نذهب إلى «ميم» فالسماء صافية الليلة».

«ميم» صديقي القديم في المدرسة، الذي كان قد عرفني على كلا الشقيقين، «ميم» صديق نجوم السماء وبصحبته التليسكوب الكبير، الذي كان موضوعًا على حامل على السطح بجوار شجرة «بتولا» هزيلة، «ميم» الذي دلَّني على مملكة الظلال –هذه الفناءات الخلفية لحي الفحم، التي كان يسكن فيها أشخاص غريبون، يشبهون شخصيات الحكايات الأسطورية؛ أقزام الأساطير وعمالقة وسيدات ملعونات– إلى مملكة الظلال والكوابيس... لكن عندما كنا نصبح هناك وعندما كنا نحتسي النبيذ معهم، كنا نحن أنفسنا نصبح جزءًا من هذه الأساطير المظلمة...

جلسنا عند «ميم» واحتسينا النبيذ وصعدنا بعد ذلك إلى السطح حيث جهاز التليسكوب الخاص به وتأملنا نجوم السماء. كان «ميم» يعرف كل مجموعات النجوم. ركضنا أعلى الفناء الخلفي لكي نوقظ «كاف» الذي كان نائمًا بالفعل؛ إذ إنه كان مضطرًّا لأن يذهب في الصباح إلى موقع البناء لكنه تقلَّب فحسب «دعوني وشأني أيها المختلين» فواصلنا احتساء النبيذ وحدنا، «ميم» و«هاء» وأنا.

«كاستور» و«بولوكس»[6]. اللذان لا ينفصلان بعضهما عن بعض

6- «كاستور» و«بولوكس»: إلهان إغريقيان توأمان كانا لا يفترقان بعضهما عن بعض لشدة تعلقهما ببعضهما وأصبحا في ما بعد رمزًا لكوكبة الجوزاء. (م)

واللذان ارتحلا في ما سبق مع بحاري الأرجو[7]. في كوكبة الجوزاء. أحدهما فانٍ والآخر خالد؛ هكذا أوضح لنا «ميم» آنذاك بصوتٍ غير مفهوم. سأل «هاء»: «من هم بحارو الأرجو؟».

«مجانين، كانوا يبحثون عن شيء ما، قبل آلاف السنين». أمسك «ميم» بحامل التليسكوب وضغط بعينه بإحكام شديد على العدسة لدرجة أنني اعتراني الشعور بالخوف من أن العدسة سوف تنضغط إلى داخل محجر العينين وهكذا أخذ ينظر بعيدًا نحو الكون ونحو مجموعات الكواكب ونحو «كاستور» و«بولوكس». هل حكى لنا في هذه الليلة الحكاية الكاملة لبحاري الأرجو؟

جاء في الصباح أفراد قوات حفظ النظام في الجيش الألماني لكي يأخذوا «هاء». كان الجميع في حي الفحم يمقتون أفراد قوات حفظ النظام في الجيش الألماني الذين كانوا حقًّا مثل رجال الشرطة. عندما اقتادوا «هاء» -الذي كان لا يزال مخمورًا بعض الشيء- عبر الفناء الخلفي، انحنت الأمهات ذوات الجسد الضئيل والطاعنات في السن من النوافذ ووجهن السباب لفردي قوات حفظ النظام في الجيش الألماني اللذين كانا يرتديان زيًّا عسكريًّا فاتح اللون ويضعان مسدسين في حزاميهما. سكبت سيدة عجوز صحنًا به قشور بطاطس عليهما، لا بالأحرى أمامهما، وركضا مع «هاء» فوق قشور البطاطس التي ركضت فوقها أنا أيضًا في ما بعد، رقعة غير متجانسة من قشر البطاطس. ركضتُ نحو مدخل البوابة، نحو الشارع، إلا أن فردَي قوات حفظ النظام في الجيش الألماني كانا قد ابتعدا بالفعل وبصحبتهما «هاء».

رمشت بعيني في ضوء شمس الظهيرة وتركت محطة القطار من خلفي

7- بحارو الأرجو: مجموعة من البحارة الإغريق الذين أبحروا قبل حرب طروادة. (م)

ومضيت ببطءٍ شديد عبر الشوارع المتعرجة باتجاه الشرق، باتجاه حي الفحم.

***

جلست في حانة «إنجس إيك» التي سبق وأن جلسنا كثيرًا فيها. وددت أن أحتسي شيئًا آخر قبل أن أقرع جرس منزل «كاف» الذي أصبح يسكن الآن عند والدته مرة أخرى.

كانت حانة «إنجس إيك» قد أصبحت أضيق، انكمشت. كنت قد ظننت في بادئ الأمر أن ذكرياتي وحدها قد ضللتني، مكان لبيع النبيذ لا نهاية له ويعج بالناس ممن يحتسون الخمور وممن كانت أصواتهم تجعل المكان أكبر في المساحة، قبة من الأصوات والضوضاء. أخذ المكان يتسع ويزداد ارتفاعًا أكثر فأكثر، سحب ضبابية أعلى الطاولات، وجوه قد علاها الاحمرار وكانت تتحرك في الضباب كأنها قد تعرضت للتشويه عبر عدسات بصرية وأكمام قمصان مرفوعة نحو أعلى وقد ظهرت من أسفلها وشوم غريبة، كؤوس من كل الأحجام على الطاولات، أوراق كوتشينة كانت تتأرجح في الهواء كأنها تتحرك بالإيقاع البطيء. رائحة بيرة وعرق ودهون. كانت «إنجه» تطهو الطعام آنذاك بنفسها وكانت المأكولات الساخنة تُقدَّم على مدار الساعة، رائحة امتزجت بالضباب المنبعث من أعقاب السجائر. وبالخارج انبعث الدخان من مداخن المنازل. كان تجار الفحم يربحون مالًا وفيرًا حتى تم إصلاح المنازل القديمة أو حتى انهدمت؛ إذ أخذت مواقد القرميد تختفي شيئًا فشيئًا وأخذ تجار الفحم يختفون شيئًا فشيئًا وأخذ حي الفحم يختفي شيئًا فشيئًا.

كانت حانة «إنجس إيك» قد تقلَّصت ومرَّ جدار جديد عبر مكان بيع النبيذ. وأيضًا لم يعد المطبخ الكبير، الذي كانت «إنجه» تأتي بصواني الطعام منه دائمًا، موجودًا هنا. استطعت أن أرى على طاولة خلف النضد

أنه لم يعد موجودًا عليها سوى سجق معد من لحم التيس ومعه شطائر خبز صغيرة. ولم يكن هناك سوى بضعة أشخاص جالسين إلى الطاولات القليلة المتبقية. هنا وهناك، كان خيط رفيع من دخان سيجارة ما يتبدد في الغرفة... ماذا هنالك خلف هذا الجدار؟ مخزن أم شقة؟ أم متجر؟ نهضت واقفًا وتوجهت إلى الخارج لكي أشاهد المنزل بدقة ولكي أحل لغز الغرفة المُتقلِّصة. عندما استدرتُ مرة أخرى قبل الباب بقليل، رأيتُ أن هناك جنديًّا جالسًا إلى النضد ولا بدَّ أنه كان جالسًا هناك طوال الوقت. زي عسكري، والقلنسوة العسكرية مكرمشة أمامه بجوار كأس البيرة، التي كان يحتسيها، وبجوار كأس صغيرة من نبيذ «شنابس» البني. نظر لي لوهلة وأومأت له برأسي. رفع كأس نبيذ «شنابس» واحتساه.

كان الجو بالخارج باردًا وقد غربت الشمس خلف المنازل. لم تكن لافتة «إنجس إيك» قد أضاءت بعد. وحتى في ما بعد، عندما حلَّ الظلام، لم تضئ اللافتة. ألقيت نظرة على جدار المنزل نحو أعلى. كانوا قد أصلحوا قبل سنوات الشارع، الذي كان به صفوف المنازل، بأكمله. لكن لون الطلاء بدأ بالفعل يصبح رماديًّا وتقشَّر في بعض المواضع؛ إذ إنه تأثر بالعوامل الجوية بالفعل ونفذت الرطوبة من الأرض إلى البناء، ألم تترعرع بعض أشجار «بتولا» صغيرة على السطح؟ مِلت برأسي إلى الوراء. سماء زرقاء صافية في أواخر الصيف. من جديد، أصبح لون المنزل رماديًّا شيئًا فشيئًا وتأثر بالعوامل الجوية كأنه لم يكن في حالة راحة في ظل كل الطلاء الجديد. وأصبحت المنازل بشكلٍ دائم رمادية وكادت أن تصبح سوداء في حي الفحم وأصبحت رمادية من جديد حتى عندما اختفى تجار الفحم.

كان والد الشقيقين «هاء» و«كاف» تاجر فحم. كان تجار الفحم آنذاك أثرياء ويتمتعون بالنفوذ وذلك عندما كان الدخان ينبعث في السماء من آلاف عديدة من مواقد القرميد... عندما توفى والدهما، كان يسعل كأنه كان يريد أن يلفظ كل غبار السنوات، غبار الفحم، غبار الفحم بكميات

هائلة، الذين كانوا قد جمعوه في أكياس وشاركوا في احتساب وزنه. غبار كان يمتزج بدخان المداخن والمصانع والسجائر والذي كان يلفظه وهو يسعل عندما وافته المنية. أراد «هاء» أن يسترده، يدا «هاء» على صدره.

«أين كنت آنذاك؟» ربما سيسألني شقيقه الأصغر هذا السؤال في ما بعد، ساعة بحاري الأرجو، «أين كنت آنذاك».

رأيتُ السقالات أمام الواجهات، سقالات كانت ترتفع لأعلى وتلتف حول المنازل بينما وقفت إلى المنزل، وقفت أمام حانة «إنجس إيك» وما زلت أميل برأسي نحو مؤخرته لدرجة أنني شعرت بألم بالفعل في مؤخرة رأسي. وقد تعرضت غابات أشجار «بتولا» على الأسطح للتقطيع. وقفنا على الألواح السميكة للسقالات، أي «هاء» وأنا. كنا نعمل في البناء عندما كنا نحتاج إلى المال وعندما كان «هاء» لا يتنقل في البلد مع انتقال الناس من مسكن لآخر. كان شقيقه الأصغر عامل البناء يدبر لنا الوظائف. عملنا مساعدي عمال بناء وعمال تنقيب وعمال إزالة مخلفات المباني وفرق هدم المباني... كنا نسعل غبارًا وكان غبار الطوب أحمر اللون يلتصق بمناديل جيبنا كأننا سننزف من أنوفنا. كنا نرتدي كمامات مثل الأطباء في غرفة العمليات وكنا نطلق على الكمامات اسم «شنوفي» وعلى المطارق الضخمة -التي كنا نهدم بها المداخن وحوائط كاملة- اسم «بيللو». كنا نحمل أكياس الأسمنت وألواح الجبس ونحن نصعد السلم ونهبطه. وكنا نمسك في أيدينا المطارق التي تعمل بضغط الهواء وكانت أجسادنا تهتز وكنا نصرخ وسط الضوضاء. كان الطلاء الرمادي القديم يسقط من الطوب ومن الواجهات وجدران المنازل وكان هناك صوت يدوي داخل السقالات التي تنزل إلى أسفل حيث الشارع وحيث ممر المشاة. بينما كان الغبار يتصاعد نحو أعلى. كنا نقف على أسطح حي الفحم ونرتدي خوذًا صفراء، كانت مغطاة بالغبار أيضًا، وكنا نرى تليسكوب «ميم» الذي ظل موضوعًا على الحامل بجوار شجرة «البتولا» الهزيلة. لم يصلوا إلى مكانٍ

بعيد حتى الآن على الرغم من أن «ميم» لم يعد موجودًا هنا... لا، كان يقف هناك بالأعلى عندما كنت أعمل أنا و»هاء» على الأسطح، أسطح حي الفحم وأسطح المدينة. لوَّح لنا بيده وأخذ يراقبنا عبر التليسكوب، الذي كان يرى به النجوم. تداخلت الأزمنة؛ فأصبح الجو باردًا وما من ضوء في حانة «إنجس إيك». متى اختفى «ميم»؟ متى اختفى «هاء»؟ متى اختفيت أنا؟ أخذ الموت يجوب منازلنا وفناءاتنا الخلفية.

سأل الجندي: «هلا دعوتني لاحتساء كأس؟» لم يعد الجندي موجودًا عندما فتحت باب حانة «إنجس إيك» من جديد. هل بقيت بعيدًا لوقتٍ طويل جدًّا، بقيت بالخارج؟ لكنني رأيت بعد ذلك القلنسوة العسكرية المكرمشة بجوار كأس فارغة من نبيذ «شنابس».

«هلا دعوتني لاحتساء كأس؟» سألها مرة أخرى عندما خرج من التجويف الصغير الموجود في الحائط والمؤدي إلى المراحيض. المؤدي دائمًا إلى المراحيض على الرغم من عدم وجود مساحة له. وقلت له: «ماذا تريد إذًا أن تحتسي أيها الجندي؟» نظرت إليه. كان يصغرني بعشرة أعوام بالتأكيد. من الصعب قول هذا، إلا أن عينيه بدتا عجوزين ومرهقتين.

«نفس ما تحتسيه».

نظرت إلى الزجاجات الموضوعة في الأرفف خلف النضد. أنواع قليلة فحسب من نبيذ «شنابس» ونبيذ «ليكور» –مثلما كان في السابق– نبيذ صافٍ ونبيذ بني، «كاستور» و»بولوكس». كان «هاء» يفضل احتساء النبيذ البني أكثر من النبيذ الصافي. كان يضحك ويرفع نخبه ليحييني؛ فتحركت سلسلة لا نهاية لها من الكؤوس الصغيرة الممتلئة بنبيذ «شنابس» البني والتي كانت تلمع من حول رأسه بصورة خافتة في الضوء البسيط للحانة... كان نادل الحانة متواجدًا بالقرب من شاربي النبيذ القليلين في موضعٍ ما من مكان بيع النبيذ. كانت «إنجه» قد اختفت

بالفعل قبل سنوات وباعت المحل بينما ظللت أنا أعيش في المدينة.

استدرت وصحت في الغرفة: «كأسين من البيرة، كأسين من نبيذ «شنابس» البني». صاح نادل الحانة من مكانٍ ما قائلًا: «أنا قادم». ضغط الجندي على القلنسوة العسكرية بكلتا يديه بينما انتهى نادل الحانة من إعداد المشروبات.

نظرت إلى الجندي لكنه بدأ يتطلَّع من بين الجدران... كان «هاء» في السجن طوال الوقت تقريبًا أثناء أدائه للخدمة العسكرية وكان يتطلَّع هناك من بين الجدران؛ إذ إنه كان قد وجه الضربات لرئيسه بقبضة يده القوية نظرًا لأنه عمل في نقل الأثاث وفي تجارة الفحم وإذ إنه لم يكن يلحق كثيرًا بالقطارات بعد انتهاء عطلات نهاية الأسبوع.

«كأسين من البيرة، كأسين من النبيذ المبهج». وضع نادل الحانة مشروباتنا على النضد. جذب الجندي الكأسين نحوه ورفع كأس نبيذ «شنابس» وانتظرت أن يقول شيئًا ما، أن يحتسي نخب شيء ما، لكننا احتسينا النبيذ في صمت. ما من نخب.

سأل الجندي: «أين أديت خدمتك العسكرية؟» ووضع كأس نبيذ «شنابس» الخاوية ببطء على النضد.

قلت: «لم أؤدِ الخدمة العسكرية. حصلت على إعفاء من أدائها».

أومأ برأسه. «لعَّل هذا أفضل شيء. هلا دعوتني لاحتساء كأس أخرى؟».

«هل يتم دفع رواتب الجنود متأخرًا؟».

«لا». أخذ عندئذ ينظر لي. كنت أعرف هذه النظرة؛ كنت أعرفها من حانات حي الفحم قبيل أن يتفشى الجنون. كان «كاف» شقيق «هاء» الأصغر كثيرًا ما ينظر هذه النظرة؛ حيث تصبح مقلتا العينين أصغر

حجمًا أكثر فأكثر وتصبحان بعد ذلك أكبر حجمًا من جديد كأن العينين تتنفسان شهيقًا وزفيرًا بغضب «لا عليك أيها الجندي، لا مانع من هذا أيضًا». بريق أبيض ومن خلف هذا البريق كان الجنون في الانتظار، كانت الحرب في الانتظار، كانت الضربة الأولى في الانتظار. ضرب «كاف» بكأسه شخصًا ما في وجهه فقد أثار أعصابه قبل دقائق. سال الدم على بشرته، وجه شخص ما الضربات لـ«كاف» وظهر شقيقه وضرب وجه شخص ما، تهشم الزجاج، صاح شخص ما بصوتٍ كالزئير، ضحك شخص ما، ظللت جالسًا وقد اعتراني شعور غريب بالهدوء. شعرت بوجود القواعد القانونية وبسريان الطقوس العتيقة، كانت قديمة وأقدم من حي الفحم. إنها مملكة الظلال. ذابت الجدران فتمكنت من أن ألقي نظرة في الشقق ورأيت الأمهات ذوات الجسد الضئيل والطاعنات في السن يجلسن في سكون إلى الطاولات ورأيت المخمورين يرقدون في فراشهم وهم يرتجفون ورأيت «ميم» منكفئًا فوق كتاب. الحكايات الأسطورية والنجوم. متى اختفى «ميم»؟ ولماذا اختفى؟ ورأيت «هاء» وكيف كان يرقص مع صديقته، وحدهما تمامًا وسط الطاولات والكراسي، وجسداهما يلتصقان بعضهما ببعض وهو يضع رأسه على كتفها. دارت إحدى الأغاني الشهيرة في فترة التسعينيات. هل حدث هذا في حانة «إنجس إيك» أم في حانة أخرى من حانات حي الفحم؟

ومن جديد احتسى الجندي النبيذ. قلت: «كان يوجد غبار *هناك بالأعلى*، أليس كذلك؟» وأومأ هو برأسه إيجابًا. «ما زال الوضع هكذا» قالها ووضع الكأس الصغيرة ببطء بجوار الكأس الفارغة التي احتساها في جولتنا الأولى. أراد نادل الحانة أن يحمل الكأس بعيدًا وكان قد مدَّ يده بالفعل نحوه إلا أن الجندي قال: «فلتتركه موجودًا، إنه يبدو جميلًا هكذا».

ومن جديد احتسى الجندي النبيذ. أصبحت أمامه ثلاث كؤوس صغيرة فارغة. أصبحت أمامي ثلاث كؤوس فارغة. استدرت لوهلة وصحت في

الغرفة قائلًا: «إذًا سأدفع الحساب». كان نادل الحانة يجلس من جديد إلى إحدى الطاولات عند أحد الزبائن القلائل ويحتسي النبيذ. لمعت كأسه الصغيرة بلونٍ أخضر، إنه نبيذ «ليكور النعناع». هذا ما يحتسيه من أدمنوا الخمور لوقتٍ طويل عندما لا تعد معدتهم تحتمل أنواع نبيذ «شنابس» اللاذعة.

«على الأرجح أنك لست من هنا أيها الجندي» قالها الجندي وأضاف: «لم يسبق لي أن رأيتك قط...» تلعثم وحرك إصبع السبابة في الهواء ورسم نصف دائرة حول وجهه ورسم صورة حي الفحم في الغرفة كأنه قائد فرقة موسيقية يؤدي عمله بيدٍ واحدة.

قلت: «لقد ابتعدتُ لوقتٍ طويل» وأردفت: «لقد قضيت هنا وقتًا كبيرًا، في الماضي، كان لديَّ أصدقاء مقربون هنا». لمست الكؤوس الثلاث الفارغة التي كنت قد أزحتها معًا لتلتصق بجوار بعضها.

أومأ الجندي برأسه. أخرج علبة سجائر مُجعَّدة من الجيب الداخلي لسترته الخضراء وسحب سيجارة معوجَّة وأخذ يفردها بحذر ويدقها بضع مرات على النضد قبل أن يدسها بين شفتيه. وبعد ذلك وضع العلبة بجوار قلنسوته العسكرية المكرمشة. أخذ ينظر عندئذ من جديد إلى الحائط الموجود خلف النضد وبدا أنه لم يعد يلقي لي بالًا. لكن بعد أن دفعت الحساب وتوجهت إلى الباب، قال: «فلتأتِ مرة أخرى عما قريب أيها الجندي. أنا هنا دائمًا». كان وقع صوته عميقًا بصورة غريبة؛ لأنه لم يلتفت نحو الباب وإنما تحدث باتجاه الحائط الذي حمل لي عباراته عبر الغرفة التي أصبحت أصغر في حانة «إنجس إيك».

انتفضت مفزوعًا. كان الجو مظلمًا وباردًا. جلست في المنتزه الصغير قبالة منزل «ميم» وكان المنتزه في الحقيقة مجرد مساحة مغطاة بالنجيل بها ملعب للأطفال. نظرت إلى ساعتي. الساعة السادسة للتو. كنت قد

حلمت بالجندي. رأيته في الحلم لا يخرج علبة سجائر مجعدة من سترة زيه العسكري وإنما علبة سجائر متينة ومُحكَمة وقد بدت لي في الحلم رائعة الجمال. أبيض، بريق أبيض مع مثلث لونه أحمر. يا له من لونٍ أحمر بديع. أردت أن ألمسهما، أي اللون الأبيض واللون الأحمر في حلمي. كانت الإشارة إلى خطر التعرض للوفاة مطبوعة على علبة السجائر بلغة أجنبية ما ولذلك لم يكن من الممكن قراءتها. وقال الجندي: «كم يصنعون السموم على نحوٍ جميل، أليس كذلك؟» لم أعرف سوى في الحلم أنه كان يرتدي وسامًا على سترة زيه العسكري.

كانت النوافذ في منزل «ميم» معتمة. على الأرجح أن أحدًا لم يعد يسكن هنا؛ إذ إنهم لم يصلحوا المنزل. كما سبق وأن هدموا بضعة منازل على بعد مسافة صغيرة من الشارع بالأسفل. استطعت أن أرى الأراضي المقفرة في الظلام وعلى بعد مسافة صغيرة خلف مساحة الأراضي المقفرة رأيت الشارع الكبير الممتد من المدينة. أضواء كانت تتحرك هناك، حمراء وصفراء، هناك كان عالم الأضواء السريعة، عالم التيارات والشبكات. هل ما زال التليسكوب مع الحامل موجودًا بالأعلى على السطح؟ «ميم» صديق النجوم، الذي كان يعرف كل مجموعات النجوم ويروى لنا حكايات عندما كنا نجلس معه على السطح. «كاستور» و«بولوكس» وبحارو الأرجو. قال لي «ميم»: «انصرف. حاول أن تفعل شيئًا جديدًا في أي مكان. أنت صبي ذكي بالطبع».

قلت: «امم، امم. نحن في العمر نفسه! ما عساك *أنت* أن تصبح؟».

ابتسم وعدل وضع نظارته: «أنا؟ أنا في حال جيدة هنا فعلًا».

كان ملمس المقعد، الذي كنت أجلس عليه، رطبًا وباردًا. نهضت واقفًا. كانت والدة «ميم» تسكن بعد بضعة منازل. ظللت واقفًا عند باب منزل «ميم». كان من الممكن بالكاد قراءة الأسماء المكتوبة على الأجراس.

وضعت راحة يدي على الأزرار ووددت أن أضغط عليها جميعًا لكنني عدلت عن ذلك واكتفيت بالوقوف هناك ببساطة. وقفت لبعض الوقت هكذا في قوس الباب المظلم ووضعت قدمي على العتبة الحجرية ووضعت راحة يدي على أزرار الجرس.

***

فتحتِ الباب. لم تتعرف عليَّ على الفور وبعد ذلك عانقتني. ربما كادت أن تسقط عندئذ؛ لأنها كانت تتكئ على عصا، تركتها بعد ذلك ببساطة عندما عانقتني. «فلتدخل».

انحنيت والتقطت العصا وناولتها لها. أخذتْ تعرج أمامي في الشقة.

««كاف» ليس هنا» قالتها عندما جلسنا في غرفة المعيشة؛ هي على الأريكة الكبيرة وأنا على أحد المقاعد الوثيرة. كانت مطفأة السجائر على الطاولة المنخفضة المقابلة للأريكة مليئة بأعقاب السجائر. وكان الدخان ما زال يتصاعد من أحدها. وبجوار مطفأة السجائر كانت هناك علبة بيرة مفتوحة وكأس نصف ممتلئة.

«إن كنت تريد كأسًا من البيرة، ستجدها في الثلاجة».

«أجل، شكرًا». نهضت واقفًا مرة أخرى. كدت أن أنسى -بعد كل هذه السنوات- أنني كنت صديقًا للأسرة. مررت في الطريق إلى المطبخ بالخزانة المثبتة في الحائط. في واجهة العرض الزجاجية، بين الأكواب الزجاجية وتماثيل البورسلين، كان هناك قالب من الفحم المضغوط يلمع بلونٍ أسود وعليه صورة ذات إطارٍ ذهبي. صورتها هي وزوجها، تاجر الفحم وسائق ينقل شحنات الفحم وملك الفحم ووالد «كاستور» و«بولوكس». كان يمسك بذارع زوجته -التي كانت تجلس خلفي الآن وتسعل- وكان الاثنان يضحكان. وبجوار قالب الفحم المضغوط من ناحية اليسار

واليمين كانت هناك صور لابنيهما. ومن خلف قالب الفحم المضغوط كانت هناك صورة لمقبرة يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل المسيحية. لا بدّ أن هذه المقبرة كانت تقع في مكانٍ ما بالخارج قبالة المدينة. مضيت عبر الدهليز باتجاه المطبخ.

كان هناك الباب المؤدي إلى غرفة «كاف» التي كان الشقيقان يعيشان فيها سويًّا في ما سبق حتى انتقلا من مسكنهما وبعد ذلك انتقلا إلى مسكنهما من جديد وبعدها انتقلا من مسكنهما مرة أخرى. أين كان «كاف»؟

اعتراني الشعور بالخوف مما قد تحكيه والدته لي. جلست لبعض الوقت قابعًا في ضوء الثلاجة المفتوحة وبعد ذلك أخرجت لنفسي منها بيرة وعدت إلى غرفة المعيشة.

«كان يقول دائمًا إنك ستأتي في وقتٍ من الأوقات». كانت قد سندت العكاز إلى الأريكة بجوارها ودخنت السجائر وأخذت ترتشف رشفات صغيرة من الكأس.

وددت أن أسألها هل كانت تقصد «هاء» أم شقيقه. لكنني اكتفيت بفتح علبة البيرة. سال قليل من الرغوة على يدي.

قالت: «إنه في المستشفى». ومن جديد لم أكن أعرف على وجه الدقة أي الشقيقين كانت تقصد. لقد ولّى قبل وقتٍ طويل عهد بقاء «هاء» في المستشفى إلا أنها كانت تعيش في إحدى ممالك الظل.

سألت: «ماذا... جرى لـ«كاف»؟». ومن جديد اعتراني شعور بالخوف مما قد تقوله والدته أي والدتهما. هل كان «هاء» على وشك أن يلحق بشقيقه؟ «كاستور» و«بولوكس» اللذان لا ينفصلان عن بعضهما مثلما كانت النساء العجائز تفعل في بعض الأحيان مع أزواجهن العجائز أو

العكس صحيح...

حاولت أن أتذكر... ماذا كان شعوري عندما عرفت أولًا باختفاء «هاء» ثم باختفاء «ميم»؟ لم أذهب إلى المدينة، آنذاك.

كان عالمًا قديمًا، اختفى شيئًا فشيئًا ومعه اختفى سكانه. حي الفحم بكل من فيه من بشر غريبين، شخصيات الحكايات الأسطورية والخرافية... مدمنو خمور مشهورون كانوا دائمًا ما يزدادون نحافة وتهالكًا مثل شخصية «فينيوس» التي سبق وأن حكى لنا «ميم» عنها. كان «فينيوس» رجلًا عجوزًا نحيلًا في جزيرة ما وقد عاقبته الآلهة. لم يكن هؤلاء المخمورون يستطيعون في النهاية سوى احتساء نبيذ «ليكور النعناع» وكانوا يقترفون أشياء بشعة وهم سكارى. كانوا تجار فحم، لم يعد بوسعهم فعل أي شيء؛ لأن الأفران لم تعد موقدة. وشوم باهتة على بشرة عجوز. أمهات ذوات جسد ضئيل وطاعنات في السن، يتكئن على وسادات شاحبة وينظرن طوال اليوم من النافذة. أطفال كانوا يعيشون في الحانات ويجلسون ليلًا في الفناءات الخلفية مثل آبائهم، يجلسون على حواف الأرصفة ويحتسون الخمور، ينتقلون من مساكنهم وينتقلون إلى مساكنهم من جديد. أخذ الموت يجوب فناءاتنا الخلفية ومنازلنا.

سألت مرة أخرى: «ماذا جرى لـ«كاف»؟»؛ لأنها لم تكن قد أجابت؛ فربما أنها لم تسمعني. أو أنها كانت قد أجابت وأنا لم أسمعـها. كانت قد أخرجت تبغًا من علبة كبيرة وفتتته في ما يشبه ماكينة خراطة وآلة حشو.

«ليس... جسديًّا» قالتها وأشعلت السيجارة الجاهزة. «عقله. لم يعد يفهم الأمور».

قلت: «الأمور».

«لماذا لم تأتِ. لماذا هو وحيد. لماذا انصرف شقيقه. و»ميم»، لعلك ما زلت تتذكر «ميم»».

قلت: «بالطبع».

قالت: «بالطبع» ومدَّت يدها نحو سيجارتها التي كانت قد وضعتها في مطفأة السجائر.

***

جلسنا على سطح المنزل. لم يكن هناك بجوار شجرة «البتولا»، التي كانت شبه ذابلة، سوى الحامل دون التليسكوب.

قال «كاف»: «سوف آتي وسوف أمضي».

جلس بجواري. كانت ساقاه تهتزان في الظلام، هناك، حيثما كان السقف ينحدر بشدة نحو الفناء.

قال «كاف»: «لا» وكدت أستطيع أن أشعر كيف جعل ساقيه تهتزان وكيف حرك قدميه ذهابًا وإيابًا مثل طفل. «ليس هكذا. ربما لن يكون هذا الأمر على ما يرام».

قلت: «لا. ربما لن يكون الأمر كذلك».

قال «كاف»: «لقد أصبح ببساطة أصفر اللون، هكذا ببساطة. نجحت في الذهاب به إلى المستشفى... لم يعد يستطيع...».

سألت: «وماذا عنك؟».

«... لم يعد يستطيع أن يركض. هناك بالأسفل...» أشار إلى أسفل، إلى ظلام الفناء الخلفي. أضاء ضوء هلال السطح قليلًا فحسب في مكانٍ ما فوقنا، خلفنا. حجبت الغيوم الهلال وأخذت تتجول وتحركت الظلال ولم

يعد هناك شيء منسجمًا مع الآخر، والده، شقيقه، «ميم».

كان «كاف» قد ركل باب المنزل الذي كنت لا أزال واقفًا عنده قبل قليل وأنا أضع يدي على أجراس هذه الغرف الطويلة والتي لايسكنها أحد بالفعل. أصبح «كاف» هناك فجأة عندما كنت أعدو من منزل والدته إلى مدخل البوابة عبر الفناء الخلفي. كان قد وقف بالبوابة المؤدية إلى الشارع، بجوار الحائط مباشرةً، لدرجة أنني لم أستطع مطلقًا أن أراه في بادئ الأمر.

كان «كاف» قد همس قائلًا: «أهلًا أيها الرفيق» وقد دوَّى صوت همسه المبحوح في البوابة المظلمة الضيقة على نحوٍ غريب «أهلًاااااا-رفيق».

«سوف آتي وسوف أمضي». لم أشعر إلا عندئذ أن يدي ما زالت موضوعة على كتف «كاف». أخذت يدي تتحرك عندما كان يتحدث.

«ما عساي أن أفعل في الغرف البيضاء؟».

«أليست جيدة بالنسبة لك؟».

ضحك بصوتٍ منخفض. «جميعها جيدة بالنسبة لي».

قلت: «أنا آسف» وأبعدت يدي عن كتفه.

«ماذا إذًا، ماذا إذًا؟ كنت أعرف دومًا أنك ستأتي. لم يعد باستطاعته أن يركض. كنا مضطرين لأن نجعله يبتعد». حرَّك ساقيه وجعلهما يتأرجحان بانتظام؛ فأصبح من الممكن رؤية قدميه لوهلة في ضوء الهلال.

سألت: «وماذا عن «ميم»؟».

«صديقنا المقرب «ميم»». من جديد، أصبح فجأة هناك تمامًا، بوضوح تام. استدار نحوي ونظر إليَّ. بدت عيناه عجوزين ومرهقتين. ما من

غيوم أمام الهلال.

كان قد ركل الباب بالأسفل وبدا لي كأنه يرتطم بقدمه في خشب الباب داكن اللون كأنه قد ينفتح قبل أن يتشظى الخشب وقبل أن تجعل ركلة قدمه الباب ينخلع عن مفصلاته. «كاستور» و«بولوكس» وبحارو الأرجو.

«عندما رحل «هاء»، ظل «ميم» يجلس هنا بالأعلى فحسب. ظللنا نحن نجلس هنا بالأعلى فحسب».

«وهو...».

«عندما رحلت أنت، ظللنا نحن نجلس هنا بالأعلى فحسب. لكن لا، هذا ليس صحيحًا. أنت كنت هناك وألقيت الخطبة البديعة. هناك بالخارج، قبالة المدينة».

قلت: «أجل، فعلتُ هذا».

قال: «أجل، فعلتَ هذا». اتكأ إلى الخلف وجعل الجزء العلوي من جسده يهوي إلى الخلف على لباد الأسفلت الرطب الذي كان بعض من الطوب المغطى بالطحالب ما زال موجودًا عليه. لم أكن في المدينة، آنذاك. كنت قد سمعت عن اختفائهما لكنني لم أكن أود أن أعود إلى حي الفحم؛ إذ لم أكن أستطيع أن أفعل هذا ببساطة ولم أكن قد رأيت اختفاءهما سوى في أحلامي.

«لقد أصبح ببساطة أصفر اللون. بين عشية وضحاها. هكذا ببساطة. معدة، كبد، مرارة. من يدري. هكذا بالضبط».

«وهل بعد ذلك...؟».

«قالوا إن كبار السن فقط هم من يصابون بهذا. كانت إصابته هذه مثل المعجزة. كان صغير السن أكثر مما ينبغي، أتفهم هذا؟ صغير السن

أكثر مما ينبغي لأن يصبح أصفر اللون هكذا ببساطة».

اتكأت إلى الخلف واستلقيت بجواره لكي لا أسقط من السطح في هذا الظلام المخيم على الفناءات الخلفية. ألقيت نظرة أعلى الأسطح. هناك في مكانٍ ما كانت محطة القطار التي كنت قد وصلت إليها قبل قليل. ومن حولِ محطة القطار وبعيدًا جدًّا عن بريق المدينة البعيد -التي بدت مدينة أخرى- وحول مجموعات منازل حي الفحم كانت هناك أقمار ساكنة.

«ما الاسم الذي أطلقه عليه، أي على هذا العجوز النحيف؟ «فينيوس»؟».

سألت: «هل تقصد «ميم»؟».

«أجل».

قلت: «أجل. كانت هذه هي حكاياته».

«هل بإمكانك أن ترى أي شيء هناك بالأعلى؟» نظرنا نحو نجوم السماء. قلت: «لا. مجموعة نجوم «الدب الأكبر» ربما».

«كانت لديهم سيدة ذات مرة، حسنًا، ربما لن أقول سيدة الآن...».

حكى بعد ذلك شيئًا ما عن صندوق آلات يدوية في جزيرة «فينيوس» وأن «ميم» كان -لسببٍ ما هناك- مرتبكًا ووحيدًا. وكان هناك «فينيوس» وأصدقاؤه والسيدة وصندوق الآلات اليدوية الممتلئ بالعدة. غير أنني لم أكن أرغب في سماع هذا، أي حكايات حي الفحم الأسطورية المبهمة المزعجة.

قال «كاف»: «إلى الداخل وإلى الخارج».

قلت: «ما عسى الإنسان أن يفعل هناك؟».

قال «كاف»: «أن يحتسي نبيذ «ليكور النعناع»، أن يسقط».

بعد ذلك صمتنا واستلقينا على السطح وصرنا نتأمل كيف أخذ الهلال يأفل.

***

ذهبت في وقتٍ من الأوقات إلى والدتي. «لقد أعددت لك فراشك». كانت حقيبتي لا تزال خلف الجدار المعدني للخزانات الفولاذية، لكنني لم أستطع أن أخرجها ولم أكن أيضًا أرغب أن أخرجها في هذه الليلة. كانت قصاصة الورق، التي كانت بها أرقام، على الأرجح عند شجرة «البتولا»، أي عند الحامل، حيثما سبق وأن جلست معهم في المرة الأخيرة، عودة بحاري الأرجو، الذين كان «ميم» قد حكى لنا عنهم. وكانوا في حقيقة الأمر معنا هناك بالأعلى، على السطح.

كان «كاف» قد نقب عن كلا قارورتي حفظ رماد الموتى ووضعهما في إحدى المداخن، بالأعلى على السطح، لم يسبق له وأن روى هل حدث هذا قبل شهور أم قبل سنوات أم قبل أيام. كنت قد نظرت إليه وعرفت على الفور أنهما كانا هنا بالداخل فعلًا وأنه «كان قد أحضرهما إلى المنزل» مثلما كان يسمي هذا الأمر.

كانت نشأتهم ترجع إلى إحدى ممالك الظلال التي كانت قد نشأت على مدار عقود في الفناءات الخلفية لحي الفحم وتنقلت هناك. مصانع صغيرة بها مداخن مستديرة تحوَّلت إلى اللون الأسود بفعل السخام وكانت الحمامات تجلس عليها عندما كان الدخان لا يتصاعد من المداخن. ورش وتجار فحم ومنازل متداعية، ترعرعت على أسطحها غابات صغيرة من أشجار «البتولا». مصانع خاوية ومتداعية، بوابات مؤدية إلى الشارع وإلى الضوء الذي كان خافتًا هناك بالخارج أيضًا. خيَّمت الظلال على هذه الفناءات الخلفية -التي سبق وأن قابلتهم فيها قبل سنوات كثيرة- وعندما عدت إليهم الآن، أدركت أن هذا كله كان قد اختفى قبل وقتٍ طويل بالفعل ولكنه قد يظل موجودًا هناك.

في زماننا هذا

عندما خطا الخطوات الأخيرة، كان هادئًا تمامًا.

دار برأسه كيف كان يطوف الأراضي الزراعية بصحبة البائع المتجول اليهودي قبل سنوات كثيرة. ترى كيف أصبحت حاله؟ هل خطا هو أيضًا خطواته الأخيرة في مكانٍ ما؟ لم يستطع أن يتذكر اسم الرجل العجوز. ماذا سبق وأن قال له البائع المتجول العجوز أكثر من مرة؟ «الطمع والزور والقسوة يتحكمون».

كان الرجل العجوز قد رأى الكثير في الطرق التي سلكها في الأراضي الزراعية. وكان قد حكى له الكثير أيضًا لكنه لم يود أن يصدق هذا آنذاك. ليس بعد. كانا في بعض الأحيان يسمعان الأجراس تدق، بعيدًا عن الأراضي الزراعية.

كان اليهودي العجوز يؤمن على نحوٍ غريب بالمسيح الذي نشر حب البشر وحب الغير والمسالمة والعدالة والاستعداد لمساعدة الآخرين والرحمة والذي أسماه اليهودي العجوز بالشيوعي الأول.

ما معنى هذا؟ هذا ما كان قد سأله للبائع المتجول العجوز آنذاك؛ إذ إن هذه الكلمة بدت لا تتواءم مع عصرهما.

شعر بيد ثقيلة على كتفه. لا، لن يخر راكعًا. كان أمامه قالب خشبي. كان لون الخشب داكنًا بفعل الدم. أرغموه أن يركع.

تساءل عندما نظر إلى رفاق الدرب -الذين كانوا يقفون خلف القالب الخشبي وكانوا ينتظرون خطواتهم الأخيرة بصمت- هل ذهب كل شيء

هباءً.

النضال. كراهية الإذلال الذي أصبح غير محتمل. الدم، الذي أصبح في الحقيقة دمًا آخر غير الذي كان قد صبغ القالب الخشبي بلونٍ أسود. لكننا كنا المنصفين!

أراد أن يصيح بشيء آخر وأن يلملم نفسه ويتحدث إلى الشعب، الذي كان قد جاء بأعداد غفيرة، لكي يرى... لكن عندئذ أصبح فمه فجأة جافًّا وأصبح صوته مبحوحًا وأجش. صمت للأبد. «صديق الرب وعدو العالم أجمع!» هذا ما كان قد هتف به قبل قليل. ولأنه كان يعرف أن هذا من شأنه أن يثير الفزع لدى أعدائه فحسب. لم يعد مؤمنًا بهذا الرب وكان قد أضاف بصوتٍ أعلى: «عدو الأغنياء، صديق الفقراء». كيف قد يتذكره الناس في المستقبل البعيد؟

***

قرأ «فيللي بريدل»[8] هذه الجملة الأخيرة مرارًا وتكرارًا ثمَّ وضع الورقة مع الأوراق الأخرى، وصف مكثف، كتابة في الجهة الأمامية والخلفية، ونهض واقفًا واستند إلى المنضدة. قال: ««كلاوس» صديقي، ما عساه أن يصبح».

بعد ذلك تناول الورقة وقلمه الرصاص من جديد وبدأ يدون ملاحظات وتعليقات بين الجمل بصورة غير مرتبة ويكتب أعلى الكلمات ويضع هناك على الهامش علامة على هيئة صليب وهناك علامة استفهام أو دائرة غير مكتملة، لم يكن هو نفسه يفهمها. قال: «*كانت* ثلاث مرات. هذا أيضًا ليس الحقيقة، كان-كان-كان، ولكن إن لم يكن يزعجك يا صديقي

8- «فيللي بريدل» كاتب ألماني شهير (1901-1964) وكان رئيسًا لأكاديمية الفنون في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (سابقًا). (م)

الحميم...» وأزاح الورقة جانبًا وسقطت الورقة على الأرض. وألقى القلم الرصاص على الأوراق الأخرى، التي كانت موزعة أمامه على المنضدة على شكل مروحة، وجلس من جديد. *انتقل – ذهب– أصبح.*

ارتعش الضوء. مصباح كهربائي بلا غطاء أعلى المنضدة كان الضوء يرتعش فيه.

رفع بصره إلى أعلى. في بعض الأحيان، بعد ساعات من الكتابة، كان ينسى أين هو. بعد ذلك كان يرى صفوف الكتب، والأرفف، التي كانت تصل إلى السقف، وممرات من الكتب.

كانت المدينة أعلاه معتمة آنذاك. ما من نافذة مضيئة. كانت الشوارع خاوية والمصابيح مطفأة. عما قريب ستنطلق صافرات الإنذار. لم يعد ينام نومًا هانئًا منذ أيام. كثيرًا ما كان يفيق من النوم هنا بالأسفل ورأسه بين الأوراق. ما عساه أن يفعل في شقته؟ كانت زوجته بانتظاره. لكن العدو قد تقدَّم. شعبه قد تقدَّم. الجيوش قد تقدمت. لقد جاء الفاشي.

لا، ليس شعبه. شعبه هنا.

كان صديقه «بيشر»[9] قد قال له قبل أيام قليلة فحسب: «لن يتقدم العمر بنا يا «بريدل»». وكان «فيلي بريدل» قد أطبق بكلتا يديه على كتفي الرجل النحيل. «سوف ننتصر، أتسمعني؟ لقد نجونا من المعسكرات. لقد نجونا من إسبانيا... سوف ننتصر!».

كرَّر صديقة «بيشر» حديثه قائلًا: «لقد نجونا من المعسكرات». ونظر إليه بعينين متعبتين وأضاف: «لقد نجونا من الفندق...».

9- المقصود هنا الكاتب الألماني «يوهانس بيشر» (1891-1958) الذي شغل منصب وزير الثقافة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (سابقًا). (م)

«اشش...اشش» فعلها «فيللي» كأنه يريد أن يبعث طفلًا على الهدوء «أيها الرفيق، أيها الرفيق!».

و»بيشر»، الذي لم يسبق له أبدًا أن تواجد في المعسكر (كما أن «فيللي بريدل» كان قد قصد أيضًا بضمير نحن هذا شعب المضطهدين). هوى «بيشر» خائر القوى بين ذراعي «فيللي بريدل».

«اشش...اشش» فعلها «فيللي» وأمسك به قائلًا: «ألا تظن أننا سننتصر؟».

قال «بيشر» بصوتٍ منخفض: «كلا، بالطبع» ووضع رأسه على صدر صديقه «لكننا لن يتقدم بنا العمر. أظن في بعض الأحيان أن قلبي من ورق».

انحنى «فيللي بريدل» على الورقة وحاول أن يلتقطها من الأرض لكنها ظلت تتزحلق مرارًا وتكرارًا بعيدًا عنه. وفي النهاية جعَّدها في قبضة يده ورفعها. وخز في رأسه، وخز في صدره. انتصب واقفًا من جديد بحذر وهو يتنفس بصعوبة. وضع يده وبها الورقة على صدره. ارتعش الضوء من فوقه.

ألم يكن قد سمع صوت الدوي البعيد الأول؟ انطفأ الضوء لوهلة وشعر هو في الظلام كيف أنه توقف عن التنفس وأخذ يرهف السمع في الظلام ومن ثمَّ بدأ السلك أسفل زجاج المصباح الكهربائي يتوهج بلونٍ أحمر وازدادت الإضاءة وأضاء المصباح الكهربائي الخالي من الغطاء المنضدة والأرفف والكتب بضوءٍ مرتعش.

لقد أحب مكتبة «لينين» منذ أن كان في «موسكو». لم يسبق له قبل ذلك قط أن وقف أمام مجموعة ضخمة هكذا. عندما جاء العدو، كلَّفته اللجنة بإخلاء الكتب المخزنة ذات القيمة الأكبر ووضعها في أقبية المكتبة الفسيحة.

كان يحب المكتبات دائمًا. عندما كان طفلًا، كان في مكتبات العمال، «هامبورج» الضائعة، وكان يتردد على مكتبة المدرسة ويقف أمام أرفف الكتب ويمرر أصابعه على ظهر الكتب. كان يقرأ لأيام ولياٍل أثناء تلقيه التدريب المهني على الخراطة في المصنع. دوائر العمال القارئين، كيف يحيا الإنسان؟ أكثر وأكثر، يمر بأصابعه على ظهر الكتب وبين الصفحات ويضع يديه على المخرطة، ماذا كان هذا كله؟ حلم الإنسان الجديد (تذكر كتاب ذلك الفرنسي الذي كان قد التقاه عام ألف وتسعمئة وأربعة وثلاثين في مؤتمر الكتاب في «موسكو»، ألم يحمل هذا الاسم نفسه؟ كيف *يحيا الإنسان*؟ تذكر أن بطل الثورة المضادة تعرَّض في النهاية للحرق، حيًّا، في غلاية إحدى القاطرات. الصين. كان هذا كله بعيدًا جدًّا ولكنه كان متسقًا مع بعضه أيضًا. هكذا يحيا الإنسان. كانا قد التقيا من جديد في إسبانيا).

في بعض الأحيان، عندما كان يستغرق في النوم وهو يضع رأسه على المنضدة، على أوراقه، كان يحلم بالكتب التي كان ينام وسطها. كان يراها تحترق. والغريب أن هذا لم يكن يجعله يشعر بالخوف في حلمه. في الحلم، كان يجلس وسط ألسنة اللهب ويتلو كل ما سبق وأن قرأه. وكان يفرد الورقة التي سبق وأن رفعها للتو من الأرض. ومن جديد قرأ جملته الأخيرة. وشعر أن هناك شيئًا ما غير صحيح فيها. وبالطبع كانت صحيحة على الرغم من ذلك، أي هذه الجملة. كيف *قد... يتذكره الناس*؟

لكن «كلاوس» لم يكن وحيدًا. كان يجب أن يكون الاسم: كيف قد يتذكرهم الناس في المستقبل البعيد.

«شتورتيبيكر»[10] صديقه القديم. الذي كان قد التقاه من جديد في صالات مكتبة «لينين» وأقبيتها. في السجلات القديمة لتاريخ المدن لرابطة

10- «كلاوس شتورتيبيكر» قرصان ألماني شهير عاش في القرن الرابع عشر الميلادي وقد ذاعت الكثير من الشائعات حول حياته واعتبره البعض بطلًا ينحاز للفقراء واعتبره الآخرون لصًا مجرمًا. (م)

«هانزه»[11]. عدو الأغنياء وصديق الفقراء.

كانوا قد لعبوا لعبة القرصان «شتورتيبيكر» في «هامبورج» الضائعة، في الفناءات الخلفية، في المرافئ. *أيها القراصنة، أيها القراصنة، من ذا الذي أفشى سرنا*... قبطان سفينة شحن مجموعة «ذوو الأنصبة المتساوية» العظيم الصبور، الذي هزم النبلاء الأرستقراطيين، لا، الذي كاد أن يهزمهم «الطمع والزور والقسوة يتحكمون».

لكن «كلاوس» كان وحيدًا عندما ذهب إلى سقالة الإعدام. كان مرغمًا أن يجثو على ركبتيه. عندما وضع رأسه على القالب الخشبي المصطبغ بلونٍ أسود دام. كل إنسان يموت من أجل نفسه فحسب، لا لا لا. ماذا حدث آنذاك، في لحظاته الأخيرة؟

نظرة، نظرات وأفكار وذكريات في مخه سوف تختفي سريعًا وعلى الفور. منفصلة. منقطعة.

حاول أن يتذكر ما كان يفكر فيه، أثناء خطواته الأخيرة، هذه الخطوات الأخيرة الكثيرة، التي كانت تقوده دائمًا بعد ذلك، كانت تقوده دائمًا. دائمًا باستقرار. الرصاصات في جدار أحد منازل «هامبورج»، ألف وتسعمئة وثلاثة وعشرين، «هامبورج» الضائعة، المعركة الحمراء، الرفاق الموتى في المعسكر، ألف وتسعمئة وثلاثة وثلاثين، مبنى ذبح الناس، في ما بعد والآن، هذه الصرخات، ضرب حتى الموت، ركل حتى الموت. عندما أحضروه ذات مرة، كان الأمر قد انقضى. هذا ما سبق وأن فكر فيه ولم يسبق له أن فكر في شيء آخر. وكان قد رأى السماء، الرفاق الموتى، سماء «إسبانيا»، ألف وتسعمئة وسبعة وثلاثين، في ما بعد والآن، السماء، التي كانت زرقاء جدًّا وملبدة بالغيوم جدًّا مثل شأنها في أي مكانٍ آخر

11- رابطة «هانزه» رابطة نشأت في القرون الوسطى وضمت المدن التجارية في بحر الشمال والبلطيق. (م)

وكل مكان ومختلفة عن أي مكان آخر. كانت التلال مثل أفيال بيضاء، ظهورها دامية، رصاصات في الجدران، في اللحم، *«فولسبوتل»*، *المعسكر النازي*، بالأمس وفي ما بعد والآن.

وهناك في المعسكر لم يكن قد فكر فيه؛ إذ كان قد نسيه، ذلك القرصان الكبير لفترة طفولته. «شتورتيبيكر». منفصل. منقطع. بعد أن وضعوا له الحبل الرفيع أسفل القميص. أصبح مشدودًا بإحكام في مجرد لحظة. الهتاف بشيء آخر لم يسمعه أحد بالطبع. هروب من الظلام إلى الظلام.

ومن جديد ارتعش الضوء في قبو مكتبة «لينين» وعندئذ سمع صوت القصف البعيد المنبعث من الجبهة الذي امتزج به –مثلما حدث في الليالي الماضية– صوت صافرات الإنذار.

لم يكد ينام منذ أيام. إذ إنه كان قد أعد مع الرفاق منشورات. كنا نكتب ونكتب ونكتب للعدو. كنا ندير ماكينات الطباعة ورأى كيف أن هذه الأوراق كانت تسقط على الجيوش كأنها أوراق شجر صفراء تسقط من الطائرات. *أيها الجنود الألمان لا تصدقوا الأكاذيب! الاتحاد السوفيتي ليس عدوكم!* بلغة شعبه. لا، لا، شعبه كان *هنا*.

«لقد نجونا من الفندق» قالها صديقه «بيشر» واتكأ عليه.

«اشش...اشش» فعلها «فيللي» بينما كانت صافرات الإنذار تعوي أعلى أقبية مكتبة «لينين».

كم ود أن يتحدث «كلاوس» وأن يسمعه الناس –*صافرات إنذار*– قبل أن يختفي. أن يلملم نفسه مرة أخرى.

أن يعرف أن النصر لم يضع في ذلك الزمن. أن يعرف أن الأساطير، التي ستبقى عنه، كانت قوية جدًّا لدرجة أن المطربين والحكائين –*صافرات*

إنذار- سيتناقلونها عبر القرون. *انتقل* – ذهب– *أصبح*.

«لن يتقدم العمر بنا».

ونهض «فيللي بريدل» واقفًا وسار بين الممرات والأرفف، سار بين الكتب، سار بامتداد المسافة بين جدران الكتب التي كان قد بحث فيها وأخذ يبحث فيها في الشهور الماضية عن حقيقة «شتورتيبيكر». قوالب الخشب المصطبغة بلونٍ أسود دامٍ.

وقف إلى حوض الغسيل في تجويف جدار الغرفة. طلاء ميناء أبيض، تقشَّر عنه اللون الأبيض. مساحات صغيرة من الصدأ. كانت قطرات الماء تسقط من الصنبور. كم كانت هذه الأقبية عظيمة وواسعة.

أين الرجل الذي كان سبق وأن جلس في هذا التجويف؟ لم يسبق له قط أن كان وحيدًا هنا بالأسفل. سمع «فيللي بريدل» صوتًا ما. عندئذ همس شخص ما. بصوت مبحوح، مبحوح ومرتبك. أم أن هذا كان صوت همساته هو؟ همسات همس بها لنفسه. كان قد اعتاد على هذا الهمس في المعسكر. وضع يده على فمه. أصبح الآن ساكنًا. أيدٍ على فمه. أيدٍ على فمه. أراد أن يمد يده أسفل قميصه. كان من الضروري أن يصبح حبل المشنقة الرفيع بعيدًا. وعندئذ شعر أنه كان مضطرًّا بشكلٍ عاجل للتبول. سحب قميصه من السروال وفك أزرار سرواله. تنهد بينما تدفقت قطرات بوله في حوض الغسيل. منذ وجوده في المعسكر أصبح التبول شاقًّا عليه. مضروب *بالسياط*، منفصل. قطرة تلو قطرة. وبعد أن كان يتخلص من هذا العبء ويجلس من جديد، كان كثيرًا ما يندفع بقية البول في ملابسه الداخلية. عندئذ كان شيء ما يتعرض للتلف. في المعسكر.

مرآة أعلى حوض الغسيل. كادت أن تكون معتمة. آثار جيرية على الزجاج المتصدع. فتح الصنبور وغسل وجهه في خيط الماء الخفيف. ضغط من

ثمَّ على جسده وبطنه أعلى حافة حوض الغسيل. وضع يده على الزجاج وشعر بفجوات الزجاج وتعرجه. مستو ومتصدع، متموج وبارد. رأى وجهه غير واضح المعالم؛ إذ بدا وجهه منقسمًا إلى أوجه كثيرة. وعندما حرك رأسه، أصبح وجهه مشوهًا وتبدَّدت منه أجزاء يسارًا ويمينًا. لا، لم يرَ شيئًا في الزجاج الذي أصبح مبتورًا. ومن جديد سمع صوت الهمس وتعرَّف في هذه المرة على الصوت وعرف الشعر: *رأيت مذبح «روتنبورج» يمتلئ بوجوهنا. ومنه رأيت صورة عصرنا تنشأ. رأيت مشانق وصلبانًا داخلها وقوالب للتكفير عن الآثام. انفجر الدم خارجًا من الصورة. سال الدم في مواضع كثيرة.*

صاح في المرآة: «هل هذا أنت يا «بيشر»؟» واستدار وصاح بها في الغرفة.

لا، لم يكن قد رأى شيئًا في المرآة. كان يمقت المرآة. يجب نزع كل المرايا من الحوائط وتهشيمها. أطل من النافذة. هناك يوجد الإنسان الجديد. اتكأ من جديد على حوض الغسيل وشمَّ رائحة بوله وفتح الصنبور. تساقطت قطرات الماء على يده.

الإنسان الجديد. ضحك «فيللي بريدل». *وقوالب للتكفير عن الآثام.* ألم يسبق أن تحدث «تروتسكي»[12] للمرة الأولى عن الإنسان الجديد؟ («التعبيريون»، هتف بها «بيشر» ولوَّح بقبضة يده، «التعبيريون» وليس «تروتسكي»!) لا، لا، إنه اسم لا يجوز حتى التفكير فيه. على الرغم من أن الخائن كان قد تعرض للتصفية في المكسيك. في العام الماضي. عام ألف وتسعمئة وأربعين. المعركة الحمراء. منفصل. منقطع. كان الإنسان الجديد قد مزق نفسه إربًا إربًا. الرفيق الفولاذي، قذائف فولاذية... الفندق، كانت أعصاب «بيشر» قد تلفت. تذكر كيف عثر عليه آنذاك في

12- «ليون تروتسكي»: أحد رموز ثورة أكتوبر في روسيا عام 1917 وأحد أقطاب الماركسية. (م)

غرفته، «بيشر»، والإبرة في ذراعه، كان يرقد في فراشه كأنه ميت. «يا «هانز»، يا «هانز»، ماذا تفعل؟».

وبدأ «بيشر»، الذي استجمع قواه من جديد وظهر المورفين في عينيه الضخمتين بلونٍ يجمع بين الأسود والأحمر مثل زهرة الخشخاش، يتلو بصوتٍ منخفضٍ جزءًا من أعمال «مایاكوفسكي» قائلًا: «وهو، أي الحر، الذي صرخت أناديه، ذلك الإنسان، سيأتي، أنا أضمن هذا».

«مایاكوفسكي» فنان مذهب المستقبلية العظيم... كم ود «فيللي بريدل» أن يتعرف عليه ولطالما شعر بالإعجاب بسطوة لغته وقوتها. كان هو نفسه مجرد كاتب بسيط من أبناء الطبقة العاملة وكان قد حاول أن يتعلم من الواقعيين العظماء «الآن لا تستصغر نفسك هكذا يا «فيللي»، «فالديمير» هذا...» -قال حقًّا «فالديمير» بدلًا من «فلاديمير»- «... لقد فرَّ من المكان وانتحر رميًا بالرصاص، إن لم يكن حتى...». حرَّك «بيشر» يده في الهواء وهو يفكر وصنع مسدسًا من إصبعي الإبهام والسبابة. ووضع «بريدل» إصبع السبابة مذعورًا على شفتيه، *فلتصمت أو لتطلق النار، أيها الرفيق*، غير أن «بيشر» واصل حديثه ببساطة: «لكنك ما زلت هنا يا «بريدل» وتحمل لواء الثورة الأدبي البروليتاري». بدا «بيشر» خائر القوى تمامًا. سحب الحقنة من ذراعه وأمسكها بالإبرة نحو الأمام باتجاه صديقه «بريدل» الذي تراجع صامتًا. «الدين أفيون الشعوب لكن الأفيون هو الأفيون بالنسبة للشاعر «بيشر»!».

«أعطني هذا يا «هانز»، فلتتحلَّ بالعقل!».

«الأب العجوز «ستالين» يحب رفاقه الألمان!».

«بحق السماء يا «هانز»...».

وحكى «يوهانس بيشر» -الذي كان «فيللي» يسميه دائمًا «هانز»

فحسب- عن «فويرباخ» ذلك «الفيلسوف العظيم وأحد الشيوعيين الأوائل» وعن التيارات الحمراء المتوهجة التي احترقت على مدار القرون وأخذ يتنقل هنا وهناك في حكاياته المشوشة. حكى عن أدمغة الموتى التي كانت «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية»[13] تجري تجارب عليها والتي اتحدت سويًّا وتمكنت من قراءة الأفكار... أخذ يحكي ويتلو حتى انهار باكيًا واستغرق في النوم. وضع «فيللي بريدل» غطاءً عليه وتوجه إلى الباب. دار برأسه -عندما جذب الباب من خلفه ليغلقه- أن كل الاختبارات ليس لها نهاية، حتى هنا مع الأصدقاء لكننا نؤمن، نؤمن بالإنسان الجديد، بالعالم الجديد...

«وأخذ ناس جدد ينقلبون أكثر فأكثر على الثروات غير المسيحية والمتاعب الوحشية التي تعرض لها الفقراء». هذا ما كتبه «فيللي بريدل» إلى طاولته في قبو مكتبة «لينين» عندما كان صديقه «شتورتيبيكر» ينتقل إلى البحر في العصر الذي تمتعت فيه رابطة «هانزه» القوية بالسيطرة.

عاش «شتورتيبيكر» مع الصيادين وعمل معهم. رأى ضيق معيشتهم وشعر به. رأى كيف تعرضوا للاستغلال. وخلق «بريدل» شخصية «فولفلام» الموظف الإداري ذا السطوة الذي كان من شأنه أن يرمز إلى المستغلين في رواية «بريدل». ومن *هذا رأيت صورة عصرنا تنشأ*. كان «فولفلام» يصدر عقوبات بتعسف ويقطع الأيدي عند ارتكاب أتفه خطأ... سافر «شتورتيبيكر» إلى البحر. كان يحلم بحرية البحر. وصار «شتورتيبيكر» ملاحًا. أصبح مرغمًا على التمرد بسبب مكائد «فولفلام» الأرستقراطي ذي السطوة. فالبحر أيضًا لم يكن حرًّا. «فولفلام»، اسم، عثر عليه «بريدل» في سجل تاريخي قديم لرابطة «هانزه» في مكتبة

13- مفوضية الشعب للشؤون الداخلية مؤسسة تابعة للاتحاد السوفيتي (سابقًا) وكانت تمارس أنشطة ذات صلة بالشرطة السرية. (م)

«لينين». كان ذئبًا يدعي أنه حمل. كتب «فيللي بريدل»: «كانت ليلة ساكنة وبدا البحر نائمًا» بينما كانت المدينة فوقه تهتز وتعصف من القصف، والمدافع المضادة للطائرات تقذف السماء التي كان الأعداء وفرسان نهاية العالم يخوضون وطيس المعارك عبرها...

كان آنذاك في حالة من الارتباك لبعض الوقت ورأى بطله «شتورتيبيكر» الطائرات مثل طيور نورس فولاذية ضخمة أعلى السفينة وفي وسط الغيوم وتشبَّث بعجلة قيادة السفينة والخوف يملؤه.

شعر «فيللي بريدل» كيف انكسر القلم الرصاص في يده. صمت دوي المدافع المضادة للطائرات. تذوق «فيللي بريدل» طعم الدم؛ إذ إن شفتيه كانتا قد انفتحتا. كان فمه جافًّا وعندما ازدرد ريقه، شعر بألم في حلقه. عندما ذهب إلى تجويف الحائط وبه حوض الغسيل، كان الرجل –الذي كان يجلس هناك دائمًا– جالسًا هناك من جديد. كان يرتدي معطفًا رماديًّا وقبعة مسطحة كانت توضع على ركبتيه في بعض الأحيان. ظل «فيللي» واقفًا على بعد بضعة أمتار وقال بالروسية: «مساء الخير أيها الرفيق!».

أومأ الرجل ذو الشعر الأشيب برأسه فحسب. لم يدرِ «فيللي» ما ينبغي عليه أن يقول. كانت لديه عبوة من السجائر الفرنسية الطيبة في الجيب الداخلي لسترته لكنه عندما ناول العبوة للرجل ذي الشعر الأشيب، اكتفى الرجل بهز رأسه. عاد «فيللي بريدل» إلى منضدته. بمن كان يذكره هذا الرجل ذو الشعر الأشيب. رجل هزيل كان يجلس هناك في تجويف الحائط، ليلة تلو ليلة... الذي كان يختفي في بعض الأحيان ويظهر بعد ذلك من جديد.

كم من الرفاق اختفوا من فندق المهاجرين كأن هناك من جعلهم يرتدون طاقية الإخفاء، طاقية الإخفاء المذكورة في حكايات أسطورية

غامضة. أخذ «فيللي بريدل» ينصت إلى صوت طقطقة الأبواب، خطوات في الممرات، طرق على أبواب، طرق على حوائط. تذكر علامة الطرق التي سبق وأن كان النزيل في الزنزانة المجاورة في معسكر «فولسبوتل» النازي يبث بها فيه الشعور بالشجاعة، *كن قويًّا أيها الرفيق، فكر في المستقبل أيها الرفيق، لن نفقد شجاعتنا وسوف ننتصر أيها الرفيق، فلتؤمن بالمستقبل وبالناس أيها الرفيق*. لم يسبق له أن رآه قط. هل ما زال في هذا المعسكر؟ عاد «فيللي بريدل» إلى منضدته من جديد وعندما استدار مرة أخرى، كان الكرسي الموجود في تجويف الحائط بجوار حوض الغسيل خاويًا من جديد.

سرت منذ أيام شائعة أنه ينبغي على الرفاق الألمان مغادرة مدينة «موسكو» عما قريب. إخلاء. كان ينبغي عليهم، على الأرجح، المضي باتجاه القوقاز نحو مدينة «قازان» البعيدة. كان يود أن يبقى هنا. كان يود أن يذهب إلى الجبهة. كان يود أن يثبت للرجل ذي الشعر الأشيب أنه مستعد للموت في سبيل الشيوعية والاتحاد السوفيتي. مثلما كان صديقه «شتورتيبيكر» مستعدًّا للموت في المعركة. أجل، كان ألمانيًّا وكان الألمان يحرقون البلد. كانوا قد أحرقوا كتبه أيضًا وكادوا أن يحرقوه هو أيضًا في المعسكر. معاقب بالنفي. لكنه كان شيوعيًّا، بلا دولة، *ليتني أذهب إلى وطني ذات مرة*[14]، دولتي المدينة الفاضلة، دولتي الاتحاد السوفيتي، يا أبناء الطبقة العاملة في كل البلدان اتحدوا! ومن جديد كتب: «العاصفة ضربت البحر كالسوط». كلانا لم يكن لديه ثمَّة خيار، هكذا دار برأسه.

انكسر القلم الرصاص ومن جديد أخذ يكتب. كم مرة كان قد قلب صفحات السجلات الزمنية القديمة في الأيام والأسابيع الماضية. فك رموز

14- هذه الجملة جزء من أحد أشعار الكاتب الألماني الشهير «لويس فورنبرج» الذي كتب النشيد الرسمي لحزب الوحدة الاشتراكي وهو الحزب الحاكم لألمانيا الشرقية (سابقًا). (م)

تقارير عن جرائم القراصنة. حاولوا آنذاك أيضًا أن يتحدوا، أي الروابط، الحرفيون وصيادو السمك وعامة الناس والفقراء. ومن جديد أخذ يكتب.

«متمردون جسورون، ثاروا –على الرغم من كل المخاطر– وتمردوا على من يحكمون بلا حق ولا قانون وظلوا متفرقين في الشمال. صحيح أنهم كانوا يحظون سرًّا بإعجاب جموع الشعب المضطهدة لكنهم لم يؤيدوهم بهمة. وهؤلاء المتمردون –الذين انتفضوا ضد سلطة كانت تبدو منيعة وحموا أنفسهم من اضطهاد ذوي النفوذ في عصرهم– كانوا هم أنفسهم مرغمين على أن يتصرفوا بلا رحمة».

وفكَّر «فيللي بريدل» في كل الموتى وكل الأدمغة الهامدة التي كان صديقه «بيشر» يراها مرارًا وتكرارًا بسبب الأوهام التي كانت تراوده عند تعاطي المورفين «أدمغة يا «فيللي»، إنها مخزنة في كل مكان في الأقبية، إنها الأدمغة يا «فيللي»».

أعدموا في إسبانيا فوضويين ثائرين على السلطة ممن أضروا بالقضية وممن خانوا القضية. كم من شباب ماتوا بسبب الفاشية، انتقلوا إلى مساكن جديدة وانتقلوا من مساكنهم القديمة. كان قد رأى الجثث العارية في نهر «إبرة»[15]. كان لواؤه العسكري قد اكتشف غرفة تعذيب في أحد الأديرة في مدينة اسمها «فوينتيس دي إبرو». كان مضطرًّا أن يفكر في المعسكر، معسكر «فولسبوتل»، بعيد جدًّا، في الشمال، لكنه كان حاضرًا هنا دائمًا. كانوا قد أسروا ضابطًا برتبة ملازم وأحد القساوسة، كان مشاركًا معه على الأرجح، حالات غفران بعد الاعتراف بالذنب، صراخات. وكانت وحدة من الجيش الجمهوري الإسباني قد تولت أمر كلا الأسيرين. كان «فيللي بريدل» قد صرف النظر عن هذا وسمع صوت الطلقات. كان

15- نهر «إبرة»: أحد أنهار إسبانيا. (م).

«بريدل» المفوض السياسي للألوية العسكرية الدولية[16] إلا أن جنود الجيش الجمهوري الإسباني كانوا قد فقدوا أصدقاءهم وأشقاءهم.

«كان «كلاوس شتورتيبيكر» قد لجأ لاستخدام السيف ولم يعرف ثمَّة رحمة في الحرب ضد قسوة الذئاب الموجودين بين البشر».

كان علينا أن نحارب من كانوا ينتهجون نهج «فولفلام»، أليس كذلك يا صديقي؟ لكن أين هم من كانوا ينتهجون نهج «فولفلام»؟ من هم من كانوا ينتهجون نهج «فولفلام»؟ أليس الناس أنفسهم من سبق وجعلوهم ينتهجون نهج «فولفلام»؟ الرفيق العظيم «فولفلام»، الرفيق الفولاذي «فولفلام». «لا، لا، لا يحق لك حتى أن تفكر هكذا أيها الرفيق «بريدل»!».

وأخذ «فيللي بريدل» يكتب ويكتب «على سفن قراصنته عاشت روح التمرد، كراهية جارفة لحكم طبقة النبلاء الأرستقراطيين في المدن وحكم السادة الإقطاعيين في الريف. لكنها كانت روح تمرد جوفاء غامضة فوضوية، انصبت فقط على تدمير العدو وإلحاق الضرر به. لقد سرقوا من أصحاب النفوذ ما سبق وأن سرقه هؤلاء أيضًا فحسب». حتى هبط رأسه على المنضدة والأوراق.

وفي الحلم، رأى «فيللي بريدل» المتعب بشدة، المتعب بلا نهاية... نوم سبع مرات في سبع سنوات واستيقاظًا في عالم جديد... وفي الحلم، رأى «فيللي بريدل» تيسًا ضخم البنيان، ذا قامة عالية، وكان ذئبًا وحملًا في الوقت نفسه وكان يستدير دائمًا ويمزق نفسه إربًا إربًا ويهرب من نفسه بقفزاتٍ جامحة ويتعثر في الحفر الناتجة عن قصف القنابل وفي قرى تحترق حيثما أحرقته ألسنة اللهب ومرَّ بأنهار طفت فيها جثث عارية.

16- الألوية العسكرية الدولية كانت عبارة عن مجموعات من المقاتلين المتطوعين من دول عديدة وشاركوا في الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939). (م)

«أيها الرفيق «بريدل»، إن النزعات الفوضوية لـ«شتورتيبيكر» خطيرة وتضر بقضية الحزب الشيوعي والأممية الشيوعية[17]».

«لكن «شتورتيبيكر» يعد يا أيها الرفاق إلى حدٍّ ما أحد الشيوعيين الأوائل!».

«نترقب أن تنأى بنفسك أيها الرفيق «بريدل» عن «شتورتيبيكر» وأن تندد علنًا بانحرافاته أيها الرفيق «بريدل»!».

«لكن«شتورتيبيكر» ينتمي يا أيها الرفاق للجبهة الموحدة ضد الفاشية، إنه ينتمي لمنظمة الأممية!».

«أنت كنت مفوضًا سياسيًّا لدى الألوية العسكرية الدولية أيها الرفيق «بريدل»؛ أي إنك تعرف أن أي حيد عن المبادئ الإرشادية لمنظمة الشيوعية الدولية (الكومنترن) والحزب الشيوعي...».

«لقد اقترفنا أخطاء أيها الرفاق. ربما كان ينبغي علينا أن نتصدى للفاشية بجبهة موحدة، في إسبانيا، أيها الرفاق، وقبل ذلك بكثير بالفعل!».

«أنت مخطئ أيها الرفيق، كانت هناك جبهة موحدة ضد الفاشية في إسبانيا! ألويتنا العسكرية الدولية المجيدة. هل تريد أن تلطخ إرث الرفيق «تيلمان»[18] أيها الرفيق «بريدل» بأن تجعل نضالنا في السنوات الصعبة محل شك وريبة؟».

«لكن الرفيق «تيلمان» كان بمثابة أب بالنسبة لي أيها الرفاق! عندما كنت شابًّا، كان يجلس لدينا إلى الطاولة، حتى إنه حكى ذات مرة قصة

17- الأممية الشيوعية: منظمة شيوعية أسسها الزعيم السوفيتي «لينين» للدفاع عن مصالح الشيوعية في العالم. (م)

18- «إرنست تيلمان»: سياسي شيوعي ألماني مارس نشاطه السياسي في أوائل القرن العشرين وحتى وصول هتلر للحكم. (م)

الرفيق «شتورتيبيكر»!».

«علينا أن نتجاهل العواطف الشخصية أيها الرفيق «بريدل». الحزب دائمًا على حق. وأما «شتورتيبيكر» الذي تتحدث عنه، ألم يتحالف مع العدو؟ ألم يمد يده للأرستقراطيين؟».

«لكنها كانت مجرد خدعة يا أيها الرفاق! إن رفيقنا الفولاذي أيضًا...».

«كيف تجرؤ أيها الرفيق «بريدل» أن تتحدث بوقاحة هكذا عن القائد الأعلى، أي عن رفيقنا الحبيب «ستالين»!».

«لكن أنا أيضًا أحبه حقًّا أيها الرفاق! لكننا لا يحق لنا كذلك أن نرسل الرفيق «شتورتيبيكر» إلى المنفى أو إلى الموت. العدو يقف على الأبواب أيها الرفاق!».

وأفاق «فيللي بريدل» من نومه وشعر ببرودة الجو. كان قد تدثر بغطاء وأصابه الثلج بزغللة في عينه. لم يدرِ لوهلة أين كان. هل أرسله أحدهم إلى «سيبريا»؟ ماذا فعل لكي يرسلوه إلى المنفى؟ لكن لو كانت كلمة *ماذا* ذات أهمية، لما كان قد انتقد ذاته. «أنا أقر بأخطائي أيها الرفاق» كان قد شك في أمر الرفيق الحديدي، شعر بالشك، شعر باليأس، هل كان في إحدى هذه الجزر الجليدية؟ معسكر اعتقال، مذكرات من أحد منازل الموتى، جزيرة «ساخالين»، التي كان السجناء يسكنونها. برودة قارسة، «نابليون» في الثلج. وبعد ذلك سمع صوت الجبهة. صوت دوي أجوف، صوت دوي القذائف المدوي كالرعد، *العاصفة ضربت البحر كالسوط*. وبعد وقت قليل بالفعل لم يعد يرتجف عندما كانت هناك قنابل يدوية تنفجر بالقرب منه. كان «شتورتيبيكر» من يقف بهدوء إلى عجلة القيادة، دون خوف، يمكننا أن نتحمل الرعد وضربات البرق والعاصفة، أليس كذلك يا صديقي؟ يمكننا أن نغير رعد وبرق التاريخ، أليس كذلك

أيها الرفيق؟ وأخذ «بريدل» يفكر في صديقه «بيشر» الذي حكى له عن «فويرباخ» والذي تناقش معه ليلًا في الفندق بصوتٍ منخفض هامس عن نظريات «ماركس» الشهيرة، *ليس تفسيرًا بل تغيير*! عندما ينتصر العدو تكون هذه هي نهاية التاريخ.

جلس -متدثرًا بغطاء- عند باب أحد المخابئ وأمسك غليونه البارد في يده وأخذ ينظر إلى سماء الجبهة ذات اللون الأحمر الداكن.

هزَّه شخص ما. جنديان شابان. كان عليهم التقدم نحو الألمان ونقل الأسلاك وضبط مكبرات الصوت والسير بعد ذلك من جديد عبر الثلوج. لم يصبح الثلج داميًا منذ وقتٍ طويل قط؛ لأن الثلوج كانت تتساقط بلا انقطاع تقريبًا.

كانوا قد جعلوا المنشورات تتساقط كالثلوج على الألمان –الذين كانوا يتقدمون زاحفين باتجاه «موسكو»- آلاف وعدة آلاف كانت تسوقها الرياح في بعض الأحيان لتعود إلى المدينة.

لكن الخريف كان لا يزال موجودًا.

رمش «فيللي بريدل» بعينه في اللون الأبيض. استطاع بالكاد أن يرى الرفاق الذين كانوا يرتدون بذلات مموهة ملونة بلون الثلج. وراوده الأمل ألا يستطيع الألمان أيضًا أن يتعرفوا عليهم بسبب خطوط ملابسهم. حلَّ المساء وامتزجت حمرة غسق الشتاء القصير بالحمرة الأبدية لسماء الحرب، مجموعة من المعتنقين لفكر «فويرباخ» في الظلام. أحيانًا، لم يكن يدري على وجه الدقة أين كان، مدينة «فورونيج» أم «موسكو» أم في مكان ما بالقرب من «فولجوجراد». لم يكد يعاود النوم واعتراه الشعور أنه لم يعد ينام نومًا هانئًا منذ عام ألف وتسعمئة وستة وثلاثين. كان يشعر كثيرًا بألم في صدره. ماذا كان صديقه «بيشر» قد قال؟ «قلوب من

ورق».

أخذ يراقب كيف ثبَّت كلا الجنديين الشابين مكبرات الصوت على أحد الجدران، بقايا مزرعة ومبانيها، أكثر من مرة ظهرت يد من الثلج في الطرق التي سلكوها بين الجبهات. عندما كانت هذه اليد تخص شخصًا يرتدي زيًّا عسكريًّا ألمانيًّا -وكانت اليد تتخبط هناك أمامهم عبر الثلوج متصلبة مثل قطعة خشب طويلة- كان كلاهما يطلقان كثيرًا دعابة «إنها آخر تحية «النصر للزعيم» لك أيها الرفيق» وكان «شتورتيبيكر» يضحك بمرارة. كان قد عدَّل مستهل روايته، في ليلة سابقة على ذلك، في الهدوء القصير للمخبأ.

«ماذا تكتب هناك أيها الرفيق؟».

«حكاية عن قرصان ألماني».

«لدينا لصوص ألمان هنا بالخارج بما فيه الكفاية». أشار الجندي الشاب إلى باب المخبأ. فضحك بعض الواقفين حوله. شباب غير حليقي الرأس والذقن ويدخنون السجائر، وكانت ذقون بعضهم لا تزال ذقون صبية ناعمة. إلا أن «فيللي بريدل» لم يجعلهم يخرجونه عن هدوئه؛ إذ إنه كان قد نشأ وسط العمال لأنه كان ابن أحد العمال وعاصر في إسبانيا حربًا ونجا منها. فابتسم للشباب ودس الغليون في فمه.

«كان «شتورتيبيكر» رجلًا ثائرًا، مناضلًا شابًّا، مفعمًا بالقوة، مثلهم أيها الرفاق. تملؤه الأحلام، مثلهم. وكان يحيا في عصر المعارك الكبرى. كان هذا قبل خمسمئة عام؛ حيث كان صيادو السمك والحرفيون والعمال يتحدون سويًّا لكن الكثيرين كانوا يفتقرون إلى الشجاعة. لقد بدا الخصم جبارًا جدًّا».

أصبح الرجال عندئذ صامتين وكانوا قد تجمعوا حول «فيللي بريدل»

الذي كان يجلس إلى موقد أسطواني كانت لا تزال كومة صغيرة من الجمر متوهجة فيه، حكايات ودفء. «وهل تعلمون أيها الرفاق لماذا أسموه «شتورتيبيكر»؟ لأن هذا كان مجرد... اسم مستعار». كان يتحدث بالروسية مع الجنود الشباب لكنه نطق اسم القرصان باللغة الألمانية. ««شتور-تي-بي-كر». إنه اسم كبير له بالألمانية وقع مثل كلمة *فلتحتسِ الكأس...*» أخذ يبحث عن العبارات الروسية؛ إذ إنه كان قد بدأ في وقتٍ مبكر بالفعل في تعلم اللغة الروسية شأنه في ذلك شأن أغلب الشيوعيين الألمان في منظمة الشيوعية الدولية (الكومنترن)؛ فالروسية لغة الثورة «إنه اسم كبير له بالألمانية وقع مثل عبارة *فلتسقطها* نحو *أسفل، تلك الكأس الممتلئة*!».

شكَّل بكلتا يديه في الهواء كأس بيرة ضخمة ورفعها بشكلٍ مفاجئ إلى شفتيه. فضحك الجنود الشباب. وأخرج «فيللي بريدل» من الجيب الداخلي لمعطفه قارورته الفضية ذات النجمة الحمراء وناولها للجنود الواقفين حوله.

قال شاب صغير السن للغاية: «كم أنها جميلة» ومسح بإصبعه في حذر بالغ على المعدن الفضي والنجمة الحمراء. كان يرتدي قبعة «تشابكا» العسكرية كان قد حشاها بأوراق جرائد؛ لأن مقاسها كان كبيرًا عليه أكثر مما ينبغي. كان «فيللي بريدل» قد رأى هذا بينما أخذ الشاب يخلع القبعة ويرتديها من جديد في عصبية وبينما سقطت قنابل لتنفجر في مكانٍ قريب، في وقتٍ ما في المساء وفي النهار أيضًا. ورأى هذا الأمر من جديد عندما أصبحت قبعة «تشابكا» موجودة في الثلج، في وقتٍ ما في المساء، في وقتٍ ما في النهار. كانت الصحيفة المكرمشة داكنة اللون وملوثة بالبقع.

وواصل «فيللي بريدل» حكاياته عن «شتورتيبيكر» القرصان ومحارب

العواصف وعن مغامراته في البر والبحر وأخذ الجنود يصغون إليه. عما قريب ستدور رحى الحرب من جديد، سيمضون إلى الطقس البارد، إلى النيران، إلى الظلام، إلى الخوف، إلى الصراع الأبدي.

«ماذا كنت تكتب للتو قبل قليل؟» ودَّ أحدهم أن يعرف الأمر.

قال «بريدل»: «لقد قتلت صديقًا لـ«شتورتيبيكر»» وأخذ نفسًا من غليونه الذي ما زال لم يشعله بعد؛ إذ كان يتقشف في استخدام التبغ الجيد.

شاع القلق بين الجنود. موت أحد الأصدقاء، هذا ما كانوا يعرفونه.

وشعر «فيللي بريدل» بالأسف أنه اضطر عندئذ للحديث عن ذلك. فقد كانت العملية العسكرية التالية على وشك أن تبدأ.

قال «فيللي بريدل»: «أصبحت الآن أخجل كثيرًا أنني ألماني».

ساد السكون في كوخ الإيواء، في المخبأ. سمع «فيللي بريدل» صوت طقطقة الجمر الخافت في الموقد. «لا، لا» قالها عندما أراد الجنود أن يعارضوه بقولهم إنه *ليس* من الألمان ولكنه شيوعي وأحد الرفاق.

«أنا أومن بألمانيا الجديدة أيها الرفاق، بلد «ماركس» و«إنجلز» و«تيلمان». لكن بعد ما رأيته في الأسابيع والشهور الماضية...». تلعثم. أخذ نفسًا من غليونه البارد. «كان صديق «شتورتيبيكر» يهوديًّا قديمًا. وقد أحرقته. هنا بالداخل». أخذ من على ركبتيه مفكرته الكبيرة -التي انطوت فيها صفحات كثيرة من مخطوطات من «موسكو»- ورفعها. «أحرقته حيًّا» قالها بعد ذلك بصوت أكثر انخفاضًا بعض الشيء. وفهمه الجنود وأومأ البعض برأسه.

وجلس «فيللي بريدل» القرفصاء خلف السور الذي أصبح لونه أسود

بفعل السخام والذي كان يخص في ما سبق إحدى المزارع على الأرجح، كانت توجد قرية هنا. ورأى كيف أخذ كلا الجنديين الشابين يهيئان مكبرات الصوت من أجل خطبه. أراد أن يسألهم أين كانوا آنذاك بالضبط -لم يعودوا في مدينة «فورونيج» بالتأكيد، ربما كانوا في مكانٍ ما بالقرب من مدينة «فولجوجراد»- لكنه عدل عن ذلك وألقى نظرة على السهوب الثلجية البيضاء، التي كان الألمان يجلسون خلفها في مكانٍ ما وليس بعيدًا على الإطلاق.

«في سبيل الشعب والوطن! ضد «هتلر» وحربه! في سبيل السلام العاجل! في سبيل إنقاذ الشعب الألماني! يا أيها الجنود الألمان تعالوا إلينا! لا تصدقوا أكاذيب ضباطكم! لا تصدقوا أكاذيب «هتلر». الاتحاد السوفيتي ليس عدوكم. اسمعوا صوت ضميركم! لا تكونوا متواطئين أكثر من ذلك في جرائم بشعة! تعالوا إلى عالم السلام بين شعوبنا. نحن نقبل بكم أيها الجنود، نحن ننتظركم أيها الجنود الألمان. لا داعي لأن تشعروا بالخوف عندما تأتون إلينا! إن السلطة السوفيتية المجيدة قوية لكنها عادلة. نريد سويًّا أن نشكل العالم الجديد بعد «هتلر». انظروا إلى وطنكم أيها الجنود الألمان. إن النار، التي أحضرها قادتكم الكاذبون، تشتعل الآن لدى عائلاتكم. فلنطفئها سويًّا!».

وخلع «فيللي بريدل» الكاتب ابن الطبقة العاملة الذي ترجع نشأته إلى «هامبورج» -*آه يا «هامبورج» الضائعة لو أعود إليكِ ذات* يوم- طاقية «تشابكا» الخاصة به عن رأسه واستدار بعيدًا عن الميكروفون وسعل في طاقية «تشابكا». ترى كم شخصًا ممن يتواجدون هناك بالأعلى ترجع نشأته إلى «هامبورج»؟ لم ينتبه ذات مرة؛ فسرى سعاله بصوتٍ مدوٍّ أعلى المناظر الطبيعية الثلجية التي مزقتها حفر القنابل. ولم يستطع أن يتخيل كيف كان الضباط بالأعلى يسخرون منه بسبب ذلك. بينما كانوا يطلقون الرصاص عليه.

لا، لم يكن يضحك قط عندما قال كلا الجنديين الشابين نكات عن الأذرع الألمانية المتجمدة -الجيش الألماني المتجمد- التي ظهرت خارجةً من الثلج. الكثير جدًّا من الشباب الألمان ممن أصبحت بصيرتهم عمياء وممن تعرضوا للإغواء. الكثير جدًّا من الأيدي الشابة ممن لن يعود بإمكانهم أن يزيلوا الأنقاض. لا، لم تكن هناك أسباب كثيرة للضحك في هذا الوقت البارد. ربما ضحك مرير. كان يكتبه كثيرًا جدًّا عندئذ في سطور روايته عن «شتورتيبيكر».

«وكيف مات؟» كان هذا سؤال الجندي الشاب الفضولي الذي كان يضع الجريدة في قبعة «تشابكا».

«لكنني قلت إنهم أحرقوه».

«لا، أيها الرفيق الكاتب. ليس البائع المتجول اليهودي العجوز. «شتورتيبيكر» صديقك أيها الرفيق القرصان».

وحكى «فيللي بريدل» للجنود كيف ذهب القرصان منتصب القامة إلى منصة الإعدام حيث كان الجلاد ومعه السيف بانتظاره.

«لم يسقط في أيديهم إلا بالتحايل والخداع. كان قد عقد تحالفًا مع الأرستقراطيين لكنه كان تحالفًا مع الشيطان».

أومأ الجنود برؤوسهم. كانوا يعيشون في عصر الخيانة والخوف من الوشاية. وتذكر «فيللي بريدل» التحالف الكبير الذي كان الرفيق الحديدي -الذي كانوا يؤمنون به على الرغم من ذلك وسيظلون يؤمنون به للأبد- قد فاجأهم به وبعثهم به على الشعور بالخوف. كان عندئذ في إسبانيا (أم أنه كان في طريق العودة من إسبانيا بالفعل؟ الزحف الكبير للألوية العسكرية الدولية، أه)، المعركة (الخاسرة) أمام الفاشية،

لن تمر[19]! وبعد ذلك بدا العالم متداعيًا وكان وقت طويل قد مر على هذا بالفعل. كان الرفيق المحتال يعرف ماذا يفعل. كان عزاؤهم آنذاك أن الرفيق المحتال يتلاعب بالشيطان. يا «فولفلام»، يا «فولفلام» إن الذئب يتسلل وقد أخذ يتسلل ليلًا عبر ردهات الفندق الذي كان الرفاق الألمان يسكنون فيه وأصبحت الغرف خاوية. وجلس آخر الرفاق سويًّا وأخذوا ينشدون نشيد الأممية[20]. *يجب أن يكون العالم عالمنا... وألا يصبح فريسة للصقور القوية.*

«وقد سخر منه عضو مجلس البلدية «ميلس» –وهو أحد الأرستقراطيين وأحد الأثرياء ذوي النفوذ ممن يستغلون مناصبهم وأحد أمراء الحرب– وسأله هل يشعر بالغم لأنه مضطر لأن يموت».

جلس «فيللي بريدل» القرفصاء خلف الجدار. عويل القنابل. تساقط الثلج وأصبح وجهه متجمدًا من البرد ورطبًا. وشعر بوجود قارورة نبيذ في جيبه الداخلي. كانت هدية من شخص مفقود منذ وقتٍ طويل. ما زالت هناك جرعة أخيرة. نبيذ «كونياك» جيد. عويل القنابل. لكنها سقطت وانفجرت بعيدًا جدًّا. لم يسمع قط صوت طلقات البنادق. كان يرى في بعض الأحيان كيف كانت رصاصات القناصين تحرك ينابيع من الثلج على هيئة دوامات. على مقربة كبيرة. ومدَّ يده إلى الميكروفون وإلى جهاز الإرسال وأخذ صوته يدوي عبر فضاء الصباح.

«أجاب الرفيق «شتورتيبيكر» قائلًا: إن موتي لا يشعرني بالغم؛ لأنني

19- no pasarán: هتاف تاريخي شهير معناه بالعربية "لن تمر" وقد ارتبط بالحرب في إسبانيا بين القوات الجمهورية وبين قوات "فرانكو" حيث سعت القوات الجمهورية ومعها الألوية العسكرية الدولية لإيقاف زحف "فرانكو" نحو مدريد عام 1936 إبان الحرب الأهلية الإسبانية ورفعوا شعار "لن تمر"! (م)

20- نشيد الأممية نشيد ارتبط بالحركة العمالية الاشتراكية وبطبقة البروليتاريا وقد استخدمه الاتحاد السوفيتي نشيدًا وطنيًّا له. (م)

عشت وناضلت ووجهت لكم إهانات كثيرًا بما فيه الكفاية!».

ضحك الجنود الشباب وأطبق البعض على كتف بعضهم بعضًا ونظروا بعضهم لبعض بينما كانوا يضحكون. لم تتخلل تجاعيد الخوف والتأمل والإعياء الوجوه غير الحليقة والمتسخة والمكروبة بل تخللتها تجاعيد تكونت بسبب الضحك. وابتسم «فيللي بريدل» أيضًا ونقر عدة مرات في الهواء بمقبض غليونه البارد. «وأنا أؤكد لكم أيها الرفاق أنه كان محقًّا في ما قاله لهم وأنه وجه لهم الإهانات كثيرًا!».

كانت عاصفة ثلجية قد بدأت وكانوا هم قد انسحبوا نحو حفرة، خلفتها القنابل خلف الجدار، وغطوا أنفسهم بالأغطية البيضاء المبطنة، التي كانوا يحملونها معهم دائمًا. واستلقوا محتشدين وملتصقين بعضهم بجوار بعض. لم يستطيعوا أن يصمدوا هنا طويلًا جدًّا. استطاعوا فقط أن يستريحوا لوقتٍ قصير وينتظروا حتى تنتهي أسوأ الأمور وتمضي. وعندئذ عرف «فيللي بريدل» أين كان؛ ففي مكانٍ ما أمامهم، خلفهم، كانت تقع مدينة «فولجوجراد».

«وعندئذ سأل الأرستقراطي ذو النفوذ، الذي أراد أن يستمر في تعذيب «شتورتيبيكر»، ألا يشعر شتورتيبيكر» بالندم بسبب وفاة رفاقه. لأن رفاق «شتورتيبيكر» كانوا يقفون صفًّا أمام منصة الإعدام. لأنه كان ينبغي إعدامهم هم أيضًا. أجل، قالها «شتورتيبيكر»، وأضاف لا ينبغي أن يموت رفاقه؛ لأنه يموت بالنيابة عنهم. ونظر مباشرة في وجه الأرستقراطي ذي النفوذ الذي سخر منه كثيرًا».

كان بعض الجنود قد جلسوا أمام «فيللي بريدل» على أرض كوخ الإيواء، أي المخبأ. ناوله شخص ما قارورة النبيذ الفضية ذات النجمة الحمراء. وهزها «فيللي بريدل». بدا أنه ما زالت هناك جرعة صغيرة في الزجاجة المعدنية ووضعها على شفتيه وأخذ يحتسي. «فلتواصل الحكي

أيها الرفيق «شتورتيبيكر»».

وفي وقتٍ لاحق، عند عودته إلى «موسكو»، حاول أن يتذكر في قبو مكتبة «لينين» كيف نجا من هذا كله. كان قد عاد من الجبهة بالقطار. فقد كانوا يحتاجونه من جديد في «موسكو». كان الفاشيون ينسحبون وكانوا يبغضون نطق كلمة «الاشتراكيون القوميون». كان الاشتراكيون هم الإرث والمستقبل وكان الفاشيون ينسحبون مثلما فعل «نابليون» في ما سبق في الجليد.

كان قد سافر بالقطار أيضًا إلى الجبهة. كم مرت شهور طويلة على ذلك الأمر. سنوات وعقود. «موسكو» و»فورونيج» و»فولجوجراد». أم أنه كان قد جلس في طائرة؟ كانت شقته في «موسكو» خاوية والنوافذ خربة والمنازل المجاورة محترقة. كم كان من الجيد أنه كان يحمل المخطوطة في الجيب الداخلي لمعطفه. عندما كان يفتح النافذة ويضع رأسه في الهواء البارد، كان يرى القاطرة التي يتصاعد منها البخار وتسير محدثة صوت طقطقة وكانت عرباتها مغطاة على سبيل التمويه بأغطية لونها أبيض في الصحاري الجليدية التي كانت تمر من خلالها وكان «فيللي بريدل» يرمش بعينه في اللون الأبيض.

وأخذ يفكر في الجنود الذين كانوا قد تحركوا باتجاه مدينة «فولجوجراد». كيف كانوا يضحكون في بادئ الأمر وكيف أصغوا إليه بعد ذلك بكل انتباههم عندما حكى عن وفاة «شتورتيبيكر». «وعندما أوقعت بلطة الجلاد رأسه من كتفيه، انتفض فجأة الجسد الكبير مرة أخرى وخطا خطوات مرورًا برفاقه الذين كانوا ينتظرون صفًّا واحدًا بجوار منصة الإعدام أن يموتوا بالبلطة. مثلما كان «شتورتيبيكر» قد تنبأ لعضو مجلس البلدية ذي النفوذ «ميلس». إذ إنه كان قد وعده بسخريته أنه سيحمي كل واحد من رفاقه، يمر به بعد إعدامه، وهكذا

خطا «شتورتيبيكر» -هكذا قالت الأسطورة- ببطء وترنح، ينزف دمًا لكنه منتصب القامة، وهو يمر برفاقه؛ إذ كان ينبغي ألا يذهب موته هباءً».

«أما زلت منشغلًا بـ»شتور-تي-تي-بي-كر» هذا أيها الرفيق؟» هبَّ «فيللي بريل» من قرص المنضدة مفزوعًا والذي كان «فيللي بريل» قد مال عليه وكانت الأوراق موضوعة عليه على شكل مروحة. ومن خلفه، في قبو مكتبة «لينين» في موسكو ذي القبة المقوسة وشبه المظلم، وقف رجل هزيل، كان قد خلع قبعته المسطحة وأمسكها بكلتا يديه أمام صدره. ظن «فيللي بريدل» في بادئ الأمر أن الرجل ذا الشعر الأشيب -الذي كان يجلس دائمًا في تجويف الحائط عند حوض الغسيل- قد عاد لكنه بعد ذلك تعرَّف على الضيف غير المنتظر وتذكَّر تلعثمه بعصبية الذي لم يكن يتوقف إلا عندما كان الرجل يصاب بغضب وهياج.

«مساء الخير أيها الرفيق «كوريلا»» قالها ونهض واقفًا وأضاف: «كنت أظن أنك في مكانٍ ما في «القوقاز»».

«أ-أنا في الطريق إلى هـ-هـ-هناك أيها الرف-رفيق «بريدل». لدي-ي-يك معلومات جيد-د-د-د-ة».

قال «فيللي بريدل»: «وأنت كذلك» وأشار بحركة رأس خاطفة إلى صفحات المخطوطات التي كانت موجودة على المنضدة. كان قليلون فحسب يعرفون أنه كان في حالة صراع هنا بالأسفل مع المادة الخاصة بـ»شتورتيبيكر». كان قد دار برأسه عدة مرات بالفعل ألم يكن ينبغي عليه أن يقرأ من المخطوطة أمام أسرى حرب ألمان -والذين كان يلقي عليهم في أغلب الأوقات روايته عن معسكرات الاعتقال النازية- أو في راديو «موسكو». كاد في حقيقة الأمر أن ينتهي من روايته عن «شتورتيبيكر» وكان لا يزال يبحث عن عنوان لها: «ذوو الأنصبة المتساوية»؛ إذ إن هذا

كان معنى المجموعة التي كان «شتورتيبيكر» منتميًا إليها، أو عنوان «شتورتيبيكر» ببساطة أو «نضال من أجل الحق» أو «فلتأتِ مرة أخرى يا «شتورتيبيكر»» أو «معركة الرفيق «شتورتيبيكر» الكبرى». أعمال تنقيح ومراجعة أخيرة؛ لكنه ظل ساخطًا مرارًا وتكرارًا؛ إذ إنه كان يريد أن يظل «شتورتيبيكر» يضرب بسيفه هنا وهناك. كان قد فكَّر عدة مرات أن يربط حكايته عن «فولجوجراد» -التي كان قد بدأ في كتابتها- بشكلٍ أو بآخر بالمادة التاريخية لجماعة «ذوو الأنصبة المتساوية» («بحر من أنقاض جليدية متجمدة، مدينة لم تعد تتألف سوى من أقبية وموتى، تسللت أشباح في زي عسكري مهلهل عبر هذه الفظائع...»). لكنه كان كاتبًا من أبناء الطبقة العاملة وليس «جيمس جويس»[21]. وأخذ يحدق محتارًا في المنضدة المليئة بالأوراق.

«أ-أنت تـ-تعرف بالفعل أيها الرفيق أنه لم يكن هناك وجود-أبدًا على الأرجح لـ»شتور تيـ-تيـ-بيـ-كر» هذا وأن القرصان «شتورتيبيك-شتورتيبيكر» كان مجرد أسطورة-رة قـ-قـ-قديمة».

«ربما أيها الرفيق «كوريلا» لكننا لا نحتاج في هذه الأوقات إلى أكثر من الأساطير».

«فـ-في هذا أنت محق بالتأكيد إن كانت الأساطير تفيد قضيتنا نا-نا».

سارا ببطء بجوار بعضهما عبر الصفوف اللانهائية من الأرفف العالية وكانا ينعطفان تارةً هنا وتارةً هناك. سارا بتمهل وتوقفا أمام بضعة أغلفة خلفية لكتب مؤثرة بشكلٍ خاص. وتساءل «فيللي بريدل» -الذي لم يكن يصل سوى لكتف الرجل طويل القامة الهزيل- ماذا كان يريد «كوريلا» منه. كانا قد سكنا سويًّا في الفندق في منتصف الثلاثينيات

21- «جيمس جويس» كاتب أيرلندي شهير تمتع بشهرة كبيرة في القرن العشرين. (م)

وعندما بدأت الغرف تصبح خاوية، كان شقيق «كوريلا» أيضًا -الذي كان يسكن معه في الفندق- قد اختفى شأنه في ذلك شأن شيوعيين كثيرين جدًّا، طواقي إخفاء تنحدر من حكاياتٍ خرافية قديمة. لكن «كوريلا» لم يختفِ. كان قد التقى في شبابه بـ«لينين». كان الجميع يعرفون هذا. وكان سبب تلعثمه يرجع إلى جبهات الحرب العالمية الأولى, إلى بداية الحرب العالمية الأولى التي لم تكن تشاء أن تنتهي. كان البعض يهمسون في الغرف الخاوية قائلين إن «كوريلا» نفسه قد وشى بأخيه. لم يصدق «بريدل» هذا الأمر أبدًا.

قال «بريدل»: «كيف عبَّر «جوركي» عن هذا؟» ونظر إلى الوجه الهزيل والشعر اللامع بلونٍ فضي بالفعل والخفيف للرفيق «كوريلا» الذي كان يقف أمام أحد الأرفف ويمسح بإصبع سبابته الطويل على ظهر أحد الكتب المطبوعة بلونٍ ذهبي «في سبيل قضيتنا ليس من الضروري فقط...».

«ليــ-ليــ-ليس فقط أن تناضل البندقية وإنما يجب أن تناضل الكلمة أيضًا». أتم «كوريلا» جملة «بريدل» والتفت نحوه «لذلك بالــ-بالضبط أنــ-أنا هنا أيها الرفيق».

بعد ذلك توَّقف «كوريلا» وقفة من وقفاته الشهيرة والمهمة وشبك ذراعه بذراع «بريدل» مما اضطره لأن ينحني قليلًا وبعد ذلك سار كلا الرفيقين الهوينَى عبر ممرات الأرفف التي لا تنتهي في مكتبة «لينين» وهما يتأبطان ذراعي بعضهما ويتمايلان قليلًا بسبب اختلاف وزني جسديهما بشدة.

قال «فيلي بريدل»: «يجب أن أعترف أيها الرفيق أنني أخطأت...».

«أخــ-أخطأت أيها الر-الرفيق «بريدل»؟ هل تر-تريد أن تمارس نقــ-

نقــ-نقدًا ذاتيًّا؟».

«لا، لا أيها الرفيق. لكنني أظن أنه «رن»، أي «لودفيج رن» محاربنا القديم الفاضل في إسبانيا، الذي صاغ هذه المقولة عن الأسلحة والعبارات...».

«أجل أيها الر-الرفيق «بريدل»، لــ-لكنه كان يستشهد بمقال شهير لــ«جوركي»».

«ممكن فعلًا أيها الرفيق لكنني أظن أن «جوركي» قبل أن يموت بقليل...».

وهكذا أخذا يتناقشان بينما واصلا سيرهما. مرا بتجويف الحائط الذي كانت به المرآة المعتمة أعلى حوض الغسيل. كان في المرآة صدع كبير؛ ففي «موسكو» بأكملها كانت المرايا متصدعة. وسأل «بريدل» الرفيق «كوريلا» -الذي كان يعرف تأثيره وكان يبدو أنه يعرف الكثير جدًّا مما كان مبهمًا بالنسبة لــ«بريدل» نفسه- عن الشاعر «بابل» الذي كان قد عاش وقتًا طويلًا في «موسكو». وكان «فيللي بريدل» قد قرأ كتاب «بابل» *سلاح الفرسان الأحمر* قبل سنوات.

كان «بريدل» يعرف أن «جوركي» كان يقدم الحماية للشاعر «بابل» عندما تعرض الشاعر «بابل» للهجوم؛ لأنه... حقيقة الحرب الأهلية التي مرت وانتهت منذ وقتٍ طويل بالفعل ولم تنتهِ أبدًا... آه، الحقيقة... أصبح «بريدل» متعبًا بشدة فجأة وخُيِّل له أنهما كانا يسيران منذ ساعات عبر ممرات من كتب وأوراق. كم مرة كان قد سأل نفسه -عندما كان يكتب في إسبانيا مخطوطات حكاياته عن نهر «إبرة»- إلى أي مدى يمكنه أن يصف قسوة الفاشيين وقسوتهم هم أنفسهم في الحرب ضد القسوة. ومثلما كان قد قرأ عند «بابل»، كان يتمنى أن يكتب هو أيضًا

عن المعارك والأحياء والأموات، بوضوح تام وعلى النحو الذي يجعل كل شخص مضطرًّا لأن يبكي بسبب الحربً وكل حرب.

لم يعد يعرف في بعض الأحيان هل كان يكذب ويكذب أم أنه كان يكتب حكايات خرافية ويصنع من الحكايات الخرافية الغامضة أخرى واضحة وهل شارك في التأهب للعصر الجديد مثلما كان يأمل.

««بابل»؟» لم يعد «كوريلا» يتلعثم وأضاف: «تمامًا مثل برج «بابل»».

لم يقل شيئًا أكثر من ذلك عن الشاعر «بابل»، الذي كان قد اختفى مثل النحل في إحدى حكاياته التي استطاع «فيللي بريدل» أن يتذكرها، خلايا نحل، ممتلئة بالدخان. لكن من يلقح الورود عندئذ -هكذا دار برأس «فيللي بريدل»- نحن؟

لكنهم كانوا يعيشون في عصر كان يحتاج لمن ينتهجون نهج «شتورتيبيكر». ولا للمشاعر الجياشة أيها الرفاق! إن فجر البشرية معرض للتهديد لو لم يتم استئصال الفاشية! لكن وقع هذا الكلام كان عندئذ تعبيريًّا للغاية وكان الرفيق «كوريلا» قد نأى بنفسه في كتاباته عن المذهب التعبيري بأقصى درجة ممكنة.

كان صديقه «بيشر» -الذي لم يره طويلًا- يخاف من «كوريلا». *لم يره طويلًا* لم تكن تعني أبدًا شيئًا جيدًا في هذه الأيام التي لم تكن تشاء أن تنتهي. سنوات، عقود.

«بيشر»، وكانت الإبرة في الذراع، وكان مضطجعًا على فراش غرفته في الفندق وعيناه مفتوحتان ولونهما أحمر مائل إلى السواد مثل زهور الخشخاش، ماذا كان قد قال ذات مرة عن «كوريلا»؟ تذكر «فيللي بريدل» «الرجل ليس له ظل عندما يتسلل في الدهاليز، انظر مليًّا أيها الرفيق، ليس هناك ظل خلف الرجل».

ليت الأمر هكذا فحسب يا «هانز». كانت لديهم جميعًا ظلال، ظلال أعلى ظلال، كانت عالقة بهم وكانت تجرجر من خلفهم، صغيرة وكبيرة، داكنة ورمادية ومبقعة ببقع حمراء في بعض الأحيان، «أجل أنت محق يا «بريدل» لكنه ليس، ليس لديه ظل. فلتنظر مليًّا»، صديقه «بيشر»، ممدد على الفراش، مناجاة للنفس بهمس، همس مبحوح، العينان مفتوحتان وكبيرتان مثل زهرة خشخاش.

وفي وقتٍ لاحق -بعد أن غادر «كوريلا» قبو مكتبة «لينين» قبل وقتٍ طويل- وقف «فيللي بريدل» أمام المرآة المتصدعة المعتمة واتكأ على حوض الغسيل وفتح الصنبور وشرب. سال الماء باردًا على يده وبلَّل هو جبهته.

كان «كوريلا» قد قال له: «عندما أعود، ستكون لديَّ خطط وسأحتاج إليك من أجل ذلك، أنت و»شتورتيبيكر» هذا».

كان «بريدل» قد سأل «كوريلا»: «إلى أين ستعود؟ ومتى ستعود؟» على الرغم من أن العودة كانت أمرًا صعبًا.

«إلى ألمانيا الجديدة أيها الرفيق «بريدل»، إلى ألمانيا الجديدة».

كانا يقفان في الشرفة الضيقة أسفل قبة محطة المترو الكبيرة، جدران رخامية، والشمعدانات الكريستالية أمامهما. شعر «بريدل» أنه ضئيل في هذه الشرفة التي كان هناك باب بين رفين يؤدي إليها، في نهاية أحد الممرات، الذي كان «كوريلا» قد خطا خلاله بمثابرة. ناوله «فيللي بريدل» علبة سجائر فرنسية لكن «كوريلا» رفض.

«فلتنظر إلى هذه المملكة أيها الرفيق، لقد خلقها الشعب، لقد خُلِقت من أجل الشعب».

ومن أسفلهما سارت من جديد بالفعل قطارات المترو الأولى ووقف ناس

على أرصفة المحطة وأنارت أمامهم الشمعدانات. كريستال كان يصيبهما بالزغللة عندما كانت أضواء قطارات المترو تحل عليه. قال «بريدل»: «أجل، ينبغي أن يرى العالم ماذا يمكن أن تنجزه الاشتراكية». وتذكَّر الشهور التي كانت القنابل تسقط فيها عندما كان الناس يقفون هنا بالأسفل ملاصقين بعضهم لبعض. يا ليت كان هناك مترو في «فولجوجراد».

قال «كوريلا»: «أريد أن أشيِّد مدرسة جديدة». واتكأ على حاجز الشرفة واعترى «بريدل» فجأة شعور بالخوف من أن تتعثر قدما «كوريلا» ويسقط؛ إذ ربما يحمله البعض المسؤولية عن ذلك.

«أريد أن أشيِّد مدرسة جديدة، حيثما نعمل على الدعاية للأدب الجديد وحيثما يصبح أبناء الطبقة العاملة أدباء وأحتاجك من أجل ذلك أيها الرفيق «بريدل»!».

سأل «بريدل»: «مثل معهد «جوركي» الموجود في شارع «تفرسكي»؟».

«أجل أيها الرفيق «بريدل»، معهد للأشقاء في ألمانيا الجديدة».

«ما زال يجب علينا أن نشيدها، أي ألمانيا الجديدة».

«هل يخالجك شعور بالشك أيها الرفيق «بريدل»؟».

قال «بريدل»: «لا، لم نشعر بالشك قط».

رأى «فيللي بريدل» -وهو يقف أمام المرآة المعتمة المتصدعة ويتكئ على حوض الغسيل وقارورة النبيذ الخاوية في الجيب الداخلي وبها النجمة الحمراء المصكوكة بلونٍ فضي- من جديد وميض كريستالات الشمعدانات الضخمة ورأى محطة المترو الشبيهة بالكاتدرائية وسمع صوت الرفيق «كوريلا»: «أعد صياغتها من أجل الشباب، أقصد رواية «شتورتيبيكر»، كتاب فكري أخلاقي من أجل شبابنا في بلدنا ألمانيا الجديدة». تذكر كيف

كان صديقه «بيشر» قد عرض عليه في الفندق كتابًا، حكاية خرافية ترجع لعصر الرومانسية الألمانية وبها رسوم للفنان التعبيري «كيرشنر». كان «كوريلا» ذلك الرجل ذو الشعر الأشيب، عندئذ هزيلًا ويرتدي في رأسه قلنسوة العمال المسطحة، مستعجلًا ومندفعًا. «أريد أن أشيِّد مدرسة!». كان «بريدل» قد قلَّب طويلًا في الليل في صفحات الكتاب الذي كان قد صدر للمرة الأولى عام ألف وثمانمئة وأربعة عشر «الأحداث العالمية... مزقتني بشكلٍ متكرر ومتعدد» أين أنت يا «شتورتيبيكر»، مفوض سياسي؟ «لم نشعر بالشك قط». ورأى في وميض الكريستالات قطار مترو، جلس فيه كل الرفاق المفقودون وأخذوا ينظرون لأعلى في صمت كيف كانا يتكئان على حاجز الشرفة. ورأى «فيللي بريدل» نفسه في قطار «موسكو»-»فولجوجراد»-»موسكو». كم من الوقت مرَّ على هذا؟ ليس أبدًا وللأبد. أصيب في البداية بالذعر؛ إذ إنه ظن لوهلة أنه رأى نفسه بين المفقودين لكن النازيين كانوا قد عذبوه وكان قد نجا من معسكر الاعتقال والفرار، *آه لو أعود إلى وطني ذات* يوم، «لكن كيف يحدث أيها الرفاق أن الرفاق... على يد رفاق؟». «لا يجدر بك حتى أن تفكر هكذا يا «فيللي»!»، *منفصل، منقطع*. وجلس من جديد مع الرفاق الألمان في مقصورة القطار بينما مرت بهم سريعًا بالخارج الصحاري الجليدية وصحارٍ من البشر وصحارٍ من الأنقاض. هاربون، مجموعات من الناس، نقاط داكنة اللون في الثلج، بسيارات، وسيرًا على الأقدام. وأخذ «بريدل» يقرأ مقاطع من روايته *الآباء* المنشورة في مجلة *الأدب العالمي*. صاح الرفيق «أولبريشت» المفوض السياسي ومسؤول الدعاية القيادي: «اقرأ أيها الرفيق «بريدل» شيئًا مضحكًا!» وأخذ «بريدل» يحدق في المرآة المعتمة، علامة الطرق، وضع يده على الزجاج وكان متعبًا، متعبًا على نحوٍ لا نهاية له. «اللانهائية أيها الرفاق؟ نحن لا نتناقش هنا في هذه المشاكل!» علامة الطرق، رجل في زنزانته، منهك القوى ومُعذَّب. ناس

في زنازينهم، منهكو القوى ومُعذَبون. ورأى «فيللي بريدل» الكاتب ابن الطبقة العاملة، الذي ترجع نشأته إلى «هامبورج»، مذبح «بيشر» في المرآة المعتمة في قبو مكتبة «لينين» في «موسكو». *انفجر الدم خارجًا من الصورة*. وضع جبهته على زجاج المرآة المعتم والمتموج. أوهام «بيشر» عند تعاطي المورفين. رأى مدنًا بها أقمار ومصانع كبيرة، اندلعت ألسنة اللهب من مداخنها. ورأى تكسر وسقوط الخرسانة، قاعدة دون نصب تذكارية، تم جرها وتهاوت. *انتقل، ذهب، أصبح*. سمع صوت علامة الطرق خلف المرآة. «كيف سيتذكرنا الناس ذات يوم». رأى وسمع أهوالًا. «لقد خدعني الرفيق»، هكذا أنكر «بريدل» صديقًا قديمًا عرفه أثناء الحرب الإسبانية. هل هذه هي ألمانيا الجديدة التي كنا نحلم بها؟ مدَّ يده نحو صدره، الذي كان يؤلمه، مرارًا وتكرارًا، *قلوب من ورق*، ورأى حروبًا وثورات ونصبًا تذكارية تم جرها وجدرانًا قد سقطت. «إذًا فهذه هي نهاية التاريخ». مآذن متلألئة ونجوم حمراء خافتة، جوعى وهاربون، *انتقل، ذهب*. رأى نفسه في مقصورة القطار مع الرفاق «وقد أُطلِقَ عليه الرصاص»، في المدرسة الجديدة في ألمانيا الجديدة، في معهد «جوركي»، «كتاب فكري أخلاقي من أجل الشباب أيها الرفيق. شيء من قبيل روايتك العمالية الفكاهية عن «هامبورج»!» *آه يا «هامبورج» الضائعة*، «كارل بنتن»، أنت أيها المخمور للأبد «شتورتيبيكر»! «أنا مؤيد للزنوج! (قالها بلكنة عامية)». *الآباء، الأبناء، الأحفاد*، هل كتبت أنا هذا؟ «يا للعنة مرة أخرى، ماذا جاء بنا إلى إفريقيا! لماذا يتعرض الزنوج المساكين للذبح؟ لأن سادة الحديد والفولاذ يتهافتون على تحقيق أرباحٍ أكبر. من الذي يصبح ثريًّا بسبب الثروات المعدنية في إفريقيا؟ نحن مثلًا؟ على الأرجح بالطبع كبار رجال الصناعة الجشعين». أوه، أوه، أوه، على أعتاب العصر الجديد. «شيء مضحك أيها الرفيق! نحن نعرف بالطبع ما هي، أي الإمبريالية، نحن هنا لسنا بصدد إعادة التربية!» مثل «شتورتيبيكر» أعلى موجات

العصر الجديد، الكثيرون جدًّا ممن يسيرون على نهج «فولفلام»! صاح القبطان الطاعن في السن، الطمع والزور والقسوة يتحكمون. وانتزع «فيللي بريدل» نفسه من الصور التي رآها في المرآة المعتمة كأنه مصاب بالحمى وترَّنح عائدًا وهو منهك القوى إلى الطاولة التي كانت أوراق مخطوطته تنتظره عليها وهي خاوية دائمًا وجديدة دائمًا.